المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ملاحظات عن البدو والوهابيين

جرى جمعها خلال التجوال فى الشرق

الجزء الأول

تـأليـف: جون لويس بوركهارت
ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن
مـراجـعة: محمد صابر عرب



1227

ملاحظات عن البدو والوهابيين

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١٢٢٧
- ملاحظات عن البدو والوهابيين (ج ١)
- جون لويس بوركهارت
- صبري محمد حسن
- محمد صابر عرب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Notes on the Bedouins and Wahabys,

collected during his travels in the east

By : John Lewis Burckhardt

Volume 1

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

ملاحظات عن البدو والوهابيين

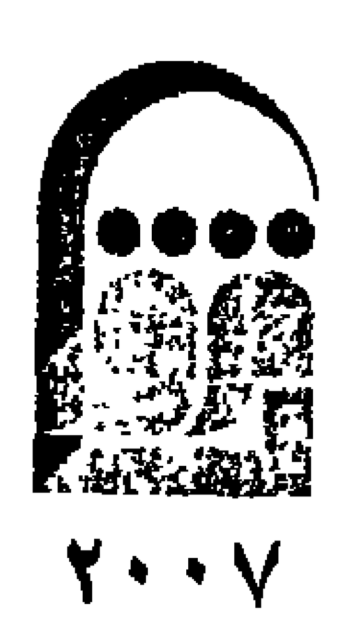
جرى جمعه خلال التجوال فى الشرق

الجزء الأول

تـــألـــيـــف : جون لويس بوركهارت

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

مــراجــعــة : محمد صابر عرب



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس
ملاحظات عن البدو والوهابيين .
أجرى جمعه خلال التجوال في الشرق/ تأليف: جون لويس بوركهارت ؛ ترجمه وتقديم: صبرى محمد حسن ؛ مراجعة: محمد صابر عرب .
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٢٤٠ ص ، ٢٤ سم (الجزء الأول)
١ - الرحلات
أ - حسن ، صبرى محمد (مترجم)
ب - عرب ، محمد صابر (مراجع)
جـ - العنوان ٩١٠

رقم الإيداع ٧٠٧٠ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 259 - X
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة الترجمة

إذا كان بالجريف قد قام برحلته فى عام كامل وأسفرت عن كتابه المعنون : وسط الجزيرة العربية وشرقها(*) ، الذى يقع فى جزأين، ومن بعده دوتى الذى أمضى عامين فى الجزيرة العربية، وأسفر عن كتابه المعنون: ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(*)، الذى يقع فى جزأين أيضًا ، ومن بعد بالجريف ودوتى يجىء فيلبى الذى أصدر كتابًا بعنوان: قلب الجزيرة العربية(*) فى جزأين أيضًا، فقد سبق بوركهارت كل هؤلاء فى العام ١٨١٠ الميلادى ، وزار الجزيرة العربية ليؤلف كتاب: تجوال فى الجزيرة العربية ، فى جزأين، وكتاب: ملاحظات عن البدو والوهابيين، فى جزأين أيضًا ، واللذين لم ينشرا إلا فى العام ١٩٢٨ الميلادى .

هذان الجزآن عن البدو والوهابيين يعدان إضافة سخية إلى الكتب التى نشرها بوركهارت عن أبحاثه التى قام بها فى كل من النوبة وسوريا والجزيرة العربية، وهما يحتويان على معلومات وملاحظات غزيرة ووفيرة عن عرب الصحراء ، وبخاصة الوهابيين منهم .

بوركهارت يقسم هذين الجزأين – بطريقته الخاصة – إلى قسمين يوضحان ويشرحان بعضهما ، ومع ذلك يظل كل منهما مؤلفا مستقلاً ومتميزًا . أحد هذين الجزأين يعتبر بمثابة دراسة وصفية تحليلية بمعنى الكلمة ، أما الثانى فهو بمثابة رصد تاريخى . الجزء الأول لا يقتصر على ذكر القبائل البدوية ، ولا على تناول مجالسها ومنازلها

(*) هذا الكتب الثلاثة من منشورات المجلس الأعلى للثقافة – ضمن المشروع القومى للترجمة،ترجمها جميعًا إلى العربية صبرى محمد حسن .

المحلية المتباينة ، أو أعدادها ، أو قوتها العسكرية فقط ، وإنما هو سرد أمين لعادات وتقاليد وسلوكيات وأعراف غير عادية ، بيننا وبينها الآن قرابة قرنين من الزمان . إنَّ الجزء الأول ينطوى على سرد لكثير من الفنون والعلوم العربية وكذا الملبس والسلاح، وأشياء أخرى كثيرة متصلة بالعرق العربى المهم .

فى الجزء الثانى من الكتاب نجد بوركهارت يجمع من هذه المعلومات الأصلية ، سواء المدون منها أو الشفاهى ، تاريخًا أصيلاً وموصلاً ودقيقًا وأمينًا لأتباع محمد ﷺ ، أولئك الوهابيين المتحمسين تحمسًا شديداً . ونرى بوركهارت يتتبع تاريخهم منذ أول ظهور لهم مصلحين فى القرن السابع عشر ، كما يتتبع حروبهم أيضًا مع الأتراك إلى العام ١٨١٦ ميلادى ، أى فى العام الذى جاء فيه بوركهارت من الجزيرة العربية مسرح العمليات ، إلى مصر، حيث وافته المنية فى عام ١٨١٥ ميلادى، وقد حال الموت بينه وبين الخطط الكثيرة التى كان قد وضعها لنفسه، إذ كان بوركهارت قد وضع نصب عينيه استكشاف المناطق الداخلية غير المعروفة فى إفريقيا .

بوركهارت فى مؤلفه هذا يطلق العنان لمشاعره الصادقة بلغة سليمة، أبت إلا أن تسمح لبعض المصطلحات والتراكيب العربية بالتوغل فيها والنفاذ إليها . الجزآن يتناولان العرب الذين قال عنهم جيبون فى كتابه " الإمبراطورية الرومانية " : "لما كانت البرية الجرداء غير قادرة على إعالة شعب من الصيادين ، فقد اضطروا إلى الانتقال إلى حياة الرعى الأكثر وفرة وأمنًا ، هذه هى الحياة نفسها التى تحياها القبائل الجائلة فى الصحراء . ونحن نستطيع أن نقتفى فى صورة البدو الحديثة ملامح وسمات أسلافهم، الذين عاشوا فى زمن موسى عليه السلام أو محمد ﷺ فى خيام مماثلة، وكانوا يقتادون إبلهم وأغنامهم إلى الينابيع والمراعى التى كان أسلافهم يرتادونها ويترددون عليها" .

غريب هذا السفر الجميل الفريد أنه المخطوطة التى كتبها بوركهارت ، والتى نشرها وليام كيسلى فى عام ١٩٢٨ بعد موافقة وترخيص من جمعية تطوير استكشاف

الأجزاء الداخلية من إفريقيا . والأكثر غرابة أن "مخطوطات اليوميات التى دونها بوركهارت هى والملاحظات التى دونها أيضًا عن الوهابيين باللغة الإنجليزية ، وصلت إلى رعاته فى لندن قبل أن توافيه المنية فى القاهرة بعد شهر إبريل من العام ١٨١٥ الميلادى" (*).

كيف وصلت مخطوطات بوركهارت وملاحظاته إلى رعاته

وصلت مخطوطات اليوميات التى دونها بوركهارت، والملاحظات التى دونها أيضًا عن الوهابيين باللغة الإنجليزية إلى رعاته فى لندن قبل أن يتوفاه الله فى مدينة القاهرة. هذه اليوميات هى والملاحظات روجعت فى بعض أجزائها بواسطة مارتن ليك ، ولكنها لم تنشر على الفور ، بسبب حاجة الرابطة الإفريقية إلى أن تنشر أولاً يومياته عن الرحلة التى قام بها إلى سوريا والنوبة . وجرى فى نهاية المطاف نشر " المذكرات اليومية عن الجزيرة العربية" فى عام ١٩٢٨ ميلادى بواسطة السير وليام كيسلى. كما رأى النور بعد ذلك كتاب "ملاحظات عن البدو والوهابيين". وهذه الكتب تعد من حيث الكم والكيف تذكاراً لا ينسى لرحلة لم تستمر سوى تسعة أشهر ، قضى الرجل قسمًا منها على فراش المرض . وهذه الكتب مهمة جدا لأن صاحبها كتبها فى اثنى عشر شهراً ، وهو فى صحة متأرجحة أفضت إلى وفاته . وعلى الرغم من كبر حجم هذه الكتب فهى لا تحتوى على أى شىء يمكن وصفه بالسطحية أو الغثاء ، كما أن كل جزء صغير من تلك الكتب عامر بالمغامرة الشخصية ، وهى تعد شهادة لم يأت أى مستكشف بمثيل لها فيما يتعلق بالصناعة ومراعاة الضمير والوعى .

يمكن القول إن اليوميات التى كتبها بوركهارت أشبعت عند نشرها كل الفضول الذى استشعره رجال الدين والسياسة والاجتماع ، ورجال التاريخ المحلى ،

(*) اختراق الجزيرة العربية ، تأليف : جورج هوجارث ، ص ١٢٤ . وقد ترجمه إلى العربية صبرى محمد حسن ، وهو من منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة .

والجغرافيون ورجال الاقتصاد والتجارة ، تجاه المدن المقدسة والأماكن المجاورة لها . كما أن هذه المذكرات اليومية التى كتبها بوركهارت كان فيها أيضًا الكثير لطلاَّب وباحثى العلوم الطبيعية ، وبخاصة الجيولوجيين ، على الرغم من كون بوركهارت على العكس من سيتزن ، لم يكن من علماء الطبيعة فى المقام الأول .

تُرى مَنْ كان ذلك البوركهارت، وكيف وصل إلى ما وصل إليه ؟ وما أهمية ذلك الزاد المشْبِع الذى قدمه للفكر والمفكرين والباحثين ؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تحتم علينا تتبع هذا الرجل وسيرته وأعماله ، والجهد الخارق المضنى الذى وضع حداً لحياته عندما لقى ربه فى مصر قبل العودة إلى بلاده .

نزل على أرض جدة شخص يدعى إبراهيم بن عبد الله ، كان معروفًا عند محمد على فى القاهرة ، على أنه إنجليزى مرتد عن دينه ، أو بالأحرى مرتد مجهول الاسم . وكان الباشا صاحب الفكر الحر يخص هذا الإبراهيم بشىء من الحظوة . هذا الإبراهيم هو فى الأصل جوهان لودفيج بوركهارت ، وهو سويسرى من مدينة بازل . وبعد أن تلقى الرجل دراسته فى لندن أوفدته الرابطة البريطانية الإفريقية إلى الشرق . ومن خلال إقامة بوركهارت مدة تزيد على عامين فى حلب ، ومن خلال التجوال فى كل من سوريا والنوبة أمكن لذلك الرجل أن ينتحل بصورة متدرجة شخصية وطباع الرجل الشرقى، واشتهر باكتشاف بيترا(*) . كان بوركهارت فى ذلك الوقت يود الحصول على معلومات عن الجزيرة العربية ، كما أن لقب حاج يمكن أن يفيده فى خطته النهائية التى سيقوم – وفقًا لها – بالاختراق من المغرب وصولاً إلى أراضى النيجر .

(*) البتراء : مدينة قديمة فى الأردن تقع فى أحد الأحواض على الضفة الشرقية لوادى عرابة، كانت عاصمة للأنباط ومركزًا من مراكز تجارة القوافل . ازدهرت بدءًا من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد ، وجرى ضمها إلى الإمبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ الميلادى .

مكانة بوركهارت بين الباحثين:

فى عالم البحث والباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بمن جاءوا بعد بوركهارت ، لا نجد اسمًا من بين أسماء أولئك الذين استكشفوا الجزيرة العربية ، يستحق الثناء والتقدير أكثر من اسم بوركهارت ، وهو لا يستحق كل هذا الثناء والتقدير على أهمية اكتشافاته وزخمها (على الرغم من ادعائه الأولوية فى كثير من الأمور) ، وإنما لأن ترحال هذا الرجل غطى مساحة أقل من المساحة التى غطاها نيبور ، ولم يواجه بوركهارت أخطارا كبيرة ، ولم يواجه صعوبات غير مسبوقة ، ولم يدخل فى مغامرات تثير الدهشة والعجب. كان إبراهيم بن عبد الله (بوركهارت) واحداً من تلك الجماعة الصغيرة صاحبة الحكمة الحكيمة ، وواحداً من أولئك الرحالة المستبصرين الذين يمضون فيما يفعلون بسهولة ويسر، فى الوقت الذى يكابد فيه رحالة آخرون المتاعب والمشاق ، ولا يعلمون شيئًا عن اللحظات المثيرة فى أرض يمكن أن تعمر بالمخاطر فى أى وقت من الأوقات . وإبراهيم بن عبد الله هذا يشهد ويقر أنه لم ينعم بالسلام والطمأنينة إلا عندما كان فى مكة ، كما يشهد ويقر أيضًا أنه لم يلاق فى الجزيرة العربية أحداثًا أسوأ من الأحداث التى يمكن أن تقع لعابرى السبيل والحجاج العاديين فى الحجاز ، ولولا الأمراض الكثيرة التى أصابت جسمه لسجل لنا ذلك الرجل رواية مثيرة. كان إبراهيم بن عبد الله (بوركهارت) متبحراً فى الشريعة والأعراف الإسلامية، ولم يكن ينكر أنه أوروبى ، ولكنه كان يدعى ادعاءً منطقيًا أنه ارتد عن دينه ودخل فى دين الإسلام منذ بضع سنين ، وأن الرجل لم يفعل فى حياته اليومية أى شىء غير ذلك الذى يفعله أى رجل من الرجال المتعلمين المستنيرين أصحاب الدين ، كما كان الرجل يتكلم العربية بطلاقة ، وكانت لغته العربية سليمة . يزاد على ذلك أن بوركهارت لم يهيئ الفرصة التى يمكن أن تمكن منه أيًّا من الباشا المصرى الذكى ، أو أهل المدينتين المقدستين الواعين المتنبهين ، أو أولئك المتشددين الذين يتجمعون فى موسم الحج ، أو البدو الذين صادفهم على الطريق .

فضل بوركهارت :

الفضل المنسوب إلى بوركهارت لا يرجع إلى رؤيته لأشياء كثيرة فى الجزيرة العربية ، وإنما للأشياء الكثيرة التى وقف عليها فى هذا العدد القليل من الأشياء التى رآها ، وهذا راجع إلى رؤية الرجل الواضحة واستعداده الذهنى نتيجة دراسته السلطات المحلية . عظمة بوركهارت لا تتجلى فيما هو جديد على العلم الغربى، وإنما فى صدق معلوماته ودقة ملاحظاته فى حدود معارفه. كان بوركهارت الأول من بين رحالة الجزيرة العربية الذى فهم مسألة التزام المستكشف باستخدام التقصى بكل أنواعه وصنوفه ، كما أن قلة قليلة من المستكشفين(*) هم الذين تركوا وراءهم شيئًا قليلاً لذلك الرجل الذى جاء بعدهم . يضاف إلى ذلك أن وصف بوركهارت لكل من جدة ومكة (المكرمة) إنما هو وصف موسوعى الثمرة الطيبة لعين متأنية وفاحصة لم تغمض مطلقًا عن الاهتمام بكل ما لا يتعلق بالبشر . وبيرتون عندما تحتم عليه تقديم روايته الخاصة لزيارته التى قام بها إلى العاصمة الدينية بعد ذلك بأربعين عامًا - لم يكن أمامه أفضل من الاقتباس عن بوركهارت . وعندما يجد بيرتون ما يضيفه إلى الوصف الذى قدمه سلفه للمدينة (المنورة) فإن السبب فى ذلك يكون راجعًا إلى المرض الذى أصاب بوركهارت وأودى بحياته خلال عامين .

ليس لدينا ما نزيده على ما قلناه عن الرحلات الحقيقية التى قام بها بوركهارت فى الجزيرة العربية . كل ما فى الأمر أن الرجل ذهب مباشرة من جدة إلى الطائف ، مارًا بذلك على ركن من أركان مكة (المكرمة) ، كما مر - أيضًا - من فوق جبل قورة ، وبعد أن تحسنت علاقته بمحمد على عاد إلى المدينة المقدسة مدعيًا التقوى والدين ليكون فى انتظار مجىء قوافل الحج . وبصحبة المؤمنين أدى الرجل فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولكن ضاعت منه فرصة العودة وغادر مكة (المكرمة) مع بعثة الحج السورية ، وكان السبب فى ذلك هو هروب الجمّالة المرافقين له. ومع ذلك ، عندما

(*) لا أميل إلى استخدام كلمة "استكشاف" على بلاد وحضارات كانت معروفة منذ فجر التاريخ . (المراجع)

عثر الرجل على جماعة صغيرة متجهة إلى المدينة (المنورة) فى شهر يناير من العام ١٨١٥ الميلادى، نجده يرافق تلك الجماعة مستخدما الطريق الساحلى، وقد زار قبر النبى ﷺ قبل أن يرقد فى سريره إلى شهر أبريل. وبعد أن عوفى تراجع عن الرحلة البرية إلى مصر، لأنه كان يود زيارة الآثار الحجرية فى الحجر (مدائن صالح). ووصل الرجل إلى ينبع، ومنها استقل إحدى السفن ليصل إلى القاهرة التى وافته المنية فيها .

بقى أن أقول إن الجزء الثانى مذيَّل بملحق قيم يحتوى على الرسالة التى أرسلها محمد على باشا إلى أهل المدينة (المنورة) يعلمهم فيها بانتصاره على الوهابيين . ورسالة أخرى أرسلها عبد الله بن سعود إلى طوسون باشا ولد محمد على، بعد أن قرر مغادرة القصيم عائداً إلى المدينة (المنورة). والغريب فى الأمر أن رعاة بوركهارت يقولون إنه كان لديه الأصل العربى لهاتين الرسالتين . وهذا يعنى أن بوركهارت كان من المقربين إلى محمد على باشا، وهذه نقطة غاية فى الأهمية . كما تحتوى الملاحق على خطبة من خطب عبد الله بن سعود الدينية الموجهة إلى أهل مكة، وهى تستحق الدراسة بعناية فائقة .

صبرى محمد حسن

تصدير

هذان المجلدان ينضمان إلى مجموعة المجلدات التى نشرت فى تواريخ مختلفة . وتضم الروايات والأوصاف التى تضمنت أبحاث بوركهارت عن كل من النوبة وسوريا والجزيرة العربية. هذان المجلدان على حد قول العقيد ليك (الذى أعد كتاب الأسفار النوبية والسورية) يحتويان على "ملاحظات كثيرة وغزيرة عن عرب الصحراء، وبخاصة الوهابيين"(*).

هذان المجلدان جرى تقسيمهما – طبقا لرؤية المؤلف – إلى قسمين يكملان ويوضحان بعضهما بعضًا، ومع ذلك فإن كل مجلد من هذين المجلدين هو بحد ذاته مؤلَّف مستقل؛ فالمجلد الأول وصفى، والمجلد الثانى تاريخى.

المجلد الأول لا يركز فقط على إحصاء القبائل البدوية وتعدادها، أو الحديث عن مؤسساتها أو منشآتها المحلية، أو على أعداد هذه المنشآت أو قوتها العسكرية، وإنما يسجل أيضا العادات والأعراف غير العادية، والقوانين السائدة بين هؤلاء البدو. كما يتناول المجلد أيضًا فنون هؤلاء البدو وعلومهم وملبسهم وسلاحهم، وكثيراً من هذه التفاصيل الدقيقة الخاصة بتلك الأعراف العربية.

أما المجلد الثانى فقد ضمنه بوركهارت معلومات أصيلة ومؤصلة، شفاهية ومدونة أخضعها لكثير من البحث والتقصى والتدقيق، معلومات موثوقًا بها، أو أن شئت فقل تاريخًا للوهابيين، هؤلاء المذهبيين المتحمسين حماسا شديدا. وهذا التاريخ يتتبع هؤلاء منذ بداية ظهورهم مصلحين، مروراً بحروبهم كلها مع العرب الآخرين ومع الأتراك

(*) راجع كتاب بوركهارت " ترحال فى سوريا والأراضى المقدسة"، التصدير، ص٢ . طبعة ١٨٢٢م. (المترجم)

ووصولا إلى عام ١٨١٦ ميلادى، أى ذلك العام الذى عاد خلاله بوركهارت إلى مصر قادمًا من الجزيرة العربية التى كانت مسرحا للعمليات فى ذلك الوقت . وقد عاجل الموت بوركهارت؛ لينتهى بذلك مستقبله الأدبى، ويحول بينه وبين تحقيق الكثير من الخطط التى وضعها لنفسه ، فقد كان بوركهارت يستهدف استكشاف المناطق الداخلية غير المعروفة من إفريقيا.

عند إعداد هذين المجلدين للطباعة تحتم على المعد (كما هو وارد فى تصديره لكتاب بوركهارت عن الجزيرة العربية) أن يذكر للقراء أنه سار على درب صديقه العبقرى – الذى جمع بين البحث ودراسة الأشياء الأثرية ، والذى أشرف أثناء طباعة المجلدين على روايات الرحالة المرحوم عن رحلاته فى كل من النوبة وسوريا، كما عبر بصدق بالغ عن مشاعر المؤلف فى مختلف المناسبات، كما احتفظ أيضًا – دون النظر إلى سلامة الأسلوب أو انتقاء المصطلحات – بلغه المؤلف الأصلية، فى المواقع التى لا يعد التغيير فيها أمرا ضروريا لمنظومتنا اللغوية وتراكيبنا النحوية؛ الأمر الذى أدى إلى دخول بعض التعبيرات الأجنبية إلى كتابتنا الإنجليزية.

هذان المجلدان كافيان لتقديم نفسيهما للقراء متباينى الأذواق، من خلال وسائل عجيبة ومميزة، لكن يتعين على القراء جميعهم الاهتمام بتاريخ هؤلاء العرب الذين يمكن أن نورد هنا ما قاله عنهم جيبون فى كتابه "الإمبراطورية الرومانية : "لما كانت البرية الجرداء غير قادرة على إعالة شعب من الصيادين، فقد اضطروا إلى الانتقال إلى حياة الرعى الأكثر وفرة وأمنا ، هذه هى الحياة نفسها التى تحياها القبائل الجائلة فى الصحراء . ونحن نستطيع أن نقتفى فى صورة البدو الحديثة ملامح وسمات أسلافهم القدماء، الذين عاشوا فى زمن موسى عليه السلام أو محمد ﷺ فى خيام مماثلة، وكانوا يقتادون إبلهم وأغنامهم إلى الينابيع والمراعى التى كان أسلافهم يرتادونها ويترددون عليها".

وليام كيسلى

لندن ١٩ مارس من العام ١٨٣٠م

وصف القبائل البدوية

تصنيف القبائل البدوية التى تسكن الصحراء السورية:

يمكن تصنيف هذه القبائل تحت عنوانين رئيسيين : القبائل التى تهل على المناطق السورية المنزرعة فى الربيع والشتاء ثم تغادرها فى أواخر الشتاء، والقبائل التى تبقى طوال العام كله فى المنطقة المجاورة للأراضى المنزرعة . الصنف الأول من القبائل هم قبيلة العنزة، والصنف الثانى يتكون من قبائل عدة تدخل تحت مسمَّيَيْن، هما أهل الشمال، وعرب الكلبى .

العنزة أقوى جماعة عربية فى المنطقة المجاورة لسوريا، وإذا ما أضفنا إلى العنزيين إخوانهم فى نجد يصبحون أقوى المجموعات البدوية فى صحراء الجزيرة العربية كلها. والعنزيون الذين يقيمون فى الجزء الشمالى من الجزيرة العربية عادة ما يتخذون لأنفسهم مقامًا فى صحراء الحماد، أو إن شئت فقل السهل الواقع بين الحوران وحيت، الذى يقع على نهر الفرات. الحماد خلو من ينابيع الماء، لكن مياه الأمطار تتجمع فى فصل الشتاء فى الأراضى المنخفضة فى صحراء الحماد، كما توفر الشجيرات والنباتات الصحراوية مرعى لماشية العرب. معروفٌ أيضا أن العنيز يعبرون نهر الفرات ويخيمون فى العراق العربى، وعلى مقربة من بغداد. كما أنهم يقتربون من حدود سوريا فى فصل الربيع، ويشكلون خطا من المخيمات يمتد من حلب إلى مسافة رحلة مقدارها ثمانية أيام فى جنوب دمشق. ومع ذلك، فإن مقام العنيز الرئيسى فى فصل الربيع يكون فى الحوران والمنطقة المحيطة بها؛ إذ يخيمون بالقرب من القرى وفيما بينها، فى حين يستقرون – عندما يكونون فى الأجزاء القصية من الشمال – فى اتجاه كل من حمص وحماة، ويجعلون مسافة بينهم وبين المناطق المأهولة بالسكان،

حيث يقضون فترة الصيف كله فى هذه المنطقة وهم يبحثون عن المرعى والماء. ويشترون فى فصل الخريف المؤن التى يحتاجونها فى فصل الشتاء، وهى عبارة عن كميات من القمح والشعير، ثم يعودون مع بداية سقوط الأمطار إلى المناطق الداخلية من الصحراء.

تمكن العنزيون بفضل قوتهم من فرض إتاوة سنوية على السواد الأعظم من القرى القريبة من الحدود الشرقية السورية. وقد مضى على تحولهم إلى المذهب الوهابى أكثر من خمسة عشر عامًا. يضاف إلى ذلك أن الأرباح التى يحصلون عليها من قوافل الحجاج المتجهين إلى مكة هى التى تجعلهم على وفاق مع الحكام الأتراك، بل إن هذه الأرباح هى التى أغرتهم بوقف الجزية(*) التى كانوا يدفعونها للرئيس الوهابى(**)، لكن لابد أن نسلم أن الحج إذا لم يعد إلى ازدهاره القديم فإنهم سيصبحون من جديد تابعين للوهابيين، ويتعاونون معهم بعدئذ فى تخريب الجزء الحالى من سوريا. العنزيون الشماليون الذين أتكلم عنهم هنا ينقسمون إلى أبع جماعات رئيسية، هى: **ولد على، والحسنّين، والروالة**، ثم **البشر** .

١ . ولد على: مقام ولد على يكون بصفة عامة خلال فصل الشتاء على طريق الحج، ويمتد إلى أن يصل إلى قلعة الزرقة . وشيخ ولد على اسمه الطيار، وهو يحتل المكانة الأولى بين الشيوخ، ومن ثم فهم يطلقون عليه اسم: أبو العنزة. وولد على ينقسمون إلى خمسة قبائل رئيسية:

(أ) **المشادقة**: وهم يشتملون على عرب الطيار، أى قبيلة الشيخ الكبير، والمريخات، واللهاوين .

(ب) **المشطة**: وشيخها يدعى ضوحى بن إزمير ، وهو أقوى شيوخ العنزة فى الوقت الحالى ، على الرغم من أنه أقل منزلة من الطيَّار. وضوحى بن إزمير يستمد نفوذه من باشا دمشق ، الذى اعتاد تزويده كل عام بعدد هائل من الإبل اللازمة لقافلة

(*) هى ضريبة العشور، وليست الجزية التى يدفعها غير المسلمين نظير حمايتهم . (المراجع)

(**) يقصد الأمير الوهابى . (المراجع)

الحج. ويندر على ضوحى بن إزمير أن يخيم فى فصل الشتاء على بعد مسافة تزيد على رحلة مسيرها بين ثمانية أيام أو عشرة عن دمشق. وقد لاذ يوسف باشا بعد هروبه من دمشق فى عام ١٨١٠ ميلادى بخيمة ضوحى بن إزمير.

أكبر قبائل المشطَّة هى العواض ، وهى كلها مكونة من عائلة إزمير الكبيرة وأقاربهم : الطيور ، والعطيفات ، والمكيبل .

(جـ) **الحمامدة** : وهم يقيمون بصفة أساسية على طريق مكة، ويمتد مقامهم إلى معان ، والحمامدة لهم شيخان من العائلة نفسها ، هما سالم الإدَّة، وإمبارك الإدَّة.

(د) **الجدالة** : وهم يشملون قبيلتين رئيسيتين ، هما: القرينات والتورشات ، وهم يتبعون ابن إزمير.

(هـ) **الطلُّوح** : قبائل ولِد على الرئيسية، تحصِّل من الحجاج أثناء مرورهم عبر الصحراء صُرَّة ، وهذا المبلغ مدون فى دفتر حسابات باشا دمشق ، أو إن شئت فقل: أمير الحج، كما أنها مدونة أيضًا لدى الخازندار (وزير الخزانة) فى القسطنطينية. ولكن هذه الصُرَّة(*) تتزايد كل مرة طبقًا للضريبة التى يفرضها الباشا على الشيوخ، وهذا الامتياز يستغله الباشا لمصلحته الشخصية، إذ يساوم العرب على الخيول ، والإبل والأغنام . والطُّلُوح هى القبيلة التى تحصل على الصُرَّة الخاصة بها من القسطنطينية مباشرة.

٢ . **الحِسنة** : ليسوا كثيرى العدد مثل القبائل العنزية الثلاث الأخرى:

(أ) **الحِسنة** الذين يطلق عليهم أصلاً هذا الاسم شيخهم يدعى مهنا ، وهذا المهنا غالبًا ما يخيم فى الصحراء شرقى الطريق المتجهة من دمشق إلى حمص .

(*) الصُرَّة: كلمة تركية، والمقصود بها الجزية أو الإتاوة التى كانت تدفعها قافلة الحج لشيوخ القبائل عند المرور عبر الصحراء. (المترجم)

والصرَّة تختلف عن الجزية التى تدفع من جانب غير المسلمين، بينما الصرَّة تنطبق على ما تدفعه أية جماعة نظير ما قد يندرج تحت عوامل كثيرة . (المراجع)

والحِسَّين يضرب بهم المثل فى الشجاعة والكرم والضيافة. وقبائل الحسنة هى: الشمسي وهى أنبل قبائل الحسَّين (يقال إن الشمسي يمتلك كل فضائل البدوى المترحل)، والكدَّابة ، والعويمبر ، والرفاش ، والمحينات ، والحِجاج ، والشراعبة .

(ب) **المساليخ** : الذين يتبعون لواء المهنا ، وينظر الناس إليهم باعتبارهم من المرتزقة . وعلى الرغم من أنهم يفوقون الحِسَّين عدداً، فإنهم ينضمون إليهم فى غزواتهم لكى يصيبهم شيءُ من كرم الشيخ. وقبائل المساليخ هى اللهيتمى، وبنو رشود الذين يطلق الناس عليهم أيضًا اسم بنى التليهان ، والبلسان ، والسميليك .

يُقال: إن الحِسَّين كونوا ذات يوم قبيلة واحدة، ثم انقسموا بعد ذلك تحت اسمين. وكل من الحِسَّين والمساليخ يحصلون على إتاوة من قافلة البصرة وقافلة بغداد، التى تقطع الصحراء وهى فى طريقها إلى حلب أو دمشق. هذه الإتاوة تقدر بحوالى ثلاثة شلنات عن حمولة الجمل الواحد، كما يجبون أيضًا إتاوة مماثلة من القرى التى على الطريق.

٣ . **الروالة** : قبيلة قوية تمتلك من الخيول عدداً أكبر مما تمتلكه أية قبيلة أخرى من قبائل عنزة . فى عام ١٨٠٩ الميلادى تصدى الروالة وهزموا الحملة المكونة من ستة آلاف رجل، تلك التى سلَّطها عليهم باشا بغداد. وهم عادة ما يحتلون الصحراء فى المنطقة الواقعة بين جبل الشمر فى اتجاه الجوف إلى جنوب الحوران ، لكنهم يخيمون فى أغلب الأحيان بين نهرى دجلة والفرات. والروالة شأنهم شأن العنزة ، رفضوا طوال سنوات كثيرة الجزية المعتادة التى كانوا يقدمونها للوهابيين. وقد أدت معارضتهم الشجاعة لباشا بغداد إلى إحداث نوع من المصالحة بينهم وبين ابن سعود. فى شهر يوليو من العام ١٨١٠، صحب الروالة الوهابيين إلى الحوران، وأوصلوا ابن سعود إلى القرى بالغة الثراء. والروالة يزورون قبيلة ابن إزمير فى فصل الربيع كل عام ، لكى يحصلوا من خلال وساطة ابن إزمير على إذن من الباشا بشراء القمح والشعير من بلاده. والروالة لا يحصلون على صرة من الحج أو أية إتاوة من قافلة بغداد أو قافلة البصرة. وقبائل الروالة الرئيسية هى السوالمة ، والعبدلى ، والفراجة ، والبلايش ، والبدور، وابن عويج ، والزراق ، وصحَّان ، والهجليس ، والدراى .

٤ . **البِشْر** : أكثر القبائل العنزية عدداً. شيخهم الكبير يدعى ابن هدَّال، وهو يخيم مع قبيلته في نجد، وهو المكان الذى يتخذ منه البشر مُقامًا رئيسيًا لهم. ابن هدَّال واحد من كبار الرجال فى بلاط الدرعية، إن جاز لنا أن نطلق هـذا الاسـم على مقر ابن سعود. بدأ البشر قبل خمسين عامًا مضت يطلبون إتاوة مرور من كلٍّ من قافلة بغداد، وقافلة البصرة. كان الحِسِّين يحصلون على هذا الإتاوة منذ قديم الأزل.

ينقسم البشر إلى القبائل القوية التالية : الفضحان ، وابن إمهيد ، وابن غيبين (الذى اقتادنى إلى تدمر فى العام ١٨١٠)، وابن كاى شيش، وابن غضزور، والسَّباع. وقد اكتشفت وأنا فى طريقى من حماة إلى تدمر أن أماكن السقيا كلها مملوكة لعرب هذه القبيلة، الذين يوجد إخوان لهم فى نجد ، والسليمات ، والحُسِنى (يجب عدم الخلط بين هذه القبيلة والحِسِّين)، والمِضيان . وهذا هو ما وصل إليه علمى فى مسألة القبائل العنزية. وإذا أردت تفصيل الأفرع الصغيرة لهذه القبائل فذلك يعنى الدخول إلى مجال العائلات الكبيرة ، وأقارب هذه العائلات الذين يشكلون فيما بينهم قبيلة صغيرة. ومن الصعوبة بمكان تحديد عدد أفراد كل قبيلة بشكل قاطع ؛ بسبب الإساءة التى تمنعهم من عدِّ الخيالة. وهم شأنهم شأن التجار الشرقيين ، يعتقدون أن من يحاول معرفة حقيقة ثروته على وجه الدقة لا بد وأن يضيع منه جزء منها . وعن طريق الباعة الجائلين الدمشقيين الذين أمضوا حيواتهم كلها بين البدو ، عرفت بعض التفاصيل التى تحفزنى على القول إن قوة قبائل العنيز سالفة الذكر (بخلاف إخوانهم الذين فى نجد) تقدر بحوالى عشرة آلاف خيال، وربما إلى تسعين أو مائة ألف جمَّال، وهذا الرقم مرجح زيادته لا نقصانه. جماعة العنزيين الشمالية كلها تقدر بما يتردد بين ثلاثمائة ألف نسمة وثلاثمائة وخمسين ألف ، موزعين على مساحة لا تقل عن أربعين ألف ميل مربع.

أهل الشمال

العرب الذين يطلق عليهم هذا الاسم ، أو بالأحرى "أمم الشمال"، هم تلك القبائل التى تخيم طوال العام بين قرى شرقى سوريا ، أو إلى حد ما فى الصحراء التى كانت

منزرعة – فى يوم من الأيام – من الحوران فى اتجاه تدمر فى الشمال إلى أن تصل إلى منطقة السخنة ، تلك القرية التى تبعد عن حلب مسير خمسة أيام على الطريق المؤدى إلى بغداد. هذه القبائل تسكن ما يسمى أرض شمال الجزيرة العربية. قياسا على خيام هؤلاء العرب نجد أن لديهم خيولاً أكثر من أعداد تلك الخيام ، لكن إبلهم أقل عدداً من إبل العنيز. وإذا ما بدأنا من الشمال يمكن أن نتعرف ما يلى:

١ – **قبيلة الموالى** : بالقرب من حلب وحماة . وأمير هذه القبيلة أو شيخها يحصل على مبلغ من المال كل عام من حاكم حلب ؛ نظير حماية قرى البشالك من القبائل العربية الأخرى. والموالى لديهم حوالى أربعمائة خيال ، وهؤلاء الموالى معروف عنهم الخيانة والغدر. والد شيخ الموالى الحالى هو محمد الخرُفان، (الذى يصفه فولنى بأنه شيخ قبيلة ولديه ثلاثون ألف خيَّال، وهذا العدد يفوق عدد الخيَّالة العرب فى المنطقة بين سوريا وبغداد) وقد قتل بطريق الغدر والخيانة عددا يقدر بحوالى مائتى ضيف من العنيز فى حفل بهيج أقامه فى خيامه ؛ أملاً فى الاستيلاء على أفراسهم. والترك والجمجيم وكذلك العقيدات هم أصلاً من سلالة الموالى لكنهم مستقلون عنهم. أما القبائل الأصغر من ذلك مثل الحذيفة والمداحيش فتتبع الموالى على الرغم من عدم انتمائها إلى نسبهم أو سلالتهم . تحول بعض العقيدات إلى فلاحين ، وراحوا يزرعون الأرض المحيطة بالدير القديم على نهر الفرات . بعض آخر من العقيدات يخيمون بالقرب من بعلبك ، وبعض ثالث من العقيدات يخيمون فى جبل الهيش ، جنوب غربى دمشق.

٢ – **الحديديون** : هم فى حرب دائمًا مع الموالى الذين يقيمون بالقرب منهم ، وهم يتساوون مع الموالى فى عدد الخيول ، والسواد الأعظم منهم مسلح ببنادق المسكيت، وهم يربون أعداداً كبيرة من الحمير ، ونساء الحديديين شهيرات بشقرتهن. وفى المبارزات والمشاجرات التى تدور بينهم وبين جيرانهم من الموالى يلوذ الطرف المنهزم إلى مُسَيَّجات الحدائق فى حلب.

السُكين: قبيلة يقدر عدد خيامها بحوالى ستمائة خيمة، وهى تقوم بزراعة جزء من جبل هاس الذى يقع فى شرق وجنوب شرق حلب.

البراك والمدجل: قبيلتان من أصل كردى أو تركمانى، وهم يتجولون بين عنتاب ونهر الفرات.

٣ – **التركمان** : قبائل تركمانية متعددة تتجول حول كل من حماة وحمص.

٤– **العرب تحت حَمل حماة** : أو بالأحرى العرب الذين يدفعون إتاوة أو جزية لمتسلم حماة . والمتسلم هذا موظف يخضع لإمرة باشا دمشق ، وهذه الإتاوة أو الجزية تكون على شكل أغنام وزبد ، وبعض الإبل التى يعملون على توفيرها بأسعار مخفضة لاستعمالها فى نقل الحجاج. هذه القبائل العربية هم بنو خالد (وهناك فرع من بنى خالد يقيم فى المنطقة المجاورة للبصرة) والبشاكون ، والطوقان ، وأبو شيبان ، والحويرون ، وأبو عزى ، وبنو عز ، والرتوب ، والشيكارة ، وغنمات الطيل ، والخراشون ، والرزيق ، والحدادون ، والتركى ، والجماجيم . كل هذه القبائل تشكل جزءاً من القبائل الثلاث التى سبقت الإشارة إليها. ويقدر عدد خيام بنى خالد بما يتردد بين مائتى خيمة وثلاثمائة ، أما بقية القبائل الأخرى فيتردد عدد خيام الواحدة منها بين خمسين خيمة ومائة.

٥ – **العرب الذين فى منطقة بعلبك** : يقيمون فى السهل ، على بعد مسير حوالى عشرين ساعة فى اتجاه الشمال ناحية حمص ، وهم يدفعون إتاوة تقدر بحوالى خمسة عشر رطلاً أو عشرين من الزبد عن كل خيمة من الخيام ، وهذه الإتاوة تدفع لأمير (شيخ) بعلبك ، وذلك مقابل رعى ماشيتهم فى أراضيه فى فصل الصيف. هؤلاء العرب هم التركمان السويدية ، الذين يخيمون على الجورد الشرقى المواجه للبنان ، والتابع لأراضى بعلبك . ويذيع صيت هذه الجبل عند الرعاة باعتباره مرعى ممتازاً. هناك بضع خيام من خيام الكيدات والعبيد ، وبخاصة بالقرب من الحرمل ما بين القاع وحمص . ويرجع نسبهم إلى عبد أسود من الحَرفوش (والحرفوش عائلة المتولى الحاكمة فى بعلبك) ، وقد جرى تحريرهم وتحولوا إلى الحياة الرعوية المتنقلة ، ويزيد عدد خيامهم على ثمانين خيمة.

٦ – **عرب سهل البقاع الخصيب** : الذى يرعون فيه ماشيتهم فى فصل الصيف فقط ، يدفعون نظير ما يدفع من إتاوة لأمير (شيخ) البشير ، الذى هو شيخ الدروز الكبير. وهناك جزء من الفضل يتخذون من القنيطرة وجبل الحيس مقاما لهم. وهناك قسم من النعيمى يقيمون أيضاً فى القنيطرة ، شأنهم فى ذلك شأن الفضل.

والنميرات يخيمـون فى منطقـة صفـد فى فصـل الشتاء ، كما يخيمـون أيضًا فى الزريكات. ويمكن أن نزيد على هـؤلاء العرب ما يسمى بعرب الهيب ، وهم عبارة عن قبيلة صغيرة ترعى ماشيتها فى فصل الشتاء بالقرب من شاطئ البحر فى المنطقة ما بين الجبيل وطرطـوس. بعض أسر الهيب تبقى فى الجبال طوال شهور الشتاء، وهم ينصبون خيامهم بالقرب من قرى أكورا أو تِمرين . فى فصل الصيف يصعد الهيب جبل ليبانوس ، الذى رأيتهم مخيمين فيه ومعهم ماشيتهم فى شهر سبتمبر من عام ١٨١٠ ، فى أرض لحلوح فيما بين البيشارى وأكورا ، بالقرب من أعالى قمم الجبال . وهـم يربون الأبقار إلى جانـب الإبل والأغنام والماعز ، كما يدفعون أيضًا إتاوة إلى طرابلس ، ويشتهرون بأنهم لصوص كبار.

٧ - **الصُلَّيب** : قبيلة من قبائل أهل الشمال ، تعيش متفرقة بين قبائل العنيز المجاورة لها وبين عرب الشمال ، كما تعيش أيضًا على وفاق مع الجميع ، لأن الصُلَّيب أصلا من الفقراء . والصُلَّيب لا يملكون خيولاً ، أو إبلاً ، أو أغنامًا ، أو حتى خيامًا. ولأنهم عائلات مستقلة فهم يبنون لأنفسهم أكواخًا بائسة. وفى بعض الأحيان تتجمع عشرون أسرة أو ثلاثون مع بعضها لتحمى نفسها من غائلة الطقس فى خيمة واحدة كبيرة بائسة. وممتلكاتهم الوحيدة عبارة عن عدد قليل من الحمير، وبعض أوانى الطهى، وبندقية. ووسيلتهم الوحيدة فى العيش تتمثل فى الصيد والرماية. ورجال الصُلَّيب ونساؤهم وأطفالهم يتخذون من جلود الغزال لباسا لهم ، كما يتخذون من جلود الغزال جوالات يستخدمونها فى حمل أثاثهم وحاجياتهم. وهم يتجولون تجول الشحاذين بين العرب ، ويشترون بالصدقات التى يحصلون عليها بارودا ورشا ، ولحم الغزال المقدد هو طعام الصُلَّيب على مدار العام .

٨ - **أهل الجبل** : هذا هو الاسم الذى يطلق على العرب الذين يسكنون الجبال الممتدة من حمص إلى ناحية تدمر. هناك سلسلتان من الجبال : أولها الجبل الأبيض ، وثانيها جبل الرواك ، وهذان الجبلان يلتقيان عند تدمر. هؤلاء العرب يحصلون على

إتاوة من قرى أرض الشمال ، لكنهم – أيضًا – يدفعون إتاوة سنوية لقبيلة العنيزة من الحسِّين. وقبائل أهل الجبل الرئيسية هى العمور ، وهم ينصبون ما يتردد بين أربعين خيمة وخمسين من خيامهم بين أكواخ فلاحى تدمر، ولديهم سلالة ممتازة من الخيول.

ونحن إذا ما واصلنا المسير فى اتجاه الجنوب فإننا نجد كثيرا من القبائل العربية المقيمة فى منطقة دمشق، وبخاصة حول بلاد الحوران. هذه القبائل يمكن أن تكون معروفة بين أهل الشمال. والعنيزة فى أضعف الأحوال يدرجون هذه القبائل ضمن أهل الشمال، لكن السوريين ينظرون إلى هذه القبائل باعتبارها تشغل منطقة تتوسط بين عرب الشمال وعربى الكبلى. ونحن عندما نبدأ بهذه القبائل العربية الخاضعة لباشا دمشق يمكننا تصنيفها تحت أربعة عناوين رئيسية، على النحو التالى :

أ – عرب الحوران ، الفحيلى : يقدر عدد الخيالين عندهم بحوالى مائتى خيال. ويكافئ باشا دمشق شيخ عرب الحوران كل عام ببَلِّيس(*) ، كما يستخدمه فى جمع الإتاوة (الضريبة) من كل عرب جبل الحوران ، ومن المنطقة التى يطلقون عليها اسم ليجا . وفى مقابل ذلك يتوقع الباشا الحصول على هدية تتراوح قيمتها بين خمسة عشر كيسا وعشرين من النقود. والفهليون يحصلون كل عام على إتاوة من قرى الحوران كلها، وهم فى بعض الأحيان يحجزون الهدية عن الباشا ، وهم دومًا فى نزاع وحرب مع حاكم الحوران.

السردى : ينقسمون إلى قبيلتين : عرب الظاهر ، وعرب الواكد ، ولكل منهما شيخان. منهم حوالى مائة خيال أو مائة وخمسين خيالا ، كما أن لديهم سلالة جيدة من الأفراس. ويقدم باشا دمشق لأحد شيوخهم كل عام مجموعة من الألبسة والأسلحة ، وهو يعاون قوات الباشا فى مواجهة المعتدين أو الغزاة الذين يهاجمون منطقة الحوران . والسردى شأنهم شأن الفهليين؛ فهم دومًا فى حرب ونزاع مع الباشا

(*) البَلِّيس : بفتح الباء وتشديد اللام وكسرها ، معطف أو سترة طويلة من فراء ، أو مبطنة أو مزركشة الأطراف بالفراء. (المترجم)

فى معظم الأحيان ، كما أنهم يحصلون على إتاوة من قرى الحوران . وهو يعاون قوات الباشا فى مواجهة المعتدين ، وقد تصل تلك الإتاوة فى بعض الأحيان إلى ضعف الإتاوة التى يحصِّلها الفهليون.

أهل جبل الحوران : قبائل متعددة تعيش فى سلام مع جيرانها ، ولا ينسون مطلقا ولاءهم لباشا دمشق. وهم لا يغيرون مقامهم أو يهجرونه ، ولكنهم قد يغيرونه بحثا عن المرعى . وهم بمثابة الرعاة عند فلاحى الحوران ، الذين يرعى لهم أهل جبل الحوران قطعان أغنامهم وقطعان الماعز بين صخور الجبال. وهؤلاء الرعاة يعيدون القطعان فى الربيع إلى أصحابها ، ليحتفظوا بها مدة ثلاثة أشهر فى القرى كى يحلبوا ألبانها ويصنعوا زبدا من ذلك الحليب ، ويقومون ببيع صغار الأغنام فى دمشق.

هؤلاء الرعاة يحصلون فى مقابل هـذا الرعى على ربع السلالات الصغيرة ، كما يحصلون أيضًا على ربع كمية الزبد التى يجرى إنتاجها من حليب الأغنام والماعز . وأهل الحوران هؤلاء ، يقومون بنقل الفحم النباتى إلى دمشق.

يدخل ضمن أهل الحوران كلٌّ من: الشنابلة، والحسَّان، والحدى، والشرفوت، والمزايد، وبنو عظم، والسمارات ، والكيراد أو بالأحرى الأكراد ، الذين هم قبيلة عربية من أصل كردى. وأهل جبل الحوران هؤلاء نسوا لغتهم الوطنية ، وأصبحوا عربا من جميع النواحى. والمعروف أن الروفاى هم والغياث ، يدخلون ضمن أهل جبل الحوران ، على الرغم من أنهم يندر أن يخيموا أو ينصبوا خيامهم فى ذلك الجبل. ومقامهم المعتاد يكون فى بلاد الصفا ، التى تبعد مسيرة يوم ونصف يوم عن جبل الحوران. يضاف إلى ذلك أن صعوبة الاقتراب من ذلك المكان هى التى تجعلهم يتحدون باشا دمشق ، هو والقبائل العربية المتحدة. والصفا عبارة عن أرض صخرية مستوية فيها مرعى ممتاز. والغياث لديهم نحو ثمانين خيالا. كل قبيلة من هذه القبائل تملك عددا من الخيام ما بين ثمانين خيمة ومائة ، ومعروف أن الشنابيل هم الأكثر عددا من بين هذه القبائل.

ب ـ عرب الليجا: هؤلاء العرب يتجولون فى المنطقة الصخرية المستوية التى يطلقون عليها اسم الليجا ، عند السفح الشمالى الغربى لجبل الحوران . هذه المنطقة

يصل عرضها مسير يوم واحد ، أما طولها فيقدر بمسير يومين أو ثلاثة أيام ، والمنطقة مليئة بالحفر التى يصعب تجاوزها مثل حفرة الصفا. هذا الظرف هو الذى يغرى العرب فى معظم الأحيان بالتوقف عن دفع الإتاوة (الضريبة) للباشا ؛ الأمر الذى ينتج عنه نشوب الحرب ، يتقدم خلالها عرب الليجا ويروحون يخربون قرى الحوران. ولكن افتقار بلاد عرب الليجا إلى ينابيع الماء هو الذى يضطر هؤلاء العرب إلى مهادنة الجيران مع اقتراب فصل الصيف. وعرب الليجا يدفعون إتاوة يحصِّلها الفهليون، تتراوح ما بين عشرة قروش وستين قرشا عن كل خيمة ؛ طبقا لثراء أصحاب هذه الخيام.

والقبائل الرئيسية فى عرب الليجا هى الصلُّوت ، والمدلج ، وفى كل قبيلة منهما حوالى مائة وخمسين خيمة . أما السلمان والضويهرة والسيالة فيقدر عدد الخيالة عندهم بنحو ستين خيالا أو ثمانين، لكن يندر أن تخلو أية خيمة من بندقية قديمة ذات زناد. هؤلاء العرب يبيعون الفحم النباتى لفلاحى الحوران.

ج . **عرب الجولان:** الجولان مقاطعة تمتد مسافة مسير ثمان ساعات من دمشق، لتصل إلى مسير رحلة مقدارها ثلاثة أيام فى اتجاه أقصى الجنوب الشرقى. ويصل عرض الجولان إلى ما يقرب من مسير عشر ساعات. وباشا دمشق هو الذى يعين ذلك الموظف الذى يطلقون عليه اسم (حاكم الجولان)؛ ليقوم بجمع الضريبة الأميرية من الفلاحين ، كما أنه هو الذى يجمع الإتاوة من العرب.

والقبائل التى تخيم فى سهل الجولان هى الدياب ، والنعيم ، والوسيع ، والمناضرة ويعيشون على ضفاف وادى حامى صقر ، وهو عبارة عن مجرى سيل منحدر من الحوران، ويغير اسمه إلى شرارات المنظور عند اقترابه من البحر الميت. وبعض هؤلاء العرب مستقرون ، لكنهم يعيشون فى خيام، وهم يزرعون بساتين الفاكهة التى يشترى منها الباعة الجائلون ؛ ليبيعوا تلك الحاصلات فى سائر أنحاء الحوران. يعيش فى جنوب الجولان أيضاً بنو كلاب، الذين يطلق عليهم أيضاً اسم الكلابات أو المكلوب .

د . عرب القنيطرة أو جبل الهيش: القنيطرة عبارة عن قرية صغيرة فيها خان(*) واحد ، وتبعد القنيطرة مسيرة يومين عن دمشق ، في الاتجاه الجنوبي الغربي . والقنيطرة تقع في وسط جبل يطلق عليه اسم "هيش القنيطرة" (بمعنى غابة القنيطرة) ، وكلمة "هيش" قد تعني "جبل" . وهذا الجبل يمتد من سطح جبل الشيخ - في ظل تسميات مختلفة - إلى أن يصل إلى الطرف الجنوبي الشرقي من البحر الميت، إلى أن يتصل بالجزيرة العربية، والعرب يسكنون جبل الهيش. وتقدر هذه المسافة بمسيرة حوالي أربعة أيام في اتجاه جنوب غرب دمشق ، ثم تنحدر بعد ذلك نازلة إلى الجانب الغربي من الجبل ، حيث السهول الشمالية الشرقية لبحيرة "سماكونيتس" التي يقولون لها بحيرة الحولة ، والتي يمكن عندها العثور على بعض من قبائل عرب القنيطرة. هنا يقوم أحد موظفي الباشا - ويسمى: أغا القنيطرة - بتحصيل الضريبة السنوية من العرب ، والتي غالبا ما يدفعها العرب عينا ، ويجري إيداعها في قلعة مزريب . هؤلاء العرب يعيشون في سلام دائم.

وقبائل هؤلاء العرب على النحو التالي :

الفضل : هم الذين يحمل شيخهم (ابن حسان) لقب أمير. وهؤلاء يعيشون بصفة أساسية في الهيش . وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن عرب البقاع وعرب الجولان. وعدد خيامهم يتراوح ما بين مائتي خيمة ومائتين وخمسين. وهم يزودون دمشق بالحليب والأغنام ، والفحم النباتي الذي يصنعونه من أخشاب شجر البلوط الذي ينمو بكثرة في الهيش. وقبائل الفضل الفرعية هي الحروك والجرمي .

النعيم : قبيلة قوية جدا من القبائل العربية. والنعيم، شأنهم شأن الفضل الذين يحتلون معهم مساحة واحدة ، يزودون دمشق بالحليب ، واللبن (وهو الحليب "الرايب" أو الحامض) والزبد والجبن ، والفحم النباتي. وهم يدفعون إتاوة للباشا بصفة منتظمة. البعض منهم يزرعون الأرض في أجزاء مختلفة من الجبل ، والبعض الآخر عبارة عن

(*) خان : فندق (في بعض البلدان الأسيوية) . (المترجم)

بدو مرتحلين. ولديهم قلة قليلة من الخيول، لكنهم يملكون أعدادا كبيرة من الأغنام التى يبيعونها فى دمشق وفى جبل الدروز واللِّبانوس أثناء مقامهم فى البقاع فى فصل الصيف . يصل عدد خيام النعيم إلى حوالى أربعمائة خيمة أو خمسمائة . ومن بين قبائل النعيم الصغيرة قبيلة تدعى الحرب .

الوُسَيّع: بعض هؤلاء الوسيع يزرعون الأرز والذرة فى الجبل ، لكنهم يعيشون فى خيام ويغيرون منزلهم بعد كل حصاد. ولديهم إبلٌ وأغنامٌ وأبقارٌ ، ولكن أولئك الذين فى منطقة الحولة يربون الجاموس. والوسيع ينقسمون إلى قبيلتين : الحماسة ، والبكارة .

الشواية ، والدياب ، والكيبورى ، والجعاتين ، وبنو رابيا ، والمحمدات ، والتركمان، الذين لهم مستوطنة فى جبل الهيش لا يقل عدد خيامهم عن مائة وستين خيمة. وهم لا يزالون يتكلمون اللغة التركية ، كما أن قلة قليلة منهم هم الذين يفهمون اللغة العربية. وأصغر قبيلتين من هؤلاء العرب هما النهايات والسوًادى ،ة الذين يسمون بهذا الاسم نظراً لأن أغنامهم كلها سوداء اللون.

بنو عز ، واللهيب ، والسماك ، وهم يسمون بهذا الاسم لأنهم يندر أن يغادروا أو يتركوا شواطئ بحيرة الحولة ، التى يمارسون فيها مهنة صيد السمك .

وقبائل بنى عز على النحو التالى : **البركيات ، والإيب ، والوهيب ، والزغيرى ، والسياد ، والعزى ، والأبى هيا ، والدحيوت ، والأراكى ، والشرازيل ، والشام .** كل قبيلة من هذه القبائل يتراوح عدد خيامها بين أربعين خيمة وستين. لكن قبيلة الدياب والأراكى وبنى عز يصل عدد خيام كل منها إلى مائة خيمة. هذه القبائل كلها تعيش فى وئام مع بعضها البعض ، وهى على اتصال دائم بدمشق. وأهل هذه القبائل شأنهم شأن أهل البقاع؛ يطلق عليهم اسم "عرب الطاو" (بمعنى العرب الذين جرى إخضاعهم). وقبل أن أستطرد فى ذكر هؤلاء العرب الذين تم إخضاعهم وهزيمتهم ، قد يكون من الضرورى إلقاء نظرة على ثلاث من القبائل الحرة ، التى تنصب خيامها فى اتجاه الجنوب من مقاطعة الجولان، هذه القبائل الثلاث هى بنو صخر والسرحان ، وبنو عيسى .

بنو صخر: يتجولون فى السهل، فى المنطقة ما بين المحطة الرابعة والمحطة الثامنة على طريق الحج، ثم يتحركون من هذه المحطة الأخيرة قاصدين جبل البلقاع فى اتجاه الغرب. وجبل البلقاع هذا يعد امتدادا لجبل الهيش. وبنو صخر يخيمون أيضًا فى الحوران. وهم لا يدفعون ضريبة للباشا، لكن قوات الباشا تخشى بأسهم ، والصخور (جمع: صخرى) مشهورون بشجاعتهم ؛ فقد قاموا فى عام ١٧٥٥ بالسطو على قافلة الحج ومهاجمتها. ومظهر الصخور الرجولى وقسماتهم الواضحة ولحاهم الكثة ليست أدلة على أصلهم البدوى؛ ومع ذلك فهم يتباهون بأنهم أحفاد بنى عبس ، تلك القبيلة النجدية القديمة ، الشهيرة فى التاريخ البدوى.

والصخور فى حرب دائمة مع العنيز الذين يدخلون منْزَلهم فى فصل الصيف. يضاف إلى ذلك أن اللهجة العربية لبنى صخر لا تزال تحتوى على كثير من التعبيرات السليمة على نحو أكبر من لغة العنزة. وتتمثل قوة الصخور فى حوالى خمسمائة خيال.

والصخـــور ينقسمون إلى قبيلتين:

قبيلة الطواخة الذين ينقسمون إلى مجموعة أفرع صغيرة ، هى: الحكيش، والبرسان، وبنى زين، ثم بنى زيدان .

وقبيلة الكاعبين الذين يطلق على قبيلتهم الصغيرة اسم بنى زهير .

السِّرحان : يخيم السراحون عادة بالقرب من بنى صخر ، الذين يعيشون معهم فى وئام ، ويتحدون معهم فى مواجهة العنيز. كان السراحون قبل قرنين من الزمان سادة الحوران، ولكن السِّرديين طردوهم إلى الصحراء حتى أوصلوهم إلى الجوف ، حيث ظلوا فيها جوعى هم وماشيتهم طوال عشرين عامًا، ثم عادوا بعد ذلك وانضموا إلى بنى صخر. وقوتهم تقدر بحوالى ثلاثمائة وخمسين خيَّالاً. والناس يلومونهم لأنهم لا يراعون لشهر رمضان حرمةإلا من الناحية الشكلية فقط. ونساؤهم شهيرات بشقرة بشرتهن. وأصل هذه القبيلة يرجع إلى منطقة بلاد الرافدين. والسرحان ينقسمون إلى قبائل، هى: ابن رامل ، وابن رافاى ، وابن البالى ، ثم الحبيلى .

بنو عيسى : يتساوون من حيث القوة مع السراحين، وهم مثل السراحين أصدقاء للصخور وأعداء للعنيز ، وهم يُحصِّلون إتاوة من القوافل المتجهة إلى بغداد والقوافل المتجهة إلى البصرة.

عرب جبل البلقاع

جبل الهيش يتحول اسمه إلى جبل البلقاع على بعد مسير خمسة أيام فى اتجاه أقصى الجنوب الغربى من دمشق ، وإلى الغرب من فضين ، تلك القرية الصغيرة الواقعة على طريق الحج.

هؤلاء العرب يسكنون هذه المنطقة وتمتد مخيماتهم إلى أن تصل إلى كيراك الشوبك ، فى الركن الجنوبى الشرقى من البحر الميت ، ثم تنحدر تلك المخيمات نازلة إلى الجانب الغربى من الجبل، حيث السهول القريبة من تلك البحيرة. وعرب البلقاع يضمون أكثر من أربعين قبيلة صغيرة ، يصل إجمالى عدد خيامها إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف خيمة أو أربعة آلاف. والأصل المشترك لعرب البلقاع هو قبيلة الحطيم، وشيخهم الكبير يدفع ضريبة سنوية مقدارها ألفا رأس من الغنم لباشا دمشق، وولاء ذلك الشيخ الكبير متأرجح. وعرب البلقاع يقتادون ماشيتهم ليبيعوها فى القدس، وقد تحول الكثيرون منهم إلى الزراعة ، لكنهم لا يزالون يعيشون فى الخيام. وقبائل عرب البلقاع الرئيسية هى:

بنو حسَّان ، وابن الغنَّام (هاتان القبيلتان كبيرتا العدد) ، والحَتَابِى ، والعَبَاد ، والجِرِيم ، والبديات ، والجهاوش ، والعُوَاثِم ، والشّيرات ، والزِّفيفة ، والرِّشِيد ، والدْاجِى ، والبِلِّى ، والخَنَاتِيل ، ثم المِشَالِخَة .

ونحن إذا ما انحرفنا عن البلقاء فى اتجاه الغرب فسوف نجد فى السهول المحيطة بالبحر الميت وبحيرة طبرية عدداً كبيراً من القبائل المنضوية تحت اسم : الغور (وهم هنا يطلقون على أراضى المستنقعات اسم غور)(*). وهذه القبائل مقسمة حسب أماكن إقامتها إلى أربع فئات هى :

عرب غور طبرية: ومنهم الصخور (ويجب عدم الخلط بينهم وبين بنى صخر ؛ لأنهم فئة مختلفة) ، والفوت ، والبَشَاتُو .

(*) الغور : غور الأردن ما بين القدس ودمشق، وهى منطقة منخفضة ؛ لذا سميت الغَوْر. وعلى طرفه طبرية وبحيراتها . (المراجع)

عرب غور البيسان : الذين منهم الغزاوية ، والبواطين ، وبنو فاد .

عرب غور القدس (أو الكود) : وهم أولئك العرب الذين يعيشون فى المنطقة ما بين البحر الميت والقدس. والقبيلة الرئيسية عند هؤلاء العرب قبيلة المسعودى ، التى يلقب شيخها باسم أمير الكود. وهم يجبون إتاوة كبيرة من الحجاج المسيحيين المتجهين إلى جرش والبحر الميت.

عرب غور الريشة: قبائل هؤلاء العرب هى الجِرْمِى والتُّمِير ، وعدد كبير من سكان هذا الغور يقومون بزراعة الأرض ويربون الجاموس ، ويبيعون ماشيتهم فى سوق القدس ، ويدفعون جزية لمسلمى ذلك المكان.

ونحن إذا ما عدنا من الغرب متجهين صوب الأجزاء الجنوبية من البحر الميت نجد قبيلة عربية مخيمة بالقرب من حبرون (أو الخليل ، كما يسميها المواطنون). هذه القبيلة يطلق عليها اسم الجالين ، وهم يزرعون الأرض ، لكنهم يعيشون فى الخيام، ولديهم عدد قليل من الخيول ، لكنهم يملكون كثيراً من البنادق الفتيلية القديمة.

أهل اللبكى

القبائل التى سنأتى على ذكرها هنا يطلق عليها اسم أهل القبلى ، أو الأمم الجنوبية ، وهى على النقيض من أمم الشمال ، أو بالأحرى أهل الشمال. ها هم عرب كيراك يعيشون فى المنطقة الواقعة إلى الجنوب من المنطقة التى تسكنها قبائل البلقاء(*). وقد سمى عرب الكيراك بهذا الاسم تيمنا باسم قرية كيراك الشوبك التى يعيشون بالقرب منها. هذه القرية فيها قلعة على جبل يعلو البحر الميت عند طرفه الجنوبى الشرقى ، وهذه القلعة هى نيبو القديمة . (راجع : سفر تثنية الاشتراع ، الإصحاح رقم ٣٤، الآية رقم ١) . وسكان كيراك الأصليون الذين يقدر عددهم بحوالى

(*) البلقاء : ما بين الشام ووادى الثرى ، وتتبعها قرى كثيرة تجود فيها الزراعة . (المراجع)

ستمائة مسيحى ، ومعهم أيضًا عدد كبير من الأتراك – يشكلون نوعًا من البدو المرتحلين الذين يغادرون ديارهم فى فصل الصيف ، ويتجولون هم وعائلاتهم ومواشيهم بحثًا عن المرعى وأماكن السُّقيا. أتراك كيراك وهَّابيون، والمسيحيون يدفعون جزية سنوية للحكومة الوهابية. قبائل كيراك العربية من : العمير ، ولديهم حوالى ثلاثمائة خيال ، ويحصلون على صُرَّة من الحجاج، وهم فى أغلب الأحيان يتزوجون من أهل الكيراك. والصُّليط، ولديهم حوالى ثمانين خيالاً ومائتى بندقية فتيلية قديمة، وليس لديم سوى عدد قليل جدا من الإبل. وبنى حميدة ، الذين يزرعون الصحراء فى أنحاء كثيرة منها.

فى جنوب كيراك يغير الجبل اسمه من جديد ، فيصبح جبل شيرا ، حيث تمتد أفرعه الجانبية إلى غزة. هذا الجبل يسكنه عرب الهجاج ، الذين لديهم حوالى أربعمائة خيال. والفلاحون منهم يزرعون الأرض فى وادى الحَسَّة ، ووادى الحَسَّة هذا عبارة عن مجرى سيل ينساب إلى البحر الميت . وهم يدفعون على سبيل الإتاوة نصف حاصلاتهم الحقلية إلى هؤلاء العرب. وبنو نايم يخيمون فى منطقة معان، التى هى المحطة التاسعة على طريق الحج المؤدى إلى مكة.

الحويطات : وهم يقيمون فى منطقة أكاب الشامى، أو بالأحرى الأكاب السورى ، الذى هو بمثابة المحطة العاشرة من محطات الحجاج القادمين من دمشق ، والأكاب السورى هذا يبعد مسير يوم ونصف عن الأكاب المصرى ، الذى يقع على الفرع الشرقى من البحر الأحمر.

والحويطات لديهم حوالى ثلاثمائة خيال ، لكن بوسعهم تجنيد قوة كبيرة من الجمَّالة المسلحين. وهم على اتصال مستمر بالقاهرة. وفى كل عام تخرج من هؤلاء العرب قافلة تضم أكثر من أربعة آلاف جمل متجهة إلى القاهرة ؛ ليبتاعوا منها القمح والشعيَر والملابس، والناس هنا يطلقون على هذه القافلة اسم الخليط . وفى مواسم الجفاف يقترب الحويطات من غزة أو من قبائل حبرون (الخليل).

أهم القبائل من بين قبائل الحويطات التى يقدر عددها بحوالى عشر قبائل أو اثنتى عشرة قبيلة هى: العمران والجاسى والمسك والرساى .

الشرارات : ينزلون فى السهل الرملى الذى يقع إلى الجنوب من أكاب الشامى ، وإلى الشرق من طريق الحج. أعداد هؤلاء الشرارات كبيرة جدا ، وكلهم وهابيون. ولديهم قلة قليلة من الخيل ، لكن لديهم أعداداً كبيرة جدا من الإبل ، والسواد الأعظم من الشرارات مسلحون ببنادق فتيلية ، وهم على وئام مع جيرانهم . وتسافر كل عام جماعات من الشرارات إلى الحوران فى اتجاه غزة ليبيعوا الإبل ويشتروا القمح . وهم يدفعون إتاوة لقبائل العنيز كلها ، كما يدفعون إتاوة أيضًا لعرب القبلى وعرب الشمال. أما بنو صخر فيُحصِّلون من مالك كل خيمة من الخيام مبلغ ثلاثة قروش نظير مروره فى أراضيهم ، أما الطيار فيتقاضون دولارا كاملاً. ومن بين قبائل الشرارات المتعددة تبرز القبائل التالية: الخيال ، واللِّحاوى ، وبنو حَوينى .

المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الشرارات ، شرقى طريق الحج ، والممتدة إلى مشارف مكة (المكرمة) ، يسكنها العنيز.

فى منتصف الصحراء الشرقية ، وعلى بعد مسافة تقدر بمسير خمسة وعشرين يومًا من دمشق فى اتجاه الدرعية ، المقر الرئيسى للوهابيين ، توجد سلسلة من الجبال تمتد من الغرب إلى الشرق، ويطلق عليها اسم جبل الشمَّر ، الذى تسكنه قبيلة بنى شمَّر القوية. بنو الشمر هؤلاء أعداء لدودون للعنيز. بعض الشمر يعيشون فى العراق العربى، ويطلق عليهم هناك اسم الجربة، حيث يشكلون مع الظافر أقوى قبيلتين فى المنطقة المجاورة لبغداد ، وتقومان فى كثير من الأحيان بغزو الحوران. والقبائل الشهيرة من بين الشمر هى التِّميات ، والمِنيات ، وابن غازى ، وباير ، والفسيانى .

هنا فى هذه المنطقة يمكن تسمية القبائل العربية الرئيسية التى تسكن ضفاف نهر الفرات بدءًا من البيرى إلى أناة ، والبلاد الواقعة على الضفة اليمنى للنهر فيما بين هذين المكانين يطلق عليها اسم الزور . وأذكر فيما يلى عرب الزور وهم : العقيدات ، وأبو شيبان ، وبنو سايد ، والوُلد (وهى أكبر القبائل ، وتنقسم إلى عرب الفهِّيل ، وعرب الدِّندل) ، والسَّبخة ، والبكارة ، والجِبور ، والدِّليب . كثير من هؤلاء العرب يَفْلحون الأرض، لكنهم يسكنون فى خيام، وهم يدفعون إتاوة للقبائل العنيزية الرئيسية، ويزودون حلب بالحليب والزبد والجبن.

مخططات

تقتصر المخططات التى سنوردها هنا على العنيز وحدهم. والعنيز هم الجماعة السورية البدوية الحقيقية ، فى حين تدهورت سلوكيات القبائل العربية الأخرى فى المناطق المجاورة لمنطقة العنيز . هناك قبائل عربية أخرى جرى إخضاعها وإنزال الهزيمة بها ، لكن العنيز الأحرار لا يزالون تحكمهم القوانين نفسها التى انتشرت فى الصحراء كلها منذ بداية عهد محمد ﷺ .

أسلوب التخييم

العنيز بدو رُحَّل بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ؛ ذلك أنهم يظلون فى حركة دائمة طوال العام كله. منازل العنيز الصيفية تكون بالقرب من الحدود السورية ، وهم يعودون فى فصل الشتاء إلى قلب الصحراء ، أو يتجهون صوب نهر الفرات. يخيم العنيز فى الصيف بالقرب من النهيرات والعيون التى تكثر بالقرب من الصحراء السورية ، لكنهم يندر أن يبقوا فى المكان الواحد مدة تزيد على ثلاثة أيام أو أربعة. وبعد أن تأتى ماشية العنزيين على العشب القريب من مكان السقيا تبدأ القبيلة فى التنقل بحثًا عن المرعى ، ويصبح العشب الذى ينمو من جديد ملاذًا جديدًا من ملاذات التخييم فيما بعد. والمخيمات تتباين من حيث عدد الخيام ؛ فقد يتراوح عدد الخيام بين ثمانية آلاف خيمة وعشرة آلاف، والخيام إذا ما قل عددها فإنهم ينصبونها على شكل دائرة ، ثم يطلقون عليها بعد ذلك اسم الدوار . أما إذا كثر عدد الخيام فإنهم ينصبونها على شكل خط مستقيم ، أو على شكل صف من الخيام المستقلة ، وبخاصة عندما يكون ذلك على ضفة نهير من النهيرات ، وفى بعض الأحيان قد يكون خلف الخيمة الواحدة ثلاث خيام أو أربع أو أكثر من ذلك. والمخيمات التى من هذا القبيل يطلق العرب عليها اسم نزل. وفى فصل الشتاء، الذى يتوفر فيه الماء والمرعى بصورة مستمرة، تختلف طريقة التخييم. فى مثل هذا الحال تنتشر القبيلة نفسها عبر السهل على شكل جماعات، كل واحدة منها

مكونة من ثلاث خيام أو أربع ، وبين كل جماعة والتى تليها مسافة تقدر بمسير نصف ساعة، ويسمون التخييم بهذه الطريقة الفريق . فى الدوار أو فى النُّزل تكون خيمة الشيخ فى الجانب الغربى، والسبب فى ذلك أن العرب السوريين يتوقعون مجىء عدوهم وضيوفهم أيضًا من ناحية الغرب. ومسألة مواجهة العدو وإكرام الضيوف أمور تخص الشيخ وحده، ولما كان العدو ينزل عن راحلته عند الخيمة الأولى التى يصادفها فى المخيم ؛ فذلك يحتم أن تكون خيمة الشيخ فى الجانب الذى ينتظر أن يجىء منه السواد الأعظم من الغرباء، ومن العار أن ينصب الغنى على الجانب الشرقى(*) .

يزرع أولياء أمور الأسر حرابهم فى الأرض، كلٌّ إلى جانب خيمته ، ويربط فرسه أو حصانه (إنْ كان لديه فرس أو حصان) أمام الخيمة. وأمام الخيمة أيضًا يبرك الجمل أثناء الليل لنيل قسط من الراحة، وتبقى الأغنام والماعز ليلاً ونهارًا تحت حراسة راعى الغنم ، الذى يعيدهم إلى المَراح فى المنزل عندما يأتى المساء.

عندما كنت عائدًا من تدمر إلى دمشق التقيت فى اليوم نفسه بمخيمين كبيرين، يتحركان ببطء عبر السهل الهرملى بحثًا عن الماء والمرعى. كان نظام سير هذين المخيمين على النحو التالى: كانت هناك مجموعة مكونة من خمسة خيالة أو ستة، يتقدمون القبيلة بنحو أربعة أميال على شكل مفرزة استطلاع (أو ما يطلق عليه السَّلَف). أما القوة الرئيسية فكانت على شكل خط مستقيم طوله لا يقل عن ثلاثة أميال

(*) الجماعات الكبيرة بين العرب يطلق عليها اسم قبائل ، كما هو الحال فى قبائل وِلْد على. وأفرع القبائل يطلق على الواحد منها فند ، كما هو الحال في فند المساليخ. والقبائل الأصغر من ذلك المكونة من قبائل أخرى متباينة يطلق عليها اسم عشيرة ، كما هو فى عشير النايم. والعنيز يشعرون بالإهانه إذا ما أطلق على قبيلتهم اسم العشيرة ، وكلمة طايفة تعبر عن تلك العائلات من القبائل التى يستطيع أفرادها رد أصلهم إلى سلف واحد، وهم فى بعض الأحيان يشكلون عددًا كبيرًا من الخيام ، وفى بعض الأحيان الأخرى قد يكونون خيمتين أو ثلاث خيام. والقبائل العربية كلها يقال لها "بنو" ، لكن هذا المصطلح يضيع فى معظم الأحيان فى ظل التسميات الحديثة. هذا يعنى أن كل قبيلة من القبائل تستقى أصلها من جد واحد كبير، ومن هنا نجد أن المساليخ والحسِّين ووِلد على كلهم من العنيز ، يعدون من بنى واهب ، على الرغم من أنهم لا يطلق عليهم ذلك اللقب. (المترجم)

فى المقدمـة. فى البداية كـان هناك بعض الخيـالة المسلحين وبعض الحمَّالة المسلحين بفاصل يتراوح بين مائة خطوة ومائة وخمسين بين الواحد والآخر، ويمتدون على طول المواجهة بكاملها. وتجىء النياق بعد ذلك ومعها صغارها، وهى ترعى على شكل صفوف عريضة أثناء مسيرها على العشب والكلأ البرى. وخلف النياق تمشى الجمال محملة بالخيام والمؤن، وفى النهاية تجىء النساء والأطفال ، راكبات على جمال عليها عدد (سُرُج) مصنوعة على مهد (هوادج)، ومركب عليها ستائر لتحميهن الشمس. أما الرجال – وبلا أى تمييز – فيتحركون أمام الطابور، وبعض الرجال يقتادون الخيول بواسطة اللُّجم. من حيث العمق نجد أن القوة الرئيسية المتجولة تمتد إلى مسافة ميلين ونصف الميل. لقد شاهدتُهم وهم مخيمون وأنا فى طريقى إلى تدمر، وقدرت واحداً من تلك المخيمات بحوالى مائتى خيمة، أما المخيم الثانى فقد قدرت خيامه بحوالى مائتين وخمسين خيمة. وكان فى المخيم الثانى ما يزيد على ثلاثة آلاف جمل. ولم أرَ عربيًا واحداً يسير على قدميه ، اللهم إلا بعض الرعاة الذين كانوا يسوقون الأغنام والماعز ، على بعد مسافة تقدر بحوالى ميل واحد خلف القوة الرئيسية.

أثناء تحرك القبيلة يطلق العرب على مجموعة الإبل المحملة، والتى تنتمى إلى خيمة واحدة اسم " مضهور " ، أو : " ظعن " وهذان الاسمان فى صيغة الجمع يعنيان المسيرة كلها ، وصيغة الجمع هى "مضاهر" و"ظعون" .

التعبير الذى يستعمله العرب عن نصب الخيام هو " بنوا البيوت "، أما تعبير " هدُّوا البيوت " ، أو " طرحوا البيوت " فيستعمل فى تقويض الخيام. وتعبير " هدُّوا ومدُّوا " يستخدم عن تقويض الخيام ومغادرة المكان. والمخيم الطائر المكون من عرب مسلحين يقومون بحملة من الحملات يسمونه " غزو" ، والمصطلح "نوَّخ الغزو" معناه : " أن الغزو قد خيَّم " ، والمصطلح "توضَّ الغزو" بمعنى "انفضَّ الغزو" . لكن هذه المصطلحات غير معروفة للسكان السوريين الذين لا تربطهم علاقة أو صلة بالبدو.

الخيمة وأجزاؤها المختلفة

العرب يطلقون على الخيمة اسم "بيت" ، ولا يسمونها مطلقا باسمها . ومعروف أن "الخيمة" مصطلح سورى شائع. وهم يطلقون على غطاء الخيمة مصطلح "ظهر البيت ". وظهر البيت هذا يصنع من قماش ينسجونه من شعر الماعز أسود اللون ، ويصل عرض ظهر البيت إلى ثلاثة أرباع الياردة، أما طوله فيصل إلى طول الخيمة. وفى ضوء عمق الخيمة تجرى خياطة عشر أو أكثر من تلك القطع "الأشوق" أو "الأشواك"(*) إلى بعضها البعض. ظهر البيت هذا المصنوع من شعر الماعز كفيل بمنع تسرب المطر الغزير من خلاله إلى الخيمة ، وأنا أقول هذا الكلام بناء على خبرتى الشخصية. والناس هنا يقولون لعمود الخيمة "عمو" فقط؛ سواء أكان جمعًا أو مفرداً . والمعتاد أن يكون فى الخيمة الواحدة تسعة أعمدة، ثلاثة منها فى الوسط ، وعدد مساوٍ آخر فى كل جانب من جوانب الخيمة. والعمود الأول من الأعمدة الثلاثة الوسطى – وهو العمود الأقرب إلى من يدخلون الخيمة – يسميه الناس هنا " المقدوم" ، والعمود الذى فى الوسط يسمونه "الوسيط" ، أما العمود الأخير فيطلقون عليه اسم "الدَّافاى" . والأعمدة الجانبية الثلاثة فى الجزء المخصص للرجال يكون على يسار الداخل إلى الخيمة ، ويقال للعمود الأول منها "اليد"، وهذا يطلق أيضًا على العمود الأخير من هذه الأعمدة الثلاثة. أما العمود الأوسط من هذه الأعمدة الثلاثة فيطلق عليه اسم "القصير" . وتجرى خياطة قطع من البشوت القديمة أو العباءات الصوفية القديمة فى أركان الخيمة الثمانية ؛ حتى يمكن تثبيت الأعمدة بعد إدخالها فى الثقوب المخصصة لها فى ظهر البيت. هذه القطعة يطلق عليها اسم "كم البيت"، ويجرى لف الجزء المنخفض من هذه القطع حول عصا قصيرة مربوطة من كل طرف من طرفيها بشريط من الجلد ، يطلقون عليه اسم "الخروب"، وكل عمود له "خروب" خاص به ، فيما عدا العمود الأوسط (أو الوسيط). ويجرى تثبيت أو ربط الحبال فى هذه السيور أو الخيوط الجلدية ؛ وبذلك يمكن تأمين ظهر البيت وتثبيته.

(*) الأشواق أو الأشواك جمع الشوق أو الشوك، وهو القماش المذكور. (المترجم)

يرى العرب أن من الضرورى خياطة قطعة ضيقة فى الداخل من الخام المصنوعة منه الخيمة ، وأن تغطى هذه القطعة ظهر البيت من الداخل فى المنطقة الممتدة بطول الأعمدة الوسطى ؛ وبذلك يمكن تحاشى تمزق قطع الخام المنسوجة من شعر الماعز ، عندما يجرى تركيب الأعمدة الوسطى فى ظهر البيت من الداخل . وهذه القطعة التى تجرى خياطتها من الداخل يسميها العرب "المترك" أو "السفيف" . هذا "المترك" أو "السِّفيف" تجرى خياطة أطرافه بخيروب "المقدوم" ، و"الدافاى" . والجزء الخلفى من الخيمة يجرى إغلاقه بواسطة الرواق ، وهو عبارة عن قطعة من القماش المنسوج من شعر الماعز ، يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أقدام وأربعة ، وتجرى خياطة هذه القطعة مع جزء من عباءة قديمة (يطلق عليه اسم السَّفالة) ، ويتدلى ناحية الأرض. والرواق هو والسَّفالة يمنعان الريح عن الخيمة ، ويجرى تثبيت الرواق إلى ظهر البيت عن طريق الأعمدة الخلفية الثلاثة ، وفى فصل الشتاء يجرى سحب الرواق حول الأعمدة الجانبية. وبطول ظهر البيت يجرى فرد خيط (يسمونه "المرْيس") فيه خطاطيف حديدية كثيرة (يسمونها خِلَّة)، ويمكن ربط هذه الخطاطيف أو أى واحد منها فى الرواق، أو فكه حسب الطلب ؛ للسماح بدخول الهواء، أو غلقها لمنع دخول الهواء من مؤخرة الخيمة. والحبال التى يجرى تثبيتها فى الخروب الثمانية تسمى "طنُب البيت" أو "أطناب(*) البيت". أما العصى القصيرة التى تثبت فيها أطراف هذه الحبال فيجرى دقها فى الأرض على بعد ثلاثة خطوات أو أربعة من الخيمة، والناس يطلقون على هذه العصى اسم "أوتاد". والعمود الأوسط يكون متشبعًا من الأعلى ؛ الأمر الذى يجعله يتسع لعصى قصيرة مستديرة (يسمونها "الكبس") ، تجرى خياطة الأشواك فيها وفى السفيف أيضًا.

تنقسم الخيمة إلى قسمين : قسم الرجال (ويسمونه مقعد الربيع) ، وقسم النساء (ويسمونه المحارم) . وقسم الرجال يكون على يسار الداخل إلى الخيمة ، أما قسم

(*) الأطناب جمع الطنب، وهو الحبل الذى يشد به الخباء. (المترجم)

النساء فيكون على يمين الداخل إلى الخيمة ، هذان القسمان يفصلهما عن بعضهما البعض حاجز من البساط المصنوع فى دمشق، وهم يسمون ذلك الحاجز "القاطع" أو "السَّاحة". وهذا الحاجز يمتد بطول الخيمة ، ويجرى تثبيته فى الأعمدة الوسطى الثلاثة. وإذا كان النسيج الصوفى مزينًا بأنواع من الورود المنسوجة أطلق العرب عليه اسم "المرقوم" . فى قسم الرجال تجرى تغطية الأرض بالسجاد الفارسى أو البغدادى، ويجرى تخزين أو تكويم جوالات القمح وخُرجُ الإبل حول العمود الأوسط. وهذا الهرم الذى يكاد يصل إلى سقف الخيمة يطلق العرب عليه اسم "الرجود" . ويجرى وضع عُدَد تحميل الإبل التى يتكئ عليها الضيـوف بالقـرب مـن الرجود ، أو بعيدًا عنه فى مؤخرة الخيمة ، بالقرب من الرواق. ومن إساءة الأدب أن يضع الإنسان هذه الُعدَد بالقرب من القصير، أو بالأحرى العمود الجانبى.

يعد قسم النساء مستودعًا لزبالة الخيمـة كلها ولأوانى الطبخ والزبد ، وقراب الماء ... إلخ، وهذه الأشياء كلها يجرى وضعها بالقرب من العمود الذى يطلق عليه اسم "الحضيرة" ، وهو المكان الذى يجلس العبد فيه وينام الكلب فيه أيضًا أثناء النهار. تبرز الزاوية الأخيرة من ظهر الخيمة بروزا قليلاً عن خروب الحضيرة فى ذلك الجانب من الخيمة ، ويتعلق متدليًا إلى الأسفل سابحًا فى الهواء . والعرب يطلقون على هذا الركن اسم "الرُّفَّة" . وأصحاب السمعة الطيبة لا يجلسون فوق أرض الرُّفة ، ونظرًا للإساءة التى ينطوى عليها ذلك الاسم فقد اشتق العرب منه تعبيرهم الشهير " مقعدك الرُّفَّة " بمعنى أنك رجل غير محترم . وعلى العمود الأمامى فى قسم الرجال هناك أيضًا طرف معلق من أطراف ظهر الخيمة ، أو بالأحرى الرُّفَّة التى يستخدمها الناس شرشفا لمسح الأيدى قبل تناول الطعام وبعده .

وفى حال تقويض الخيمة (وهم يطلقون عليه "رمى البيت") ، يجرى فك "الرِّواق"(*) أولاً ، ثم "الحاجز (القاطع) " بعد ذلك ثم " اليد " ثم " المقدوم " ثم " القدم " الذى

(*) الرِّواق بيت كالفسطاط يُحْمل على عمود واحد طويل، ورواق الخيمة هو مُقدَّمُها. (المترجم)

تسقط الخيمة بعده إلى الوراء خلف "الرجود" وفى بعض الأحيان يجرى فك "الرجود" أولاً . ويجرى بعد ذلك تكويم أعمدة الخيمة ، ثم ربطها من الطرفين بحبلين يجرى الاحتفاظ بهما لهذا الغرض ، وهذان الحبلان يطلق عليهما اسم "الشيعان" ، ثم يجرى تحميل الأعمدة على جانب الجمل .

الخيام التى لدى أهل الشمال على هذه الشاكلة أيضًا ، لكن خيام الشيوخ يكون لها دوما ثلاثة أعمدة فى المنتصف بدلاً من عمود واحد .

إن معظم خيام العنيز ، على العكس من ذلك ؛ حيث يكون لها عمودان فى المنتصف. أما خيمة شيخ القبيلة فإن الأعمدة الوسيطة الأخرى يجرى وضعها، لا خلف بعضها البعض، وإنما على طول الخيمة كلها ؛ وهذا يتطلب وجود عدد آخر من الدَّافاى والمقدومات ، فى حين يكون عدد أعمدة الجنب واحداً فى جميع الأحوال .

فى فصل الصيف يجرى الاستغناء فى بعض الأحيان عن الأعمدة الأمامية ، ويجرى إسناد الخيمة على الأعمدة الوسطى هى والأعمدة الخلفية فقط ؛ نظراً لأن الخيمة تكون مفتوحة على مصراعيها من الأمام . يصل طول المقدوم والوسط إلى حوالى سبعة أقدام ، أما الأعمدة الأخرى فيصل طول الواحد منها إلى حوالى خمسة أقدام . والخيمة ، أو بالأحرى عرضها (فى حالة نصب الأعمدة كلها) ، تصل إلى عشرة أقدام فى أغلب الأحيان. وخيام العنيز تصنع دومًا من شعر الماعز أسود اللون ، وقد شاهدت بين عرب الليجا فى الحوران خياما متعددة مكسية بغطاء منسوج من شعر الماعز، المقلم بخطوط بيضاء وأخرى سوداء .

أثرى أثرياء العنيز ليس لديه سوى خيمة واحدة ، اللهم إلا إذا كان لمثل هذا الثرى زوجة لا يود الاستغناء عنها ، لكنها لا تستطيع العيش فى وئام مع زوجته الأخرى . فى مثل هذا الحال ينصب هذا الزوج خيمة أخرى أصغر من خيمته ، وتكون قريبة منها . وقد يحدث ذلك أيضًا إذا أخذ العربى أولاد أو أسرة أخيه المتوفى ليكونوا فى رعايته وكنفه ، وهنا قد يجد العربى أن خيمته لا تتسع لمثل هذا العدد الكبير ؛ ومن ثم يقوم بنصب خيمة أخرى جانبية لأولاد أخيه أو ابنه المتوفى .

أثاث الخيمة ومختلف المواعين

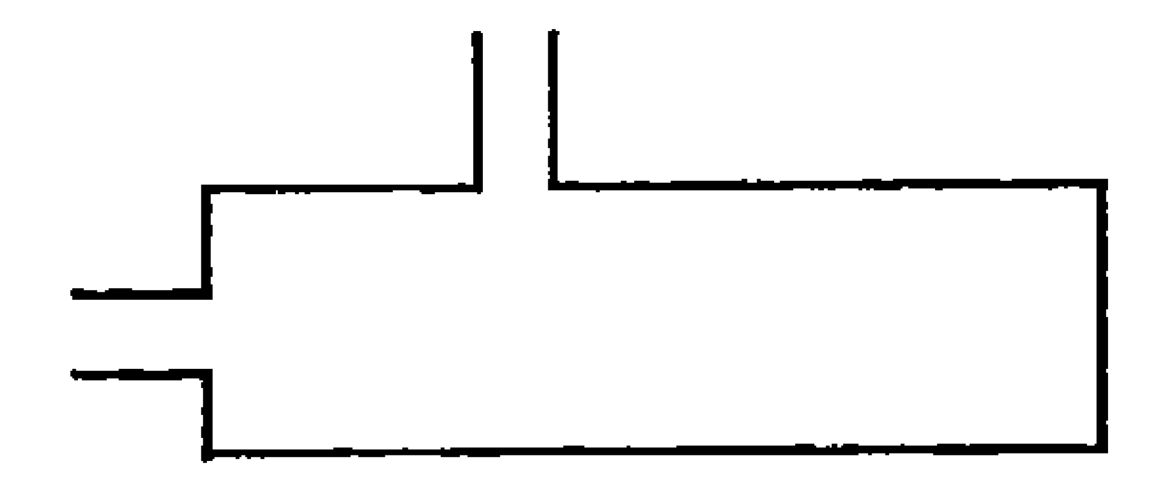
عدة تحميل الجمل يسميها الناس هنا بالنساء "حداج"(*)، وعدة ركوب الرجل للجمل يسمونها هنا "الشداد" ، وعدة تحميل الجمل بالنساء لها وصف آخر . و"الحِيسار" عند العرب يتكون من مجموعة من البسط والسجاجيد والعباءات ترتفع حوالى ثمانِ عشرة بوصة فوق "الحداج" ؛ كى يشكل مقعدًا كافيًا . والحِيسار هذا يستعمله أهل الشمال .

ونساء العنيز يركبن فى "المقصر"، وهو نوع من الهودج الذى يغطونه بـ "الغارف"، و " الغارف " ما هو إلا جلد مدبوغ من جلود الإبل حمراء اللون . وإذا كان الغارف من النوع صغير الحجم فإنهم يسمونه " إيب " . ونساء شيخ القبيلة يركبن ما يسمونه "القتب"، وهو عبارة عن عدة من عدد الجمل تشبه "المكسار" من حيث الشكل ، لكنها كلها مفروشه بجلود الإبل المدبوغة باللون الأحمر ، ومغطاة بجلود أخرى مماثلة كبيرة الحجم تهفهف مع الريح . ويعلق العنيز قصاصات من القماش مختلفة الألوان بالقتب الذى تركب فيه النساء ، والمقود (الحكمة) المستخدم فى اقتياد الجمل يطلق عليه العرب هنا اسم "رسن" ، وهو اسم شائع فى سوريا . والنساء يُزيِّنَّ هذا الرسن بقصاصات من القماش وريش النعام؛ ومن هنا يطلق عليه "راس" . والعصا التى يستخدمها راكب الجمل فى سياقه الجمل تسمى "عاصى" أو "ماترك" إذا كانت عصا مستقيمه ؛ أما إذا كانت تنتهى بمطرقة فهم يسمونها "عاجان" أو "مشعاب" . أما الأجراس الصغيرة الحديدية التى يجرى تعليقها فى أعناق النياق التى تدر حليبًا فيطلقون عليها اسم "الطبل". والجوال الصغير الذى يجرى فيه وضع الشعر أو الصوف الذى يمكن أن يتساقط من الإبل والأغنام أثناء سيرها فى الطريق ، فيطلق العرب عليها اسم "لبيد".

والعرب يحفظون الماء اللازم لخيولهم فى قراب كبيرة مصنوعة من جلود الإبل بعد دبغها ، هذه الجلود تجرى إخاطتها من الجوانب الأربعة ؛ بحيث يمكن ترك فتحتين ، الفتحة الرئيسية من أعلى، والفتحة الأخرى تكون بالقرب من إحدى الزوايا المنخفضة ،

(*) الحداج ، ويصح فيه أيضًا "حدج" ، مركب من مراكب النساء كالهودج والمحفة . (المترجم)

بحيث يمكن فتحها أثناء المسير لإطفاء ظمأ الخيول ، والقربة معلقة على جانب الجمل . ويمكن أن يكون شكل قربة الماء على النحو التالى :



قربتان من هذه القراب التى يسمون الواحدة منها " راوية " تشكلان حملا كبيرا للجمل الواحد .

جلود الماعز التى يتخذ منها العرب قرابًا يحفظون فيها الحليب، يطلقون عليها اسم "زيقا"، أما جلد الماعز الصغير الذى يستخدم فى تقديم حليب النياق لعابرى السبيل فيطلقون عليه اسم " شربة " ، وهذا الاسم نفسه يطلقونه على جلد آخر تشرب منه المهر الصغيرة حليب النياق أما الزبد فهم يصنعونه بواسطة جلد آخر يطلقون عليه اسم " ممخاض " ، أو " زيقا " ، ويجرى حفظ الزبد بعد صنعه فى جلد آخر يطلقون عليه اسم " مكراش " . جوالات القمح إذا كانت مصنوعة من الصوف يسمون الواحد منها " عدل " (وجمعه "عدول") ، أما إذا كانت مصنوعة من شعر الماعز فهم يسمونها "عدول حرٍّس" .

الجلد الذى تُسقى منه الإبل يسمونه "حوض". فى بعض الأحيان قد يضع العرب الرمل وحده، أو زوجًا من الحجر تحت ذلك الجلد؛ كى يضفى على الجلد شيئًا من التقعر ، حتى يمكن أن يحتفظ بالماء ؛ وهنا يطلق على مثل هذا الجلد اسم " فُرش " . والوعاء المصنوع من الجلد والذى يستخدم فى جلب الماء من الأبيار العميقة يسمونه "الدلو"، (وهو الاسم الشائع فى سوريا). أما العصوان اللتان تتعامدان على الدلو، واللتان يثبت فيهما الحبل فإنهما تسميان "عرقا الدلو". والحبل المستخدم فى رفع الدلو يصنعه العرب من سيور من جلد الإبل، يجرى جدلها مع بعضها البعض ، والحبل الذى يكون من هذا القبيل يطلقون عليه اسم "المحَّاس" . والوعاء الكبير المصنوع من النحاس

الأحمر يقولون له " قِدر " ، أما الوعاء الصغير فيسمونه " غيلاى " . والهُون الذى تستعمله النساء فى جرش القمح أو طحنه يسمى " الرحاى "(*) ، وهذا الاسم نفسه يطلقونه على الطاحونة اليدوية . والفوطة أو المفرش الذى يجرى فرده تحت الهُون ، لتجميع حبات القمح التى قد تتناثر يسمونه " تيفال " الرحاى . والوعاء الخشبى الذى يجرى فيه حلب النياق يسمونه " قدح " . وكوب الماء المصنوع من الخشب يطلقون عليه اسم " المهابيج " ، أما وعاء القهوة فيسمونه " دلَّة القهوة " . وهم يقولون للأحجار الثلاثة التى يجرى وضع الوعاء عليها فوق النار " خفايض " ، أو " هوادى " . والمخلاة المستخدمة فى تغذية الحصان يسمونها "عليق"، وفى سوريا يسمونها " حديد الفرس ". والخيول التى يجرى ربطها بهذه الطريقة تظل ترعى طول اليوم فى المخيم .

و"مربط الفرس" عبارة عن سلسلة طويلة فيها حلقة حديدية فى أحد طرفيها ، ويجرى تمرير رجل الفرس داخل هذه الحلقة أثناء الليل ثم قفل الحلقة بالقفل مرة ثانية، ويقوم صاحب الفرس بتثبيت طرف السلسلة الآخر فى "خازوق" يجرى دقه فى الأرض فى المكان من الخيمة الذى يود أن ينام فيه؛ وبذلك يصعب سرقة مثل هذه الفرس، ومع ذلك ينجح اللصوص فى بعض الأحيان فى قطع السلسلة وحمل الغنيمة والفرار بها .

اللباس البدوى

يلبس الرجال فى فصل الصيف قميصًا خشنًا مصنوعًا من القطن ، ومن فوق هذا القميص يلبس الأثرياء من الناس " كمباسًا "(**)، أو بالأحرى هو رداء طويل ، من قبيل ذلك الرداء الذى يرتديه الناس فى المناطق التركية ، وهذا الكمبار يصنع إما من قماش الحرير أو القطن . والسواد الأعظم من البدو لا يلبسون الكمباس، وإنما يلبسون فوق القميص عباءة (بشتا) مصنوعة من الصوف .

(*) "الهون" خلاف "الرحاى"، قد تكون وظيفتهما أحيانًا واحدة، لكن "الهون" يصنع غالبًا من النحاس، أما الرحاى فهى تصنع من الحجر على شكل اسطوانتين دائريتين، واحدة مثبتة فى الأسفل والأخرى تدور باليد. (المراجع)

(**) فى الأصل Kombar "كمبار" وهو خطأ مطبعى، والصحيح Kombas "كومباس" وهو رداء سورى. (المترجم)

هناك أنواع مختلفة من العباءات (البشوت)، منها الخفيف والرقيق جداً ، ومنها المصنوع من الصوف الأبيض ، وهذا النوع من العباءات (البشوت) أخشن وأثقل من النوع السابق ، ومُقَلَّم بخطوط بيضاء اللون وبنية اللون أيضًا (يرتديه البدو فوق الميسومى)، ويسمونه العباءة . والعباءات البغدادية عالية القيمة ، أما العباءات التى تصنع فى حماة ولكل منها كمَّان قصيران واسعان ، فيطلقون عليها اسم "البوش". وفى الأجزاء الشمالية من سوريا نجد أن العباءات الصوفية كلها ، سواء كانت بيضاء أو سوداء أو مقلَّمة بخطوط بيضاء وخطوط بنية أو مقلَّمة بخطوط بيضاء وزرقاء ، يطلق الناس عليها اسم "المشلخ"، وأنا لم أر أية عباءة سوداء اللون بين العنيز، لكنى رأيت هذا النوع من العباءات مرارا بين شيوخ أهل الشمال ، ومطرزة بالذهب ، وتصل قيمتها إلى عشرة جنيهات إنجليزية. والعنزيون لا يرتدون سروالا تحتانيا، وهم يمشون حفاة ويركبون الدواب وهم حفاة الأقدام أيضًا . والبدو كلهم يلبسون على رءوسهم بدلا من غطاء الرأس التركى عمامة أو منديلا مربعا مصنوعا من القطن ، أو خليطا من القطن والحرير. والبدو يطلقون على العمامة اسم "كوفية" ، وهم يلفون هذه الكوفية حول الرأس ، بحيث يتدلى طرف منها ناحية الخلف ، وطرفان آخران على الجزء الأمامى من الكتفين . والبدو يستخدمون هذين الطرفين فى تغطية وجوههم لحمايتها من أشعة الشمس أو الريح الساخنة أو المطر، أو لإخفاء ملامحهم إن أرادوا تجهيل أنفسهم. والكوفية تكون صفراء اللون ، أو خليطا من الأصفر والأزرق. ويربط العنيز فوق الكوفية حول رءوسهم حبلا بدلا من العمامة، ويصنعون هذا الحبل من وبر الإبل ويسمونه "العقال" . والبعض منهم يلفون منديلا حول الرأس ، ويطلقون عليه اسم "الشُّطفى" . بعض الشيوخ الأثرياء يلبسون على رءوسهم شيلانًا ، مصنوعة فى دمشق أو بغداد ، وفيها خطوط حمراء وخطوط بيضاء. وقد يستعملون أغطية رأس حمراء فى بعض الأحيان يطلقون عليها اسم "التاكى" (وهو ما يسميه السوريون "طربوش")، ومن تحت التاكى يلبسون غطاء رأس أصغر من التاكى، ويكون مصنوعا من وبر الإبل يطلقون ، عليه اسم "مَعرَقة"، وفى سوريا يطلقون على غطاء الرأس هذا اسم "عَرقية" ، وغالبًا ما تكون مصنوعة من قماش قطنى فاخر.

العنزيون يتميزون للوهلة الأولى عن البدو السوريين بخصل شعورهم الطويلة ، وهم لا يحلقون - شعرهم الأسود مطلقًا، لكنهم يعتنون بهذا الشعر ويقدرونه منذ الطفولة ، إلى أن يتمكنوا من لفه على شكل جدائل تتدلى على الخدين لتصل إلى الصدر. وهم يطلقون على هذه الخصل من الشعر اسم " القرون ". قلة قليلة من العنيز هم الذين يرتدون أحزمة من الجلد، والبعض الآخر يلفون على وسطهم حبلاً، أو قطعة من القماش فوق القميص ، والرجال والنساء يرتدون منذ طفولتهم حزامًا حول وسطهم العارى . وهذا الحزام مكون من أربعة شرائط أو خمسة مجدولة مع بعضها البعض على شكل حبل يصل سمكه إلى سمك إصبع من أصابع الإنسان . وقد بلغنى أن النساء يلففن هذه الشرائط منفصلة عن بعضها البعض حول خصورهن . والرجال والنساء على حد سواء يزينون أحزمتهم بالشرائط أو التمائم . وهم يطلقون على هذا النوع من الأحزمة: "الهكو"، أما أهل الشمال فيطلقون على هذا الحزام اسم: "بيريم" .

وفى فصل الصيف يتحرك الأطفال حتى سن السابعة أو الثامنة شبه عارين تمامًا، لكنى لم أر مطلقًا طفلة واحدة على هذا الحال ، على الرغم من القول بأن البنات فى المناطق الداخلية من الصحراء لم يكن يُثْقَلن بالملابس شأنهن فى ذلك شأن إخوانهن الصغار .

يلبس البدو فى الشتاء فوق القميص بلِّيسًا يصنعونه من جلود الأغنام التى يخيطونها ببعضها البعض ، وكثيرٌ من البدو يلبسون تلك البلِّيسات حتى فى فصل الصيف ؛ وذلك من منطلق خبرتهم التى مفادها أن ملابس الإنسان كلما كانت باعثة على الدفء تقلل من معاناته من حرارة الشمس . والبدو يتحملون قسوة الفصل المطير بطريقة عجيبة ، وإذا كانت الأشياء المحيطة كلها من حول البدو تعانى من البرودة فهم ينامون حفاة الأقدام فى خيمة مفتوحة ، لايبقون فيها على النار مشتعلة بعد منتصف الليل . ومع ذلك نجد البدوى ينام فى منتصف فصل الصيف ملفوفًا فى عباءته فوق الرمل الحارق معرضًا نفسه لأشعة الشمس شديدة السخونة .

ملابس السيدات عبارة عن ثوب من القطن غامق اللون، أزرق أو بنى أو أسود . ويلبسن على رءوسهن منديلاً يسمينه " الشوبر "، أو " المقرون ". والبنات الصغيرات

يلبسن على رؤوسهن " شوبرا " أو " مقرونا " أحمر اللون . أما النساء كبيرات السن فيلبسن " شوبرات " سوداء اللون . ونساء الروالة جميعهن يلبسن مناديل من الحرير أسود اللون، مساحة الواحد منها ياردتان مربعتان، ويَطْلقن عليه اسم " الشال كاس ". هذا " الشال كاس " يصنع في دمشق . ونساء العنزة يلبسن حلقات من الفضة فى آذانهن وفى أنوفهن ، أما الحلقان التى تلبسها النساء فى آذانهن فيطلقون عليها اسم "التركى" (والجمع: تراكى) ، أما الحلقة التى تعلقها المرأة فى أنفها فيَطْلقون عليها اسم "الشدرة" ، أما الحلقة الأكبر من ذلك – والتى يصل قطر الواحدة منها إلى حوالى ثلاث بوصات ونصف بوصة – فيَطْلقون عليها اسم "الخزام" . والنساء كلهن يثقبن شفاههن ويلونهن باللون الأزرق ، وهم يَطْلقون على ذلك النوع من الوشم اسم " البرتوم" ، وهن يستعملن ذلك البرتوم فى إحداث بقع على وجناتهن وجباههن . والنساء السرحانيات يثقبن خدودهن وصدورهن وأذرعهن ، أما نساء العمور فيثقبن كواحلهن .

والبدويات يغطين وجوههن إلى منتصفها بقناع غامق اللون يطلقن عليه اسم "النِّكى"، ويربطنه على نحو يستر الذقن والفم . والمصريات يلبسن قناعًا يسمينه "البرقع" ،؛ وهذا البرقع يستعمله عرب اللبكى . والعنزيات يلبسن حول معاصمهن أساور زجاجية مختلفة الأوان ؛ والثريات يلبسن أيضًا أساور من فضة ، وبعضهن يلبسن سلاسل من الفضة حول أعناقهن . والنساء والرجال على حد سواء ، يكونون حفاة الأقدام فى فصل الصيف .

العنيز يسهل تمييزهم عن أهل الشمال بحجمهم الصغير ، وقلة قليلة منهم هم الذين يزيد طول الواحد منهم على خمسة أقدام وبوصتين أو ثلاث بوصات . وملامح العنيز طيبة ، وأنوفهم تكون معقوفة مثل أنف النسر فى معظم الأحيان ، وبنيتهم جيدة للغاية ، ولكنهم ليسوا هزيلين أو ضعفاء جسمًا حسبما وصفهم بعض الرحّالة . وعيونهم السوداء تلمع من تحت حواجبهم ، متقدة بنار غير معروفة فى مناخاتنا الشمالية . ولحى العنيز قصيرة ونحيفة ، ولكنها كثيفة الشعر .

ونساء العنزة أطول من الرجال قليلاً ، وملامحهن أنيقة جميلة بشكل عام ، وأجسامهن رشيقة جدا . ومن حيث البشرة فهى سمراء مُصفرّة ، والأطفال عند

مولدهم يكونون شُقر البشرة ، ولكن ذلك البياض يعتريه شيء من الشحوب . وأنا بصفتي طبيب أتيحت لي الفرصة في إحدى المرات أن أرى ذراعَي زوجة أحد الشيوخ عاريَيْن ، وكان ذلك الذراعان شقراوين مثل الجمال الأوروبي .

أسلحة البدو

حراب العرب هي أكثر الأسلحة شيوعًا بينهم . ولدى العنيز نوعان من الحراب : نوع منهما اسمه "رمح السَّان" ، وهو يُصنع من الخشب، ويجري إحضاره من منطقة غزة في فلسطين ؛ أما النوع الثاني (وهو الأقيم) فيطلقون عليه اسم "رماح القناة" ، ويجلبونه من العراق، وهذا النوع من الرماح يصنع من نوع من الخيزران كثير العُقد.

والحراب الخفيفة هي الأقيم، ويتراوح سعر الحربة بين ستة قروش وخمسين قرشًا .

والرأس المدبب المصنوع من الحديد أو الصلب يسمونه " القنتاد "، وقد شاهدت بعض تلك القناتيد فارسية الصنع ومطلية بالذهب أو الفضة ؛ والطرف الآخر من عمود الحديد – والذي يساعد على غرس الحربة في الأرض يسمى " الحربة " ، لكن السوريين يطلقون هذا الاسم على الجزء العلوي من الحربة ، والحربة تخلو من الزينة في معظم الأحوال ، ولكنها في بعض الأحيان قد يكون لها كرتان أو شاربان من ريش النعام أسود اللون ، يصل طول كل منهما إلى قبضتين ، حيث يوضعا بالقرب من قمة الحربة . وهذان الشاربان يطلق عليهما اسم " الدوب " . والشارب العلوي يكون محاطًا بشيء من ريش النعام الأبيض القصير، وهذا الشارب العلوي يسمونه "الغلاب". وحول الحربة في المنطقة ما بين الكرتين ، شريط من القماش أحمر اللون ملفوفة حوله الحربة. هذا الشريط الأحمر يسميه العرب "التومان". والعرب يرمون الحربة إلى مسافة قصيرة، عندما يطاردون خيالاً لا يستطيعون التغلب عليه، ويكونون متأكدين من إصابته. والعرب عندما يطعنون بالحربة يحدثون فيها شيئًا من التوازن بوضعها فوق رءوسهم فترة قصيرة ، ثم يطعنون بها في الاتجاه الأمامي . وهناك بعض آخر من العرب يمسك

الحربة ويهزها لتكون بارتفاع سرج الحصان . والعربي عندما يطارده العدو يطعن بحربته في اتجاه الخلف لمنع فرس العدو من الاقتراب منه ، وفي بعض الأحيان يقتل من يلاحقه أو فرسه عن طريق الطعن بمؤخرة الحربة. وإذا ما حدثت أية مشكلة - وهذا هو ما يحدث غالبًا - عند سحب الحربة من الجرح ، يلجأ العربي إلى استعمال سيفه الذي يحمله معه دائمًا ، حتى عندما يذهب لشرب القهوة في خيمة أحد الجيران . العرب يقتنون غالبًا السيوف الفارسية ، لكنهم ليسوا مؤهلين للحكم على قيمتها الحقيقية ، وهم غالبًا ما يشترونها من الباعة الجائلين نظير ثمانين قرشًا أو مائة قرش للسيف الواحد ، أما السيوف المصنوعة من الصلب الدمشقي فلا يزيد سعر الواحد منها على عشرين قرشًا .

والعربي يحمل إلى جانب الحربة والسيف سكينًا معقوفةً في حزامه (وقد أتى نيوبر على وصف ذلك السكين) . أما هؤلاء الذين يحاربون وهم يسيرون على أقدامهم فيستعملون حربة قصيرة يسمونها " القطعة " ، ويقذفونها إلى مسافة بعيدة .

عندما يكون الخيَّال بلا حربة فإنه يُسَلِّح نفسه بعكاز أو قضيب شائك(*) مختلف الأشكال؛ فمنه "القنواع" وله يد من الخشب ورأس مستدير من الحديد، ومنه "الدَّبُّوس" الذي يصنع كله من الحديد ، ومنه "القولنج" الذي له يد من الخشب ورأس من الحديد على شكل مطرقة . وجنود المشاة يحمل الواحد منهم ترسًا في بعض الأحيان ، وهم يطلقون على ذلك الترس اسم "الداريك"؛ هذا الداريك مستدير الشكل ، ويصل طول قطره إلى حوالي ثمانِ عشرة بوصة، ويصنعونه من جلود الثيران البرية(**) ، ويغطونه بقطع مستطيلة من الحديد . والعرب يطلقون على المزرودة(***) اسم "الدرع" ،

(*) كانوا يستعملون هذا القضيب الشائك في القرون الوسطى لكسر الدروع . (المترجم) .

(**) البقر البري هو بقر الوحش ، وهو يتغذى على العشب الصحراوي في منطقة الجوف ، التي تبعد عن دمشق رحلة يقدر مسيرها بخمسة عشر يوما . وقد وصفوه لي على أنه يشبه من حيث الشكل الغزالة كبيرة الحجم ، وعنق البقرة الوحشية تشبه عنق البقرة العادية ، وأرجلها أغلظ من أرجل الغزالة ، وقرونها قصيرة .

(***) المزرودة : درع ، من "زرد" . (المترجم)

ولا تزال مستعملة إلى يومنا هذا عند العرب ؛ فولد علي - على سبيل المثال - لديهم خمس وعشرون مزرودة ، والروالة لديهم مائتا مزرودة ، وابن فضل والمساليخ لديهم عدد يتراوح بين ثلاثين مزرودة وأربعين .

و" الدرع " عند العرب نوعان : واحد منها يغطي الجسم كله كما لو كان لباسًا طويلاً ؛ يغطي الجسم من الكوعين إلى الكتفين ثم ينزل إلى الركبتين ، وهو ما يسمونه " السِّرغ " . والنوع الثانى من الدروع يسمونه "القمباز" ، وهو يغطى الجسم إلى منطقة الخصر فقط . أما الذراعان بدءا من الكوعين وفى اتجاه الأسفل فيجرى تغطيتهما بقطعتين من الصلب، ويطلق العرب عليهما اسم "القلجق"، وهما متصلتان ببعضهما ، وفيهما أصابع من حديد . والعربى عندما يرتدى هذا اللباس يكمل تدريع نفسه؛ بأن يضع على رأسه غطاء من حديد يسمونه "طاس"، ويجرى تزيينه فى أحيان قليلة جدا بالريش . ويتراوح ثمن المزرودة بين مائتى قرش وألف وخمسمائة قرش. وابن سعود لديه عدد كبير من تلك المزرودات . والمزرودة فائقة الجودة تقاوم طلقات الرصاص. والخيَّال الذى يرتدى مثل هذا الدرع يطلقون عليه اسم "مِلبس"، وإذا ما كان الخيَّال يرتدى معطفًا فوق الدرع ليخفيه فإنهم يقولون له "دافن". ولقد بلغنى أن العرب لديهم مزرودات تغطى أجزاء من أجسام خيولهم، ولكنى لم أر من تلك المزرودات شيئًا .

العنزة يعرفون جيداً كيف يستخدمون الأسلحة النارية ، لكن الأسلحة الوحيدة التى شاهدتها مع العنزيين كانت كلها بنادق قاتلة، تحتم على من يطلقها أن يستلقى على بطنه ، ويندر أن يخطئ فى إصابة الهدف. وهم لا يستخدمون المسدسات، لكن عرب الشمال يستخدمون المسدسات فى كثير من الأحيان . والرعاة الذين يرعون قطعانا تكون على بعد مسافة كبيرة من المخيم يتسلحون بحراب قصيرة، كما يتسلحون أيضًا بمقاليع يستعملونها فى قذف أحجار يصل حجم الواحد منها إلى حجم قبضة اليد . والعنيز لديهم نوع من الدروع (يسمونه "لبس") يستخدمونه مع خيولهم أثناء الحرب . هذا " اللبس " تجرى صناعته فى حلب ، وهو يتكون من سبع قطع من ورق الكرتون مختلفة الأحجام ومغطاة بالقماش الأحمر ، وتتدلى منها قطعتان على كل جانب من جانبى الحصان ، واثنتان منها على كِفل الحصان ، أو إن شئت فقل: الأجزاء

الخلفية منه ، وقطعة تتدلى على صدر الحصان . القطعتان الجانبيتان تجرى إخاطتهما إحداهما بالأخرى تحت ركاب الفرس ، ويجرى وصلهما بقطعة الصدر والقطع الخلفية بأزرار من الصلب . بعض الرجال الذين يبتغون الأناقة يطرّزون ذلك اللبس . هذا الغطاء الكرتونى المستخدم فى تزيين الخيول يكلف صاحبه ما يتراوح بين مائة وخمسين قرشًا إلى مائتى قرش ، ويمكن أن يصد طعنات الحراب الخفيفة .

طعام العرب

أطباق العرب الرئيسية على النحو التالى :

الفتيتة : عجين غير مخمور من الدقيق والماء ، يخبز على نار مشبوبة فى روث الإبل ، ويجرى خلط هذا المخبوز بعد ذلك بشىء من الزبد ، وعندما يجرى خلط هذه الأشياء ببعضها خلطًا تامًا يقوم العرب بتقديمها فى طبق خشبى أو طبق من الجلد، وإذا ما جرى خلط الفتيتة مع الحليب فإن العرب تطلق على ذلك الخليط اسم "الخافورى".

العيش : عجينة مكونة من الدقيق المخلوط بحليب الإبل ، ثم تسلق بعد ذلك . معروف أن حليب الإبل يصبح حامض المذاق عقب وضعه فى " الزيقة "، التى تصنع من جلد الماعز .

البحثّة : عبارة عن أرز أو دقيق مسلوق فى حليب الإبل .

الحنين : عبارة عن خبز وزبد وتمر ، جرى خلطها كلها مع بعضها .

الخبز : يطلق البدو عليه اسم " الجيسر" . والخبز نوعان، وكلاهما غير مخمر ؛ نوع منهما يخبز على شكل أقراص مستديرة على لوح من الحديد ، يطلقون عليه اسم " صاج " ، كما هو الحال عند الفلاحين السوريين . والطريقة الثانية لصناعة الخبز هى فرد عدد كبير من الأحجار الصغيرة ، يجرى أشعال نار شديدة فوقها ، وبعد تسخين الأحجار بما فيه الكفايه يجرى إبعاد النار ، ثم يجرى بعد ذلك نشر العجين فوق الأحجار الساخنة، ثم يغطى العجين بعد ذلك مباشرة بالجمرات المشتعلة ، ويترك بعد

ذلك إلى أن يتم خبزه تمامًا . هذا النوع من الخبز لا يستعمل إلا فى الإفطار فقط، ويسمونه "خبز علِى الرضَّاف" .

البرغل : قمح يجرى سلقه مع شىء من الخميرة، ثم يجفف بعد ذلك فى الشمس.

هذا القمح الذى يجرى تجفيفه يحفظ لمدة عام ، ثم يسلق بعد ذلك مع شىء من الزبد أو الزيت ، وهو يمثل الطبق الشائع بين الطبقات كلها فى سوريا .

يجـرى عمـل الزبد عـلى النحـو التالى : يجرى وضع حليب المـاعز أو الغنم (ولا يستعمل حليب الإبل مطلقا فى عمل الزبد) فى قدر فوق نار هادئة ، ويضاف إليه قليل من اللبن ، أو إن شئت فقل اللبن الحامض ، أو قطعة صغيرة من أمعاء حمل صغير مجففة (يسمونها " متفخة ") ، وهنا يبدأ الحليب فى الانفصال ، ثم يجرى وضعه فى قربة من جلد الماعز يطلقون عليها اسم " الزيقة " . ويجرى ربط هذه الزيقة فى أحد أعمدة الخيمة ، ويجـرى تحـريكها بصـورة مستمرة بعـد ذلك مدة ساعـة أو ساعتين إلى الأمام وإلى الخلف . وهنا ينفصل الزبد عن الماء ويجرى إخراج الماء ويبقى الزبد الذى يجرى وضعه فى الكيس المصنوع من جلد الماعز ، والذى يسمونه "المكراش" . وبعد تجميع مقدار معين من الزبد خلال يومين تعيد البدويات وضعه على النار مرة ثانية ، ويلقين فيه حفنة من البرغل ، ويتركنه يغلى ، على أن يكشطن الزبد بين الحين والآخر. بعد غلى الزبد بعضا من الوقت يقوم البرغل بترسيب المواد الغريبة كلها ، ويبقى السمن صافيًا فى أعلى القدر . ويجرى تصفية مخيض اللبن بعد ذلك فى خلال كيس يصنع من وبر الإبل . والمادة الشبيهة بالزبد التى تتبقى فى الكيس تترك لتجف فى الشمس ، هذه المادة يأكلها البدو ويطلقون عليها اسم " العُوكيت " أو "حُمَيْد جِبْشِب" . والبرغل الخالى من الزبد الذى جرى غليه معه يسميه البدو " الخلاص " ، ويأكله الأطفال . هناك بعض قبائل العنيز فى نجد يندر أن تأكل اللحم ، ولكنها تعيش على الحليب والتمر فقط . بعد استخلاص الزبد تقوم البدويات بضرب مخيض اللبن مرة ثانية إلى أن يتجلط ، ثم يضربنه إلى أن يجف تمامًا ، ثم يقمن بطحنه بعد ذلك ، وتقوم كل أسرة من الأسر بجمع ما يقرب من حملين أو ثلاثة أحمال من هذا المسحوق ، وهم يأكلونه مخلوطًا بالزبد .

العنيز لا يصنعون الجبن مطلقًا ، وإن فعلوا ذلك فهو نادر جدا ، ولكنهم يحولون حليب أغنامهم وماعزهم إلى زبد . أمَّا عرب الشمال ، على العكس من العنيز ، فهم يقدمون الجبن للسواد الأعظم من سكان السهل السورى الشرقى .

الكمَّاية : أو الكمَّة (أو : " الجيمة " بلغة البدو) ، طبق مفضل عند العرب ، وهو نوع من الكمأ الذى ينمو فى الصحراء ، دون أن تظهر له جذور أو حبوب ، الكمَّاى من حيث الحجم والشكل تشبه الكمأ الحقيقى إلى حد كبير. وهناك ثلاثة أنواع من الكمَّاى: الكمَّاى الأحمر، ويطلقون عليه اسم "الخلاسى"، والكمَّاى الأسود، ويطلقون عليه اسم "الجباة"، والكمَّاى الأبيض، ويطلقون عليه اسم "الزبيدى". وعندما يجود المطر فى فصل الشتاء يعثر الناس على " الجيم " فى نهاية شهر مارس . حبات الجيم توجد على عمق أربع بوصات فى الأرض ، ومكان نموها يعرفه الناس بارتفاع الأرض ارتفاعا قليلا من فوق تلك الحبات .

وحبات الجيم إذا ما تركت إلى أن يكتمل نضجها ، فإنها ترتفع فوق الأرض بحوالى نصف حجمها . والأطفال والخدم يستخرجون هذه الحبات باستعمال عصى صغيرة وقصيرة . وقد تكثر حبات الجيم فى بعض الأحيان ، إلى درجة أن الإبل قد تتعثر فيها . وهنا تتمكن كل أسرة من جمع ما يقرب من أربعة إلى خمسة أحمال من حبات الجيم . ويعتمد العرب فى معيشتهم على هذه الحبات دون تناول البرغل أو العيش. وحبات الكمَّاى تسلق فى الماء أو الحليب إلى أن تصبح عجينة ، ثم يجرى وضع الزبد المنصهر فوقها .

حبات الجيم هذه يجرى شيها وأكلها مع الزبد المنصهر . ويقال إن حبات الكمَّاى تسبب الإمساك ، وفى حال وفرة الكمَّاى يجرى تجفيفه فى الشمس ، ثم يجرى بعد ذلك تجهيزه للاستعمال مثل الكمَّاى الطازج . وسكان دمشق يستهلكون كميات كبيرة من الكمَّاى ، والشىء نفسه يفعله فلاحو شرقى سوريا. والرطل من الكمَّاى يساوى حوالى نصف بنس فى دمشق . والكمَّاى يجرى جلبه إلى دمشق من منطقة تل زيكال على الحدود الشرقية للمرج . ويجرى جلب الكمَّاى إلى حلب من سهل جبل الحاس القريب من حلب . والإبل لا تأكل الكمَّاى . وصحراء الحماد ، أو بالأحرى السهل الكبير الواقع بين دمشق وبغداد والبصرة ملىء بالكمَّاى .

العنيز يأكلون لحم الغزال إذا ما استطاعوا صيده ، وقد بلغنى أنهم يعدون لحم الجربوع ، أو إن شئت فقل فأر الصحارى شيئًا لذيذًا لنكهته الفاخرة . والجزء الداخلى من الصحراء عامر بالجرابيع .

العيش : هو الطبق اليومى والشائع عند العنيز ، وأغنى شيوخ القبائل يجد أنه من العار أن يطلب الشيخ إلى زوجته تقديم أى طبق آخر غير العيش ؛ من أجل إشباع مذاقه الخاص . والعرب لا ينغمسون مطلقًا فى الطعام المترف ، ولكنهم قد يفعلون ذلك بمناسبة بعض الأعياد ، أو عندما يفد عليهم أحد الغرباء . وهم يخبزون للضيف العادى ، ويقدم الخبز مع العيش . وإذا كان الضيف صاحب حيثية فإنه يجرى تقديم القهوة له ، ومعها البَجِتَّة ، أو الفتيتة ، أو الخبز مع الزبد المنصهر . وصاحب المكانة يذبح العرب له طَلْيًا (خروفًا صغيراً) . وإذا ما ذبحوا طليًا فهم يسلقونه مع البرغل وحليب الإبل ، ويقدمونه فى طبق خشبى كبير، بحيث يكون اللحم حول حواف الطبق . ويجرى وضع طبق خشبى يحتوى على شحم الحيوان المنصهر فى وسط البرغل ، ويجرى وضع كل لقمة فى ذلك الدسم قبل أكلها . أما إذا كان المذبوح جملا (وهذا نادرا ما يحدث) فيجرى تقطيعه إلى قطع كبيرة ، ويجرى سلق جزء من ذلك اللحم ، وخلط الدسم الناتج عنه مع البرغل ، ويجرى شوى جزء آخر ، ويتم وضعه أيضًا مثل الجزء المسلوق فوق طبق البرغل ، وهنا تشارك القبيلة كلها فى هذه الوليمة اللذيذة . والعرب يفضلون لحم الإبل فى الشتاء عنه فى الصيف ، وهم يفضلون لحم الناقة على لحم الجمل . وشحم الإبل يحفظه العرب فى جوالات يصنعونها من جلد الماعز ويستخدمونه مثل الزبد .

والعرب ليسوا نظيفين فى مسألة تناول الطعام ؛ وهم يدسون اليد كلها فى الطبق الموضوع أمامهم ، ويشكلون البرغل على شكل كرات يصل حجمها إلى حجم بيضة الفرخة ثم يبتلعونها بعد ذلك . وهم يغسلون أيديهم قبل الطعام ، ويندر أن يغسلوها بعد تناول الطعام ، ويكتفون بمص الدسم من على أصابعهم ، ثم يمسحون أيديهم فى غمد سيوفهم ، أو ينظفونها فى "روف" الخيمة .

والساعة المحددة لتناول الإفطار (كما أسلفنا) هى الساعة العاشرة ، أما الغداء أو العشاء فيجرى تقديمه عند غروب الشمس . وفى حال توفر المرعى يجرى شرب حليب الإبل بعد العشاء . والعرب يأكلون بنهم وشغف كبير ، والطبق المغلى الذى يوضع أمامهم غالبا ما يكون حارا جدا ؛ ولذلك يتطلب شيئا من الحرص خشية أن يحرق الإنسان أصابعه . ولمحاولة مسايرة بقية الآكلين . وفى واقع الأمر ، فإننى فى بداية تعرفى على العرب نادرا ما كنت أقوم شبعان بعد تناول الطعام .

ومن بين العادات السيئة بين عرب الصحراء وعرب الحضر عادة التجشؤ الكريهة بعد كل وجبة من الوجبات .

النساء يأكلن فى المحارم ، ما يتبقى من طعام الرجال ، ويندر أن يحظين بتذوق أى شىء من اللحم سوى الرأس والأرجل وأكباد الخراف . وعندما يكون رجال المخيم فى الخيمة التى يجرى فيها الاحتفال بالغريب ، فإن نساءهم يتسللن إلى محارم المضيف ؛ ليستجدين رِجْلا أو أى شىء آخر من بقايا الحيوان المذبوح لتلك المناسبة .

الفنون والصناعة

العنيز لا يعرفون من الفنون إلا النزر اليسير، ولا يوجد بينهم سوى حدَّادَيْن أو ثلاثة حدادين يقومون بتركيب حِدْوات الخيول ، وبعض الإسكافيين الذين يقومون بإصلاح المصنوعات الجلدية ، هؤلاء هم الفنانون الوحيدون الذين تراهم بين العنيز بقبائلهم المتعددة. العنيز يطلقون على هؤلاء العمال اسم "الصنع"، وهم ليسوا من أصول عنزية؛ والسبب فى ذلك أنهم يعتقدون أن مهن هؤلاء الناس تحط من قدر العنيز الأحرار.

والسواد الأعظم من هؤلاء العمال يأتون من قرى الجوف التى لا يسكنها سوى العمال ، الذين ينتشر البعض منهم فى فصل الربيع بين البدو ، على أن يعودوا إلى عائلاتهم فى فصل الشتاء . العنزى لا يزوج ابنته مطلقا من حداد أو إسكافى ، أو أى أحد ينحدر من نسل هؤلاء العمال العنزيين ، لكن هؤلاء العمال يتزوجون من بعضهم ، أو قد يتزوجون من بنات عبيدالعنيز . وفنون دبغ الجلود والنسيج يمارسها العنيز أنفسهم ، ودباغة الجلود يقوم بها الرجال . أما النساء فيقمن بعملية النسج .

وطريقتهم فى صبغ ودبغ الجلود تسير على النحو التالى : صبغ جلد الجمل باللون الأصفر (لا يجرى تلوين أى نوع آخر من أنواع الجلود) ، حيث يضعون الملح فوق ذلك الجلد لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يغطون الجلد بعد ذلك بعجينة سائلة يصنعونها من جريش الشعير المخلوط بالماء . وتبقى هذه العجينة فوق الجلد مدة سبعة أيام، ثم يغسلون الجلد بعد ذلك بماء حار، وينظفونه من الشعر بسهولة ويسر. ثم يأتون بعد ذلك بقشر الرمان الجاف (تلك الفاكهة التى يبتاعونها من المدن السورية ، أو من عرب المناذرة ، أو من فلاحى نهر الفرات)، ثم يطحنون ذلك القشر ويخلطونه بالماء ، ويتركون الجلد فى ذلك المخلوط بعد ذلك ويزيتونه بشحم الإبل ؛ كى يصبح ملمسه ناعما . وإذا لم يستطيعوا الحصول على الرمان فإنهم يستخدمون بدلا منه جذور عشب صحرواى يطلقون عليه اسم "الأويرك" ، وهذا الجذر يصل طوله إلى حوالى ثلاثة أشبار ، ويصل سمكه إلى سمك أصابع اليد . واللحاء الخارجى لهذا الجلد يعد بديلا لقشر الرمان ، ويصبغ الجلد باللون الأحمر .

والعنيز يصنعون من الجلد الذى يدبغ بهذه الطريقة قراب الماء الكبيرة التى يطلقون عليها اسم "الراوية" . هذه القراب يجرى نقعها مرة ثانية وأحيانا مرة ثالثة ، فى المخاليط سالفة الذكر ، بعد شهر من الدباغة الأولى . وتظل تلك الراوية تضفى على الماء مذاقا لاذعا أو مرا ، والعرب يستسيغون هذا المذاق.

يشكل شعر الماعز عند قبائل البدو كلها المادة التى تصنع منها أغطية الخيام ، وفى عمل جوالات المؤن والتموينات ، وكذلك الجوالات والخُرُج الخاصة بالإبل . وأغطية الخيام يجرى صنعها بصفة أساسية فى الحوران. وفى جبال الهيش والبلقاء التى يكثر فيها الماعز عما لدى العنيز من تلك الحيوانات. هؤلاء العنيز يصنعون من الصوف أيضا جوالات القمح والشعير وخرج الإبل ، وكذلك الأروقة (الأجزاء الخلفية من الخيام) ... وأشياء أخرى كثيرة . ونساء العرب يستعملن نولا غاية فى البساطة ؛ وهم يطلقون على هذا النول البسيط اسم "النوتو" ، وهو يتكون من عصاتين قصيرتين ، يجرى غرسهما فى الأرض على بعد مسافة معلومة ، والذى يحدد هذه المسافة هو عرض الشوك ، أو بالأحرى القطعة التى سيجرى نسجها . وهناك عصا ثالثة يجرى وضعها فوق هاتين العصاتين ، وعلى بعد مسافة تقدر بحوالى أربع ياردات من هذه العصى ،

ويجرى وضع ثلاث عصى أخرى بالطريقة نفسها ، كما يجرى وضع اللحمة فوق العصاتين الأفقيتين المتقاطعتين ، والعنيز يسمون اللحمة "السادوح" . وللمحافظة على مسافة صحيحة بين اللحمتين يجرى وضع عضا مسطحة بينهما ، والعنيز يطلقون على هذه العصا المسطحة اسم "منسبة" .

تستخدم قطعة من الخشب فى القيام بعمل المكوك ، كما يستخدم قرن غزال قصير فى كبس الخيط إلى الخلف. ويجرى وضع النول أمام قسم المحارم من الخيمة ، وتعمل الأم وبناتها على ذلك النول . والغزل يجرى استعماله بصفة عامة بين العنيز ، وهم يطلقون على ذلك المغزل اسم "مغزل الصوف" . وقد شاهدت فى تدمر عددا كبيرا من الرجال الذين يستعملون المغزل . يضاف إلى ذلك أن رعاة عرب الكبلى كلهم يُصَنِّعون الصوف .

النساء العربيات يصنعن من وبر الإبل أكياساً، تستخدم فى حماية ضرع الناقة ، لمنع صغار الإبل من مصِّه: والعرب يطلقون على هذه الأكياس اسم "الشَّمل" . الحبال المستخدمة فى ربط هذه الأكياس – هى والعقال – يسميها العرب " المترك " . وهذه الحبال القصيرة نفسها متينة ، وهى التى يربط بها فخذا الحمل مع مقدم ساقه عندما يكون باركا أو إن شئت فقل الطاقية التى يلبسها الرجل على رأسه .

بعض العرب يخلطون كميتين متساويتين من الصوف والوبر ، ويستخدمون الخام الناتج عن ذلك فى صناعة الجوالات أو الأكياس . وأفقر العرب هم الذين يصنعون القطعة كلها من وبر الإبل ؛ نظراً لأن قيمة الوبر أقل كثيراً من قيمة شعر الماعز .

ثروات البدو وممتلكاتهم

ثروة العربى وممتلكاته تكاد تتمثل فى خيوله وإبله . والأرباح التى يجنيها العربى من الزبد تمكنه من الحصول على المؤن الضرورية من القمح والشعير ، وفى بعض الأحيان شراء مجموعة من الملابس لزوجته وبناته . وفرسه تنجب كل عام مهراً ثميناً ،

وبواسطة هذا الفرس قد يغتني بسبب نصيبه من الغنائم . وليست هناك أسرة عربية تستطيع الحياة بدون جمل واحد في أضعف الأحوال . والعربي الذي يمتلك عشرة من الإبل يعد من بين الفقراء ، ومن يملك ثلاثين من الإبل أو أربعين تكون أحواله ميسرة ، ومن يملك ستين من الإبل يعد ثريا . وهذه المقولة لا تنطبق على العرب كلهم ؛ فهناك قبائل هي في أساسها من الفقراء ، وأهل الجبل واحدة من هذه القبائل . في هذه القبيلة من يمتلك عشرا من الإبل يدخل في زمرة الأثرياء . وبعض شيوخ العنيز لدى الواحد منهم عدد يصل إلى ثلاثمائة جمل . والشيخ الذي كان لي مرشدا في تدمر ، يقال إنه يملك مائة جمل، وعدداً من الغنم والماعز يتراوح بين ثلاثمائة رأس أو أربعمائة، كما يملك أيضا فرسين وحصانًا . ويتوقف ثمن الجمل على طلبات الحج على الإبل ، أو على طلب القوافل المكية على الإبل . والحج الذي لم يحدث منذ أربع سنوات مضت هو الذي يرفع ثمن الجمل العربي الجيد إلى حوالي عشرة جنيهات إنجليزية . سألت ذات مرة أعرابيا يعيش في بحبوحة ، عن المبلغ الذي ينفقه خلال عام كامل فأجابني أنه في الظروف العادية في السنوات العادية يكون إنفاقه على النحو التالي :

	قرش
حمولة أربعة إبل من القمح	٢٠٠
شعير لفرسه	١٠٠
ملابس لنسائه وأطفاله	٢٠٠
كماليات، مثل: البن وقمر الدين(*) والدبس(**)، والتبغ وعدد ستة خراف	٢٠٠
	٧٠٠

أي إن إجمالي نفقاته يصل إلى ما يساوي ٣٥ جنيهًا إنجليزيًا أو ٤٠

(*) قمر الدين : معجون مشمش مجفف من دمشق.

(**) الدِّبس : معجون حلو المذاق يصنع من العنب.

الخيول ليست شائعة بين العرب على النحو الوارد فى التقارير التى كتبها رحالة متعددون ، والتى وردت على لسان أهل الريف السوريين ، الذين لا يعرفون أمور الصحراء معرفة كاملة . أثناء الزيارات التى قمت بها لخيام العنيز ، لم أتمكن من رؤية أكثر من فرس واحدة لكل ست خيام أو سبع . والعنيز هم وحدهم الذين يركبون أفراسهم ، وهم الذين يبيعون الأمهار (جمع : مهر) للفلاحين وأهل الحضر فى كل من سوريا وبغداد . وعرب أهل الشمال لديهم من الخيول عدد أكبر من ذلك الذى لدى العنيز ، لكن السلالة تكون مهجنة فى بعض الأحيان.

وفى كل الأحوال تعد الثروة أمرًا متأرجحًا بين العرب ، والتغيرات بالغة السرعة قد تحدث كل يوم . هذا يعنى أن التحرشات الجريئة من جانب اللصوص ، والهجمات المفاجئة من جانب الأعداء يمكن أن تحول أغنى الرجال خلال أيام قلائل إلى معدم من المعدمين. ونستطيع القول إن الذين نجوا من مثل هذه الكوارث يشكلون عدداً صغيراً جدا . هذا الحكم المطلق تؤكده هنا التفاصيل التى سنوردها عن الحروب البدوية وعن السرقات . ويمكن لنا القول أيضًا إن العرب يضطرون إلى السرقة والسلب والنهب . إنَّ السواد الأعظم من الأسر العنيزية لا تستطيع دفع أو سداد النفقات السنوية من الارباح المفروضة على ماشيتهم ، ويضاف إلى ذلك أن قلة قليلة من العرب على استعداد لبيع جمالهم نظير شراء التموينات والمؤن . والعرب يعلمون من التجربة أن البقاء فى حال من السلم فترة طويلة يقلل من ثروة الفرد وينقصها ؛ هذا يعنى أن الحرب والسلب والنهب أمورٌ ضرورية . وهذا يعنى أيضًا أن الشيخ يضطر إلى قيادة أعرابه والهجوم معهم على العدو إن كان هناك عدو وإذا لم يكن هناك عدو فبالإمكان اختراع عدو . لكن يمكن القول بصدق أيضًا إنَّ الثروة وحدها لا تضفى على البدوى أهمية بين ناسه وأهله. والرجل الفقير إذا ما كان مضيافا وكريما حسب إمكاناته ، وإذا ما كان يذبح دومًا طليًا عندما يفد غريب عليه ، وإذا ما كان يقدم القهوة للحاضرين كلهم ، وإذا ما كان يفتح كيس تبغه دوما لتعمير غلايين الأصدقاء ، وإذا ما كان يتقاسم الغنائم التى يحصل عليها مع أقاربه الفقراء ، وإذا ما كان يصرف

آخر مليم على إكرام ضيفه وإعطاء المحتاجين ، الفقير الذى يكون من هذا القبيل يحظى فى قبيلته باحترام لا يعرف الحدود، ونفوذ أيضًا لا يعرف الحدود ، غير الرجل البخيل ، وغير المقتر ، وغير الثرى البائس البخيل الذى يستقبل الضيف استقبالاً باردًا ويترك أصدقاءه الفقراء يتضورون جوعًا .

ولما كانت الثروة بين هؤلاء اللصوص لا تضفى على صاحبها نفوذًا أو سلطانًا ، فإن الثرى لا يستقى من السلطة أو السلطان إشباعا أكثر من ذلك الذى يحصل عليه أفقر فقراء القبيلة . أغنى أغنياء الشيوخ قد يحيا حياة شديدة التواضع بين العرب ، وهما يأكلان يوميا من طبق واحد ، ومن كمية واحدة ، ولا يشارك أى منهما فى الكماليات اللهم إلا إذا وفد عليه غريب ، وكانت خيمة المضيف مفتوحة لأصدقائه كلهم . وهما يلبسان ثيابًا من نوع واحد ، ومشلحًا من نوع واحد أيضا. المتعة الوحيدة التى يمكن أن ينغمس فيها الشيخ تتمثل فى امتلاكه لفرس سريعة ، وابتهاجه عندما يرى زوجته وبناته مهندمات على نحو أفضل من إناث المخيم الأخريات.

الإفلاس بالمعنى المعروف لهذا المصطلح غير معروف بين العرب . البدوى قد يخسر ثروته بفعل الأعداء (وهم يطلقون على هذا الشخص " وخد حلاله ")، أو قد ينفق هذه الثروة ويبعثرها فى الكرم ، وهو فى هذه الحال الأخيرة تمتدحه القبيلة كلها . ولما كان العربى الكريم يتمتع بفضائل بدوية أخرى ، فهو نادرا ما يفشل فى استعادة ذلك الذى خسره بسبب نبله وكرمه بضربة من ضربات الحظ .

العلوم والموسيقى والشعر عند البدو

لن نتوقف طويلا عند مسألة العلوم ؛ ذلك أن هناك عددًا كبيرًا من القبائل البدوية من قبيل ابن ضوحى لا يوجد فيها أحد يقرأ أو يكتب . وقد أكد لى هذه الحقيقة بائع جائل دمشقى ، كان يمضى القسم الأكبر من العام مع تلك القبيلة ؛ إذ كان يعمل سكرتيرا لشيخ القبيلة . وقد سبق أن قلنا إنه من قبيل الظروف غير العادية تماما أن

نجد أطفال ابن أزمير يتعلمون الكتابة . وأنا أثناء قيامى برحلتى إلى تدمر كنت قد أخذت معى مجلد سيرة عنترة ، وكنت أقرأ على جمهور الحاضرين مقتطفات منه ؛ ولم أجد بينهم من يعرف المطالعة العربية . لكننا نتوقع وجود شيء قليل من العلم بين هؤلاء البدو الذين تتركز أذهانهم بصورة مستمرة على الحرب والشجار . ولم أجد مطلقا بحوزة العنيز أى كتب باستثناء عدد قليل من نسخ المصحف (الشريف) التى تعد على أصابع اليد الواحدة . وسوف أتناول مهارة العنيز فى الطب فى مرحلة لاحقة .

ومعرفتهم الفلكية تتمثل فى تسمية المجرات والكواكب، التى يعرف العنيز الكثير منها، وسوف أورد فى الملحق شيئا من الأسماء التى يطلقونها على بعض الشهور القمرية .

لا يزال الشعر صاحب منزلة عالية عند العرب ؛ والعرب فى معظم الأحيان يقولون للشاعر "صاحب قول"، أو قد يقولون له "قوًال" بدلا من "شاعر". وتتجلى مواهبهم الشعرية بشكل عام فى إلقاء الشعر وإنشاده ، والشعر يمجد مزايا شيوخهم ، أو قد يمتدحون به مناقب أحد المحاربين الكبار (وهذا هو ما يسمونه " المدح") ، أو قد يتغنون بجمال السيدات . أنواع الشعر كلها يطلقون عليها اسم " قصيدة " ، وتاريخ عنترة يعد من الشعر القديم (وهو كتاب ممتاز)، وتاريخ الزير سالم، وثلاثة مؤلفات أخرى أو أربعة بالأسلوب البدوى الحقيقى لا يعرفها سوى قلة قليلة من العرب، ويجرى إنشادها بين الحين والأخر. والعنزى عندما يلقى شعرا يكون صوته دائما مصاحبا للربابة (وهى نوع من الجيتار التى أتى على وصفها نيبور) ، والربابة هى الآلة الموسيقية الوحيدة المستعملة فى الصحراء . وأهل الجوف مشهورون بمواهبهم الموسيقية والشعرية . وشعراؤهم يزورون العنيز من حين لآخر ، ويغنون أمام خيام الشيوخ مقابل مكافأة هزيلة ، لكن العنيز أنفسهم لا يقبلون أية مكافآت مقابل تسليمهم للمجموعة . وسوف أورد هنا بعض العينات من شعر الصحراء حتى يتمكن القارئ من الحكم على شعر البدو ، وسوف تكون هذه الأشعار حديثة إلى حد ما . وعلى الرغم من أن هذه الأشعار تفتقر إلى الدقة النحوية ، فإنها تعطى صورة للسلوكيات والأخلاق العربية

المستقاة من الواقع، باستخدام الأسلوب المعروف للبدو عندما يمتدحون مناقب أبطالهم، وهذه الأشعار تعكس اللهجة البدوية الحقيقية .

أطلق عربى إبله فى فصل الشتاء ترعى مع قبيلة غريبة ؛ وذلك على الرغم من نصيحة شيخه له بعدم فعل ذلك ؛ ونفقت الإبل، وخاطب العربى الشيخ بالأبيات التالية ، التى أغرت الشيخ وحرضته على تعويض تلك الخسارة ، عن طريق تعويض ذلك العربى بعضًا من الإبل التى نفقت .

قصيدة بدوية

سُليمان ! أعطنى القلم ، والورقة

بيضاء اللون ، علنى أؤلف قصدى ،

لغة الحقيقة . دعنى أرجو الله عونه ؛

ولعله يرحم خطايانا !

دعنى أحمده حمدا لا ينتهى

حمد الحب المُختزن ، مثل زرَّاع

الأرض ؛ البدو والرعاة .

ولعل النبى يتشفع لنا أمام الله ،

هنا قد يغفر الله لنا جرائمنا .

يا أنت ، يا من ابتعد عنى ، ركبت

الجمل فاتح اللون ، حاملاً فوقه

الشداد[*] رباعى الأجناب ،

وحاملا الكيس والمراقة [**] ، والدقيق

جيد الطحن ، ومعه حبوب القهوة ،

والطمباك [***] زكى الرائحة .

شاب أمين هو ، محبوب من

رفاقه ، فخر النساء الصغيرات .

مسارب البلاد هو يعرفها أفضل

جحافل قطاط[****] الليل ؛ وعيناه تريان

أبعد من رؤية النسر لفريسته .

الطريق متجه صوب البودج[*****] ؛ أنت

تمضى بطيئا ، (لأنك لا تعرف الخوف ،)

وسوف تحصل على غنيمة فورية من الحج [******].

اللص الحائل ، يجب أن تقاتله على الطريق ؛

وتطارده : لكن ، يا صديقى انتبه

(*) الشداد : هو الهودج الذى يستخدم فى تحميل الحمل .

(**) المراقة : قطعة من الجلد توضع على عنق الجمل ؛ ليضع الراكب فيها قدميه.

(***) الطمباك : نوع من التبغ يجرى تدخينه فى الأرجيل أو الغليون الفارسى ، بعد غسله غسلا جيداً

(****) هذه القطاط تكثر فى سهول الحوران . راجع كتاب رسل المعنون "التاريخ الطبيعى."

(*****) البودج : نافورة بالقرب من مزريب ، تبعد مسافة مقدارها مسير يومين جنوبى دمشق

(******) العرب يتباهون بسلب ونهب القوافل المتجهة إلى مكة .

جيدا لجملك ، وإلا سيتركك اللص

تموت فى السهل الموحش .

ليكن مسراك فى الليل ، بعد وقت طويل

من غروب الشمس ، ولا تجعل النار (البعيدة)

تجعلك تسرع خطاك إلا بعد أن تسمع

الكلاب تنبح ،

وأغانى أهلنا ؛ أفخر التوامية(*)

لا يوقفن مطلقًا أغانيهن التى تمتدح

شقيقا وضَّاء .

بين قطعان الراعى اليقظ (**) ، قد

تجد شقيقا وضَّاء ، وهو يتبع السوهيت المتحرك (***)

راكبًا على الخاضرة ، (****)

يهزم كل خيَّال بسهولة ؛ بفضلها يحصل

على غنائم لا تعد .

من ذا الذى يحصى الأبطال والمحاربين

(*) العرب يقولون للنساء اللاتى تركن أزواجهن ولم يحصلن بعد على حكم بالطلاق "توامية" .

(**) يبادر الراعى الذى يرى رجلا راكبا حصانا أو جملا وقادما من بُعد ، بإعطاء إنذار عن طريق الصياح بصوت عال إلى العرب الموجودين فى المخيم .

(***) السُّوهيت : فى لهجة البدو ، تعنى قطيع المخيم كله .

(****) الخاضرة : هى الفرس البيضاء.

الذين قتلهم ! الذين فاضت دماء

قلوبهم على الأرض !

هم يطيرون أمام عينيه ، الهاربون ، مثل

طيور أصابتها جراح طفيفة .

لكنه يطعنهم ، ومع صيحة الحرب(*)

لا يجرؤ أحدهم على الاستدارة للخلف ؛ مع أن الجبان

سوف يقاتل من أجل غنيمته .

ألم يحس قريبه اللصيق بثقل

سلاحه ؟ عمل جدير بالثناء لم يحك

عنه أحد من الناس(**)

الآن، وعندما اقتربت أنت من الخيم، سوف تغنِّى أغانى المرح، وسوف يرتفع

الصياح ، وسوف يُعظِّم الذَّبح (الحيوانات) .

ثم تحضر البنات بأسنان لامعة

مثل البرق ، ليتعلمن إنجازات

(*) كل عربى له تعبير مفضل يستعمله فى بث الحياة فى شجاعته أثناء القتال ، ويشعل به أيضا شجاعة أصدقائه . الخيالون الشهيرون يستعملون أسماءهم فى إخافة عدوهم ؛ وعلى سبيل المثال يقول أحدهم متعجبا : " أنا أخو وضَّاء " . والعرب يطلقون على صيحة الحرب هذه اسم " نخوة " .

(**) ضرب الشيخ الذى وجهت إليه هذه الأبيات الشعرية واحدا من أبناء عمه بقضيبه الشائك ، وهشم بعضا من أسنانه ؛ نظرا لأن ابن العم هذا تصرف تصرفا جبانا عندما كانت القبيلة مشتبكة فى القتال . والشيخ يمتدح لأنه ضحى هذه التضحية من أجل قبيلته ، غير عابئ بالمبلغ الذى سيحكم القاضى بدفعه لابن عمه نظير هجومه عليه .

شقيق وضّاء : أعرابه أثرياء .(*)

لحيته تشرق فضيلة ، مشيته

ليست مشية البائس ، وظلام

الليل لا يخفي أى عمل من أعماله .

شخصه الرجولى يقف خاليا من كل الجرائم

الوضيعة ، ومانعا لكل عتاب .

له أقدم تحياتى ، وتشريفاتى

الكثيرة ، وليَده أقدم أشعارى

مدحا له .

وأنت عندما تدخل الخيمة ، تسمح

للأشرار بالانسحاب . الحمد لله والصلاة

على نبيه ، والثراء سيكون من نصيبك .

بعد هذا القول ، يجرى فرد البُسُط

لك ، وستكشف الحبوب التى تسلق

عن رائحتها المحبوبة ،

أثناء وضع التمر والزبد من الأطباق(**)

(*) العرب أثرياء من خلال كرم شيوخهم .

(**) العرب يطلقون اسم "قوالك" على الوجبة التى توضع أمام الغرباء الذين يصلون فى الفترة ما بين الإفطار والعشاء، أو بين الساعة العاشرة صباحا وغروب الشمس، وهى الفترة التى لا يأكل العرب خلالها أى شىء.

تنتشى ، وتفكر فى الطَّلْى الذى جرى ذبحه .

بعد أن تأكل وبعد أن

تغتسل(*) قد يسألك عن المكان الذى

أعيش فيه .

قل له : يوسف يعيش الآن فى بؤس

وكرب ، منذ الوقت الذى قلل فيه من

شأن نصيحتك ؛ لم يحدث مطلقا أن أصابه حظٌّ حسن .

وله ممتلكات ؛ لكنه يعاقب جزاء له على تناسى نصيحتك ؛

الله سيصلح هذا الأمر ، يا أخى :

بعونه سيكون دوما معك ؛ لأنك إذا ما

تُركت وحدك لى ، آه يا أخى ! أنا مازلت غنيا .

" أيها الحظ ! رافق خطاه ؛ ولعل

الخُضْرة والجذور (**) ، حتى فى فصل الشتاء ، ينبتان

أمامه ، ويباركان قطيعه .

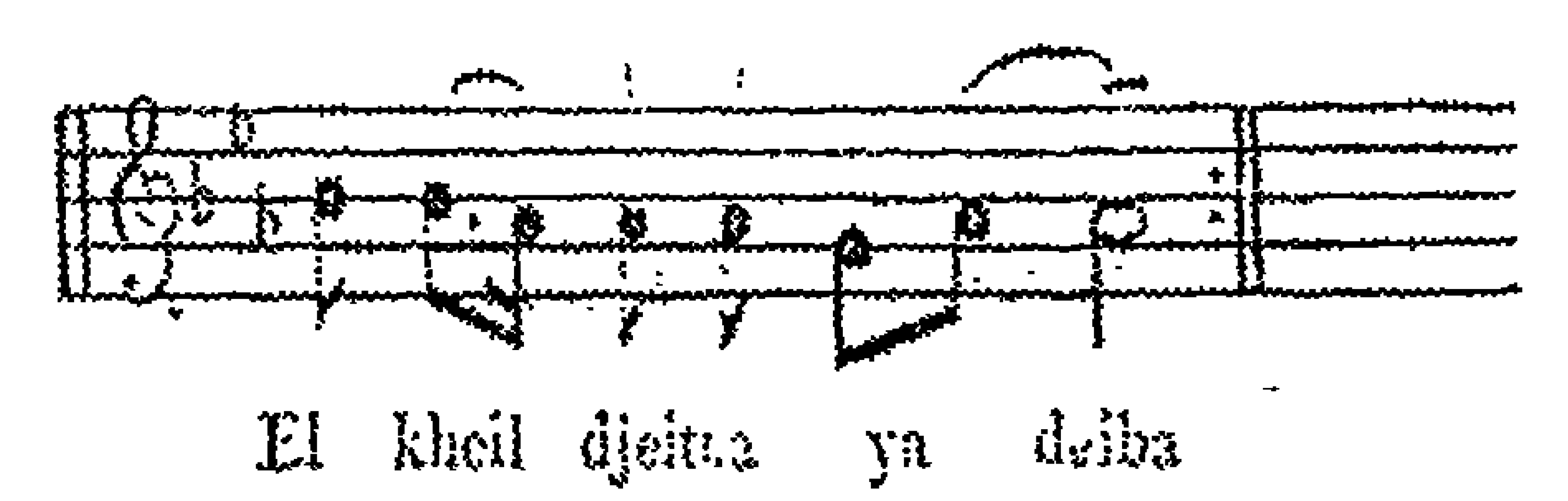
كلما دعوتَ الله ، وحمدته

حمداً كثيرا ، مثل مسابح العشب ، ومثل شعر قطيعك .

(*) الأصل العربى يقول: " نظيف مغسول بالصابون . " هذه العبارة إذا ما أضيفت إلى الشيخ ، الذى لا يهمه الإنفاق على السلع النادرة التى من قبيل الصابون فى الصحراء تعنى أنه يفعل كل ذلك من أجل إكرام الضيف .

(**) المقصود هنا هو الكمِّاى (وفقع الصحراء) ، الذى سبقت الإشارة إليه .

العرب لديهم إلى جانب القصيد ، أغانٍ وطنية متباينة ، والأغاني الوطنية التي تغنيها النساء يطلق العرب عليها اسم " الأسمار " . وفي مناسبات الأعياد والأفراح تجلس النساء في المساء، في مكان يبعد مسافة قصيرة عن الخيام ويكون إلى الخلف منها ويقسمن أنفسهن إلى جوقات عدد الجوقة الواحدة منها بين ست نساء ، أو ثمانٍ ، أو عشر . وتبدأ جماعة من هذه الجماعات بترديد الأغنية ، وتروح المجموعات الأخرى ترددها بعدها . وهذا النوع من الغناء يطلق عليه اسم "البنات يلعبن الأسمار" والأغنية تكون دومًا ثناء أو مدحًا للشجاعة والكرم ، ولحن هذه الأغنية الثابت الذي لا يتغير على النحو التالي :



الحركة في هذا اللحن قد تكون سريعة أو بطيئة ، في ضوء اغتباط المُغَنِّي . وسوف أورد هنا عينات من الكلام المؤيد لهذه المقولة :

الخيل جتنا يا ديبا   المقاتل ، يا ديبا ، تقدم !

الخيل جتنا هتيًبا   تقدم أيها المقاتل الباسل !

الخيل ضوحي يا ديبا   ضوحي ، أيها المقاتل ، يا ديبا !

البيت الأول من الأغنية يجري تكراره خمس مرات أو ستًا بواسطة الجوقة الرئيسية ، ثم يجري ترديده بواسطة الجماعات (الجوقات) الأخرى . البيت الثاني الشيء نفسه . لكن البيت الثالث – الذي يشتمل دوما على اسم مقاتل شهير – يجري تكراره وترديده أكثر من خمسين مرة ، والنساء ينطقن ذلك الاسم على نحو يجعل فهمه أمرًا صعبًا على الرجال ، وبخاصة عندما يصيخون السمع ليعرفوا اسم ذلك الإنسان السعيد .

أغانى الرجال الوطنية لها نوع آخر، وأغانى الحب يسمونها "هجينى". حب العرب لا يكون محاطًا بالغموض مثل حب الأوروبيين ، هذا يعنى أن هوى العربى وعاطفته تكون معروفة للقبيلة كلها ، وسره الوحيد هو اللقاء السرى الذى يجمعه بمحبوبته . هذا اللقاء يصبح أمرا سهلا لكثرة الوديان التى تتوفر فى كل أرجاء الصحراء ، والأبيار التى تجلب النساء منها الماء لا تزال هى الأماكن المفضلة للقاء . وإذا تملك المحب القلق والسهاد أثناء الليل فإنه يذهب إلى قسم الرجال فى الخيمة التى تسكن فيها محبوبته، أو قد يذهب إلى خيمة صديق له بالقرب من خيمة المحبوب ، ثم يبدأ يتغنى بأغنية الحب الرجالية ، أو أن شئت فقل "الهجينى" ، ويروح يتغنى بتلك الأغنية إلى طلوع النهار، وذلك بالاشتراك مع الأصدقاء الذين يتجمعون حوله. البنات من جانبهن، قد يفعلن الشىء نفسه فى بعض الأحيان ، وأغنيتهن هى الأخرى تسمى "الهوجينى". نغمة هذه الأغنية لا تتغير مطلقًا ، ولكن لحنها وطبقة الصوت فيها مختلفتان تماما عن الموسيقى التى يسمعها الأوروبيون ، وحتى فى البلدان والمدن التركية أيضًا ؛ الأمر الذى عجزتُ معه عن تدوينها . وأنا أورد هنا عينات من " هجينى " الرجال :

يا ذيب يا أعلا من القعرة

عاينت شوقى و دوًّارها .

هذان البيتان يعنيان : أيها الذئب ، يا من تكون أطول من القعرة (*) ،

لقد رأيت حبيبتى ، هى وخيمة أسرتها .

وهذه عينه أخرى أخرى من " الهجينى " :

يا عم قوم دنٍّى لى ضامره

ما لحد تشوق للنحلاوية

حط عليها شداد الزين والبحرية جلد النجدية

أبغى عليها مع الزمال

(*) القعرة : تل عالٍ فى منطقة الجوف .

معنى هذه الأبيات : يا ابن العم(*) ، انهض ! واحضر لى الجمل

الجمل الأسود ، الذى تحبه العذراء الوحيدة؛

شد عليه سرجا جميلا ، وقراب الماء المصنوعة من الجلد النجدى .

هيا بنا إلى النافورة .

نحن نلاحظ من خلال هذه الأغانى أن الجمل الرشيق (الذى يسمونه "ضامر") ، وأن الجمل الرمادى الغامق ، أو الذى يميل إلى السواد ، من الأشياء المحبوبة بين بنات العنين، أما الجمال التى يميل لونها إلى اللون البنى الضارب إلى الحمرة فهى محط إعجاب بنات بنى صخر .

ولم أتمكن من الحصول من أى إنسان على عينة من "هوجينى" النساء ، المقصور عليهن وحدهن.

الرجال لديهم أغنية يسمونها " صهجة" ، وهى تمدح الرئيس أو الشيخ . والتغنى بهذه الأغنية يتشكل من ستة من العرب على شكل دائرة، ويبدأون بتكرار كلمة "حمود، حمود" بدلا من كلمة " حَمْد" (بمعنى: الشكر أو الثناء) مرات متعددة ، ثم يبدأ واحد منهم بغناء خمس كلمات أو ست يثنى بها على واحد من الناس ؛ وهنا يجرى تكرار كلمة " حمود" مع التصفيق بالأيدى . وهنا يبدأ شخص ثان بالتغنى بمقطوعة أخرى ، يثنى بها على شخص آخر . على أن يكون المقطع الأخير من المقطوعة مقفًى من المقطع الأخير عند المغنى السابق ؛ وبذلك يستمر " الصهج" ساعات طوال .

أغنية الحرب عند العرب يسمونها " حدو ". والقبيلة عندما تتألب على عدو يكون الصف الأول مكونا من الخيَّالة ، يجىء بعدهم الجمَّالة ، ثم بعد ذلك البدو المشاة

(*) كلمة "عم" هنا مستخدمة لتعنى "بنت عمى" . وكلمة "الزمال" فى البيت الأخير ، تعنى الجمل الذى يحمل قراب الماء .

فى المؤخرة ، ويكونون مسلحين بالعصى والحراب والقولنجات ... إلخ .. إذا ما اقترب العدو عجَّل المشاة خطوهم ، وسارعوا إلى الاشتباك مع الطوابير المتقدمة . وهم فى مثل هذه المناسبة ينشدون " الحدو " الشهير الذى يقول :

يا موت خَلٍّ السكَر

يا موت حتى تَتَر

هذا الحدو يعنى : أيها الموت ، أجِّل انتقامك ،

أيها الموت ، ذلك (أو : إلى أن) إلى أن نثأر لدمنا !

نغمة هذا الحدو الحربى هى نغمة الأسمار نفسها ، والتى سبقت الإشارة إليها . أغنية الجمَّالة يسمونها أيضًا " حدو " ، ومعروف جيداً أن الجمل لا يتحرك بقدر كبير من السهولة واليسر إلا عندما يسمع صاحبه يغنى :

يا رب سلمهم من التهديد

واجعل قوايهم عمد حديد .

هذا الحدو يعنى : يا الله ، احمهم من الأخطار التى تهددهم !

واجعل أطرافهم عمداً من حديد !

الصغاريط (الزغاريد) أو إن شئت فقل الصيحات التى تعبر عن الفرح والابتهاج تتردد فى الصحراء مثلما تتردد أيضًا فى البلدان السورية . والرجال يظنون أن مشاركتهم فى تلك الزغاريد يحط من شأنهم ويقلل من كرامتهم .

ولائم العرب وأفراحهم

احتفال الختان هو أهم احتفالات العرب ، والصبية فى سن السادسة أو السابعة تجرى لهم هذه العملية فى كل فصول العام . فى صباح اليوم المحدد لختان الصبى يقوم والده بذبح خروف ، ويقوم عم الصبى أو أقرب أقاربه بإحضار خروف مذبوح إلى الخيمة ، أو قد يحضر طبقًا كبيراً من الأطعمة المطهية إذا ما كان من الفقراء ؛ لكن يجرى بصفه عامة ذبح خمسة خراف أو ستة . ويجرى عندئذ وضع " المقصر " ، أو إن شئت فقل عدّة أو سرج الجمل أمام الخيمة ، ويجرى وضع قطعة من القماش أحمر اللون أو ثوبًا أحمر اللون أو سروالاً أحمر اللون فوق هذا السرج ، كما يجرى وضع ريش النعام فى الجزء الأمامى من ذلك السرج .

عندئذ تتجمع نساء المخيم بالقرب من هذا العرض (الذى يطلقون عليه اسم "المصنع") ، ويرحن يسلين أنفسهن بالغناء ، فى حين يتناول الرجال الطعام داخل الخيمة . بعد الانتهاء من تناول الطعام ، يجرى ختان الصبى ، وتقوم النساء بمصاحبة هذه العملية بالغناء بصوت عال أو بالصياح . يغادر الرجال الخيمة بعد تناول الطعام ، ويتناولون حرابهم ، ويركبون أفراسهم ، ويقوم كل واحد منهم بالدوران ثلاث مرات حول " المصنع " ، ثم يصطفون بعد ذلك على جانبى الخيمة ، على شكل صفين ، بحيث يكون ذلك على مساحة حوالى مائتى ياردة من الخيمة أو ثلاثمائة ، ويبدأون بعد ذلك فى محاكاة العمليات القتالية . هذا خيَّال يجرى بفرسه إلى الجماعة المقابلة ، ويروح يتحدى واحداً من أفرادها ، ويقوم الآخر بملاقاته محاولاً تجاوز فرسه ، مقترباً من صف الخصم . وهو بدوره يقوم أيضًا بتحدى الخصم ، وتستمر العملية على شكل صفوف ، من هذا إلى ذاك ، لمدة تزيد على ساعة من الزمن ، وذلك من باب تكريم الخيمة التى حدثت فيها عملية الختان . وتروح النساء طوال هذه المدة يتغنين بأغنيات الأسمار ، ويمتدحن الخيَّال الأفضل ، أو صاحب أسرع الأفراس .

وفى شهر رمضان يقوم العرب بتحويط مربع كبير بجدران من الأحجار المتناثرة ، ثم يقومون بالصلاة داخل هذا المربع ، معتبرين إياه مسجداً . وبعد أداء صلاة الصبح

والمغرب يبدأ العرب فى تدريب خيولهم بالطريقة سالفة الذكر ، فى المنطقة الموجودة أمام المسجد ، لكن ذلك لا يحدث إلا فى شهر رمضان فقط .

وفى عيد الضحية أو بالأحرى عيد الأضحية على جبل عرفات يجرى إنشاء مسجد على النحو سالف الذكر، وتقوم الخيول بالجرى بصورة منتظمة بعد الصلاة لمدة ساعة. ويكون الطعام اليومى طوال فترة العيد أفضل من الطعام المعتاد، حتى بين تلك الأسر التى لا تكون لها أضحيات ينحرونها لأقاربهم الذين وافتهم المنية فى العام السابق .

العنيز ليست لديهم مناسبات أخرى غير المناسبتين السابقتين ، لكنهم يحتفلون بمجىء أى غريب ، حيث يقيمون له وليمة غداء تجرى دعوة الأصدقاء كلهم إليها .

إذا غاب قريب عن الوطن أو البيت مدة طالت أكثر من اللازم ، أو إذا عرفوا أنه مشغول فى مهمة طويلة ، فإن أسرة ذلك الغائب تنذر نَذْرًا مفاده أن هذه الأسرة سوف تضع عند عودة هذا الغريب على مقدوم الخيمة بعضًا من ريش النعام؛ حتى يمكن الترحيب بذلك الغائب من مسافة بعيدة عند وصوله. وهم يطلقون على هذه العملية "راية لوجه الله". والعربى يَنْذُر فى بعض الأحيان أن يذبح جملاً لله إذا ما ولدت فرسه فرسًا أنثى . فى مثل هذا الحال يذبح هذا العربى الجمل، ويجعل من لحمه وليمة لأصدقائه كلهم .

الأمراض والعلاجات

لا يزال مرض الجدرى يحدث أضرارا كبيرة بين البدو ؛ لقد أدى عنف هذا المرض إلى خلخلة سكان مخيمات كاملة . وإذا ما أصيب رجل أو طفل بهذا المرض نصبوا له خيمة منعزلة بعيدة عن المخيم بمسافة كبيرة ؛ بحيث يقوم على خدمته شخص قد أصيب بذلك المرض من قبل . والعرب يقولون لمثل هذا الشخص " نجىٌّ " . والتحصين ضد الجدرى معروف عند العنيز ، وهم يطلقون على ذلك التحصين اسم "دق الجدرى" . كما يشيع ذلك التطعيم أيضًا بين عرب الشمال على نحو أكبر وعرب الكبلى يعرفون أيضًا التحصين ضد الجدرى . وعملية التطعيم يجريها الرجال فقط عن

طريق إبرة يجرى الإمساك بها بين الإبهام والسبابة، لكن يندر استعمال الطعم إلا بعد أن يحدث الجدرى الطبيعى أضرارا وإصابات فى القبيلة . ويجرى تطعيم الكبار والصغار على حد سواء . وقد تعلم العنيز التطعيم من الفلاحين السوريين، لكن عرب وسط الصحراء الداخلية أمثال بنى الشمَّر وآخرين ، لا يعرفون شيئًا عن هذا التطعيم، ويتركون كل شيء لمشيئة الله ، كما هو الحال عند السواد الأعظم من العنيز. وقد بدأ التطعيم ينتشر فى سوريا، حيث جرى إحضار الطعم أول مرة إلى مدينة حلب بواسطة السيد/ جون باركر ، الذى كان قنصلاً بريطانيا لصاحب الجلالة فى هذه المنطقة . كان باركر قد تسلم ذلك الطعم من فيينا ، ثم أدخله بعد ذلك إلى جبال الدروز مع مطلع الحرب التى دارت مؤخرًا بين إنجلترا والباب العالى . واعتبارًا من ذلك التاريخ كان القسم الأكبر من العائلات المسيحية واليهودية فى كل من حلب واللاذقية وطرابلس وبيروت وجبال المارونيين وجبال الدروز ودمشق قد جرى تطعيم أطفالهم. وفى العام ١٨١٠ ميلادى كان قد تم تطعيم ما يزيد على تسعمائة طفل فى دمشق . كان جدرى البقر قد جرى تسلمه أيضًا فى بغداد. وراح الأتراك يحذون حذو المسيحيين ولكن على نحو بطيء ، لكنهم سوف يعرفون – بلا شك – أهمية وفائدة التطعيم خلال سنوات قلائل .

العرب يشكون دومًا من أوجاع وآلام فى المعدة ؛ وشرب حليب الإبل بصورة مستمرة ربما كان السبب الرئيسى فى تلك الأوجاع . ويمكن أن تستمر معاناتهم لولا الخصائص المالغة للماء الذى يشربونه، وما يترتب عليه من تطهير للمعدة . وفى هذه الأحوال – وكذلك فى الأمراض الروماتيزمية (التى يسمونها "ريح") – نجد أن العلاج الوحيد عند العرب يتمثل فى الكى، أو إن شئت فقل حرق الجلد حول منطقة الألم؛ باستعمال قطعة من الحديد تُسخَّن إلى درجة الاحمرار . لقد رأيت بعينىَّ أناسا كانت أجسامهم تحمل علامات لعميات من هذا القبيل ، والمؤكد أن الكى تنتج عنه بعض التحسينات والنتائج الطيبة فى بعض الأحيان . والعرب يمسكونه بين أصبعين بدلاً من حرق الجلد ، ويكوونه باستعمال ميسم يسخنونه إلى درجة الاحمرار ؛ ليحدثوا ثقبًا يمررون من خلاله خيطًا لتسهيل عملية إفراز القيح . هذه العملية يطلق العرب عليها اسم "الخلال". والعرب قد يستعملون خشب السنديان بدلاً من الحديد . وخشب

السنديان هذا نوع من خشب الأرو الذى ينمو بوفرة فى جبال الهيش والبلقاع. وغصن من أغصان هذه الشجرة (وهذا نوع من الخشب الصلد جدا) يجرى حكه على حجر سنّان إلى أن يسخن الخشب تمامًا ثم يضعونه على جسم المريض بالطريقة نفسها التى يستعملون بها الميسم سالف الذكر (*).

الحمى بكل أنواعها ليست مستبعدة من الصحراء ، وهم يطلقون على الحمى الالتهابية اسم "خِبْية" ، أما الحمى المتقطعة فيطلقون عليها اسم " صخون " (ولكن الناس فى سوريا يطلقون على الحمى الالتهابية اسم "سخونة" ، ويطلقون على الحمى المتقطعة اسم "دوير"). وإذا لم يُؤدِّ الكى إلى شفاء المريض فإنهم يتركونه لرعاية الله ومشيئته .

الاضطرابات الناتجة عن الرمد أمور شائعة بين العرب، وعلى الرغم من أنهم لا يفعلون شيئًا لوقف هذا الشر فإن قلة قليلة من البدو يفقدون بصرهم بالمقارنة بأعداد العميان فى البلدان السورية . العرب ينامون دومًا ملفوفين فى مشالخهم ، أمَّا أهل الحضر فهم على العكس من ذلك ، حيث ينامون فى أسِرَّة فى شُرَف منازلهم ، دون أن يغطوا وجوههم . ولعل هذا هو السبب الرئيسى وراء الإصابة بالرمد فى منطقة حلب وفى دمشق بصورة خاصة .

والعرب لا يلجأون مطلقًا إلى النزف عن طريق فتح وريد من الأوردة ، لكنهم فى حالة الإصابة بالصداع الشديد يسحبون نقاطًا قليلة من الدم ، عن طريق استعمال سكين لإحداث قطوع بسيطة فى جلد جبهة الرأس . يضاف إلى ذلك أن كثيرا من البدو يعانون من الديدان .

شكاوى الأمراض التناسلية غير معروفة تمامًا بين العنيز ، ولكن أهل الشمال يعانون من هذه الأمراض فى كثير من الأحيان . والعنزى لا يمارس الدعارة مطلقًا

(*) استفسرت عما إذا كان العرب يعرفون نوعين من الخشب ، يجرى حكهما ببعضهما لإنتاج شرارة ، ولكن أحدًا منهم لم يعطنى ردًا إيجابيًا أو أية معلومات إيجابية حول هذا الموضوع.

إذا ما غزا قرية أو مدينة ، على الرغم من أن سوريا تقدم الكثير من التسهيلات فى هذا الصدد . وإذا ما أصيب أحد (وهذا أمر جد نادر جدا) تقوم أسرته بإرساله إلى مستشفى ، أو إن شئت فقل مورستان دمشق أو بغداد .

البرص ، أو نوع منه فى أضعف الأحوال ، لا يزال موجوداً بين العرب ، لكن على امتداد ممارسة تقدر بحوالى اثنى عشر عامًا ، كان طبيب إفرنجى قد تمكن من الكشف عن حالة من حالات البرص ، ولم تتح لى فرصة رؤية أحد المصابين بالبرص فى الصحراء ، لكنى علمت أن البرص عبارة عن بقع بيضاء مقدار الواحدة منها بمقدار اليد البشرية ، وأن هذه البقع تظهر على أجزاء مختلفة من الجسم دون أن تبرز عن الجلد ، ولكنها تبقى واضحة وناعمة تمامًا . البعض قد يولدون بهذا المرض ، والبعض الآخر قد يصيبهم المرض فى سن العشرين أو الثلاثين .

هذا المرض أو هذه البقع إذا ظهرت على الخدين – أدى ذلك فى أغلب الأحيان (لكن ليس دومًا) إلى تساقط اللحية ، وإذا ما أدت أمراض أخرى إلى فقدان اللحية فإن ذلك يعد نوعًا من العار، والشخص الذى يعانى من مثل هذا التساقط، أى من ضاعت لحيته يسمونه "حيتوت" ، و"الحيتوت" يعنى المرض الذى يصيب ذيل الحصان بالتآكل .

البرص ليس له علاج إلى الآن ، والعرب يقولون إن البرص إذا ما أصاب عائلة لا يمكن استئصاله من تلك العائلة استئصالاً تاما ، لكن البرص لا يمكن أن ينتقل مباشرة من الأب إلى الابن ، لكنه يمكن أن ينتقل من الجد إلى الحفيد متخطيًا بذلك الجيل الوسيط . وليس هناك من شىء يمكن أن يعوض العار الذى يصيب ذلك الشخص الذى يصاب بالبرص ؛ هذا يعنى أن أحدًا من العرب لا يجرؤ على النوم بالقرب من الأبرص ، أو يأكل من الطبق نفسه الذى يأكل منه ذلك الأبرص ، ولا يسمح لابنه أو ابنته بالارتباط مع أبرص عن طريق الزواج .

ألم الاسنان غير معروف للعرب البدو ؛ نظرًا لأن لهم أسنانًا جميلة . بعض العرب يعرفون كيف يُجَبِّرون الرِّجل المكسورة ؛ وذلك عن طريق المُجبِّر الذى يستخدم الجبيرة المستخدمة فى تجبير أطراف الغنم والماعز المكسورة .

بعض البدو يستخدمون بعض أعشابهم الصحراوية على سبيل الأدوية الملينة . معرفة هذه الأشياء البسيطة هي والكي (سالف الذكر) تشكل كل علوم الطب عند البدو، لكن لديهم ثقة كبيرة في فاعلية بعض الكلام الذي يكتبونه على شرائح من الورق يبتلعها المريض بشره شديد . السواد الأعظم من أمة تأكل وتشرب على هذا النحو لابد وأن يكونوا من الأصحاء، لكن الأوجاع المستمرة في الحياة البدوية تفوق قدرة كبار السن على التحمل ، وهنا يتعين على الرحالة ملاحظة ندرة كبار السن في مخيمات هؤلاء الأعراب .

النساء لا يعانين كثيراً أثناء المخاض ، وهن يلدن في الهواء الطلق في أغلب الأحيان . وعندما يحدث ذلك تقوم الأم بمسح الطفل وتنظيفه فور ولادته ، وتستخدم في ذلك التراب أو الرمل ، وتضعه في منديلها وتعود به إلى المنزل . وإذا ما أحست بأعراض الولادة وهي راكبة الجمل ، فإنها تنزل عنه ويجري توليدها خلف الجمل ؛ حتى لا يراها أحد من الناس ، ثم تعود وتركب الجمل على الفور . وهي تقوم بإرضاع الطفل إلى أن يستطيع تناول الطعام الجاف . لكن النساء العربيات لسن غزيرات الحليب ، وهن يشربن خلال الأيام الثمانية أو العشرة الأخيرة من الحمل كميات كبيرة من حليب الإبل ، لكي يزدن من إدرارهن للحليب ، وهذا يعني أن الطفل يعتاد منذ طفولته على مذاق حليب الإبل ، بل إن الطفل وهو في الشهر الرابع من عمره يبتلع حليب الإبل بجرعات كبيرة .

العرب يسمون الطفل عقب ولادته مباشرة ، وقد يشتقون الاسم من حادث تافه ، أو من شيء يكون قد خطر بخيال الأم ، أو أية امرأة من النساء اللاتي يكن موجودات أثناء الولادة ؛ هذا يعني أنه لو كان الكلب موجوداً أو قريباً منهن في تلك المناسبة فإن الطفل يسمى "كلاب" (أي مشتق من كلمة "كلب") . أما إذا كانت الولادة قد استمرت فترة طويلة أثناء الليل ، واستمرت إلى طلوع الشمس – فإن الاسم الذي يطلق على الطفل يكون "ضويحي،" أي أن الاسم مشتق من كلمة "ضحي") . وباستثناء "محمد"

الذى يعد اسمًا ذائعًا وشائعًا نجد أن الأسماء الإسلامية الحقيقية التى من قبيل حسن ، وعلى ، ومصطفى ، وفاطمة ، وعائشة ، يندر وجودها بين البدو الحقيقيين . والعربى يسمى باسم والده ، بالإضافة إلى اسمه الحقيقى ، كما يسمى أيضًا باسم قبيلته ، أو باسم أسلاف عائلته ؛ وهم يقولون "قِدوة بن غيَّان الشمسى، بمعنى "قدوة ولد غيَّان من قبيلة الشمسى" .

التعليم

فيما يتصل بالتعليم نجد أن الصبى العنزى الصغير يمكن أن يسمى بحق "ولد الطبيعة" ؛ هـذا يعنى أن والـدى هـذا الصبى يتركانه حـر الإرادة ، أى أنهما نـادرًا ما يؤدبانه ، لكنهما يعلمانه منـذ الطفولة على تحمل متاعب الحياة البدوية وأخطارها لقد رأيت جماعات من الأطفال العراة ، وهم يلعبون فى وقت الظهيرة فوق الرمال الحارقة فى منتصف فصل الصيف، ويروحون يجرون إلى أن يصيبهم التعب ثم يعودون بعد ذلك إلى خيام آبائهم ، وكان الآباء يلومونهم على عدم الاستمرار فيما كانوا يفعلون(*). والآباء بدلاً من أن يعلموا الطفل (الصبى) السلوكيات المتحضرة يعلمونهم كيف يضربون ويشتبكون مع الغرباء الذين يَهِلُّون على الخيمة ؛ طمعًا فى السرقة أو لإخفاء حاجة من حاجياتهم التافهة على سبيل المزاح ، وكلما زادت بذاءة وشراسة الصبية زادت مشكلاتهم ومتاعبهم مع الغرباء ، ومع رجال المخيم كلهم ، وهنا يزداد امتداحهم باعتبار أن ذلك دليلاً على ميولهم الحربية والقتالية المستقبلية .

الطفل العربى لا يعطى الغريب سوى اسمه فقط ؛ هذا يعنى أن مثل هذا الطفل لديه تعليمات بعدم الكشف عن اسم عائلته ، مخافة أن يقع الطفل فريسة فى يد أعداء يطالبون بالثأر لموت قريب لهم ، من القبيلة التى ينتمى إليها الطفل، يضاف إلى ذلك أن الكبار أيضًا لا يكشفون مطلقًا عن أسماء عائلاتهم لأى غريب من الغرباء ، مهما كانت قبيلته .

(*) يستطيع العرب أن يجروا مسافة طويلة بسهولة ويسر دون ضجر .

التَّعبُّد

لم يكن بين العرب ، وإلى زمن قريب جدا ، علماء دين أو "مُلَّات" (مرجعيات دينية) أو أئمة، لكنهم بعد اعتناق المذهب الوهابى جرى إدخال نظام |المُلَّات" (المرجعيات الدينية) عن طريق قلة قليلة من الشيوخ ، من أمثال الشيخ الطيار ، والشيخ ابن إزمير ، اللذين تعلم أطفالهما الكتابة عن طريق واحد من هؤلاء الدعاة . والعنيز يواظبون على الصلاة اليومية ، وليس لديهم خطباء في يوم الجمعة . وهم يواظبون على صيام رمضان ويحرصون على ذلك حرصًا شديدًا ، وحتى أثناء مسيرهم فى الصحراء فى منتصف الصيف لا يمكن أن يمنعهم أى شيء من صيام رمضان سوى الموت . هناك ثلاثة أشياء ممنوعة على البدو ، هذه الأشياء الثلاثة هى الحرام ، أى المحرمات لحم الخنزير، والميتة ، والدم(*) . وهم يأكلون الصيد بكل أنواعه . وفى يوم القربان ، أو بالأحرى يوم عرفة ، تقوم كل أسرة من الأسر العربية بنحر عدد من الإبل بعدد الوفيات من الكبار ، من أفراد الأسرة فى العام المنصرم ؛ سواء كان الميت أنثى أو ذكرًا . وحتى لو كان المتوفى قد ترك لوريثه جملاً واحداً فإن هذا الجمل يجرى نحره والتضحية به ، وإذا لم يترك المتوفى جملاً يقوم أهله أو أقاربه بنحر جمل من إبلهم ، ويمكن استبدال سبعة خراف أو كباش بالجمل . وإذا لم يمكن الوفاء بالأضحاة كلها عن الموتى فإن النقص يمكن استكماله فى العام أو الأعوام التالية؛ من هنا فإن القربان أو الأضحية تكون دومًا احتفالاً كبيرًا بين العرب . .

العربى عندما توافيه المنية يجرى دفنه على الفور بلا أية مراسم، وعندما توفى سليمان ، الأخ الأكبر لابن إزمير الشيخ العنزى الشهير ، جرى وضع جثته فوق جمل، وعهدوا بدفنها إلى فلاَّح من الفلاحين، ولم يرافق أى أحد بما فى ذلك أخوه تلك الجثة إلى مثواها الأخير. وإذا ما صادف أن يكون مكان المتوفى قريبًا من قرية مخرَّبة (وما أكثر هذه القرى فى الصحراء على بعد مسافة مقدارها مسير أربعة أيام أو خمسة فى اتجاه الشرق فى سوريا) فإن الميت يجرى دفنه بين هذه الأنقاض .

(*) إعمالاً لنص القرآن الكريم : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ المائدة، من الآية ٣ . (المراجع)

لكن إذا لم تكن القرية قريبة فإنه يجرى دفن الجثة فى السهل ، والأحجار التى يجرى تكويمها فوق القبر تبين ذلك القبر للمسافرين، وتحمى الجثة من الحيوانات المتوحشة . والأب عندما يتوفى يقوم أبناؤه وبناته بقص قرونهم وقرونهن ، أى جدائل شعرهم وشعورهن ؛ وذلك دليلاً على حزنهم. وعند وفاة الرجل ، أو بالأحرى فى لحظة الوفاة ، تتحد صيحات زوجاته وبناته وقريباته ، وهو ما يطلقون عليه اسم: " الولولة "، التى يرحن يرددنها مرات عدة . وإذا لم يترك المتوفى وريثًا ذكراً انتقلت ثروته إلى أسرة أخرى ، وإذا ما كان الوريث قاصراً وذهب للعيش مع عمه أو أقرب الأقارب فإن أعمدة الخيمة يجرى تمزيقها بعد الوفاة مباشرة ، ويجرى تخريب الخيمة ، وهم يصفونها بعد هذا التخريب بقول " خربت " .

العنزيون لم يواظبوا على الصلاة إلا بعد اعتناقهم للمذهب الوهابى ؛ وكان ذلك من منطلق معرفتهم أن الرئيس (الشيخ) الوهابى قاسٍ جدا فى معاقبة أولئك الذين يهملون الصلاة أو يتغاضون عنها . هناك آراء مختلفة فى المفاهيم الوهابية ، وأنا لم ألتقِ فى سوريا بأحدٍ يعرف المذهب الوهابى معرفة حقيقية. وأنا أرى أن من حقى القول – وهذا من واقع تحرياتى بين العرب، ومن واقع تساؤلاتى مع الوهابيين أنفسهم – إن المذهب الوهابى يمكن أن نطلق عليه مصطلح " البروتستنتية "، أو حتى التطهرية فى الإسلام . الوهابى يقر كما يعترف أيضًا أن القرآن وحى سماوى ، مبدؤه هو "القرآن ولا شىء غير القرآن"، وهو من هذا المنطلق يرفض الحديث كله، الذى يستخدمه الفقهاء المسلمون فى تفسير القرآن ، وغالبًا فى تأويل القرآن (الكريم) . الوهابى يرى أن محمدا ﷺ نبىٌّ ، لكنه شخص فانٍ يوليه أتباعه ومريدوه كثيراً من الاحترام والتوقير أكثر مما ينبغى . الوهابى يمنع الحج إلى قبر محمد ﷺ فى المدينة (المنورة)(*) ، لكنه يحض المؤمنين على زيارة الكعبة ، ويحضهم بصفة خاصة على النحر على عرفة ؛ مقدسًا بذلك مناسك الحج فى مكة . وهو يستنكر خيلاء المسلمين فى الزمن الحالى فى مسألة اللباس ، وإسرافهم فى المأكل وفى التدخين . ويسألهم ما إذا

(*) زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ليست من مناسك الحج ، والمؤلف قد خلط بين الحج وزيارة المدينة المنورة والمسجد النبوى . (المراجع)

كان محمد ﷺ قد لبس بلِّيسًا ؟ ويسألهم أيضًا ما إذا كان محمد ﷺ قد مارس التدخين ؟ كل أتباع الوهابى يرتدون ثيابا بسيطة ، ولا يتزينون هم وخيولهم بالذهب والفضة ، وأتباعه يمتنعون عن التدخين الذى يقولون عنه إنه يُخَدِّر ويُسْكِر . الوهابيون يرفضون الموسيقى والغناء والرقص ، والألعاب على اختلاف أنواعها ، ويعيشون مع بعضهم (فى وجود الشيخ فى أضعف الأحوال) فى وئام ومساواة تامة ، لأن التقديس – على حد قول الوهابى – لا يكون لأى أحد وإنما لله (جل جلاله) وحده ، الذى يتساوى أمامه الخلق جميعًا . يضاف إلى ذلك أن هـذا الرئيس (الشيخ) الكبير لا يسمح لأحد بالوقوف عند دخوله ، أو أن يفسح له مكانًا وهو يتعجب من أى اتصال يجرى بين شعبه المؤمن والكفرة المشركين كما يسمى المسلمين . الوهابى (وهذا هو النعت الذى يوُصف به ابن سعود الذى يشغل منصب الرئيس أو الشيخ) ينشر مذهبه بالسيف ، وهو عندما يود الهجوم على منطقة من مناطق الكافرين (المشركين) يحذرهم ثلاث مرات ، ويدعوهم إلى الدخول فى الدين الصحيح ، وبعد التحذير الثالث يعلن أن وقت العفو والسماح قد مر وانتهى . ثم يسمح بعد ذلك لقواته أن تقتل وتسلب حسبما ترى. وعندما استولى الوهابى على بلدة مسجد على ذبحت قواته السكان كلهم. والبلد الذى يغزوه الوهابى ينعم بالهدوء الكامل فى ظل حكمه. الطرق فى نجد وفى الحجاز آمنة ، والناس لا يقع عليهم أى نوع من أنواع القهر أو الضغط . المسلمون يجبرون على اتباع مذهبه ، ولكن اليهود والمسيحيين لا يجرى التحرش بهم فى ممارستهم لشرائع أسلافهم ، شريطة أن يدفعوا الجزية. وعندما سئل شيخ وهابى عن أسباب إزهاق أرواح الأتراك الأبرياء والمسيحيين واليهود أثناء اقتحام أية مدينة من المدن أجاب قائلاً " إذا أردت طحن كومة من القمح وأنت تعرف أن فيها قلة قليلة من حبات البازلاء المختلطة بها، فهل يمنعك ذلك من طحن الكومة كلها ، بدلا من مشقة التقاط هذه الحبات القليلة الواحدة بعد الأخرى ؟ "

مسألة دفع الجزية (التى يقولون لها " الزكاوة " أو " الزكاة ") تعد مبدأً أساسيًا من مبادئ المذهب الوهابى ، وهذه الزكاة يدفعها الأتباع للوهابى . فى فصل الشتاء يغادر جباة الزكاة الدرعية ، وينتشرون فى سائر أنحاء المناطق الوهابية ، ويحصِّلون

هذه الزكاة بصرامة بالغة ، ثم يعودون إلى رئيسهم بأحمال من الذهب والفضة . والعنيز يدفعون كل عام مبلغ دولار إسبانى واحد عن كل خمسة من الإبل ، كما يدفعون عن كل أربعين رأسا من الغنم أو الماعز ثمن رأس واحدة ، كما يدفعون عن كل حصان أو فرس دناب واحد (حوالى سبع شلنات). وأنا لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن مقدار الزكاة يتباين تباينًا قليلاً فى مختلف مناطق الجزيرة العربية، والزكاة تدفع نقداً.

ظل الرئيس (الشيخ) فترة من الوقت لا يقبل إلا الدولار الإسبانى ، ولكنه حالياً يقبل العملة التركية المعدنية. وابن سعود يتصرف فى ممتلكاته الأراضى وحدائق النخيل المملوكة له شخصيا ، بالشروط نفسها التى كانت أساسًا لنشوء النظام الإقطاعى فى أوروبا . مستأجرو هذه الأراضى وهذه البساتين لا يدفعون عنها إيجاراً سنويا ، لكنهم يحتفظون بهذه الأراضى باعتبارها أتعابا لهم نظير اضطرارهم إلى الاحتفاظ بعدد من الجمَّالة المسلحين فى حالة استعداد دائم للقتال . وابن سعود عندما يعزم القيام بحملة (غزو) من الحملات يأمر أولئك المستأْجَرين بالحضور للقائه ، أو لقاء رجاله فى مكان ما بالقرب من المنطقة التى يود غزوها. وينفذ هؤلاء المستأجرون الأوامر الصادرة لهم، إما على شكل جماعات صغيرة أو منفردين ، ويذهبون إلى المكان المحدد . هذا الالتزام الشخصى بالحضور يسود فى أنحاء نجد كلها على حد علمى . هذا يعنى أن الرئيس (الشيخ) يطلب حضور رجل واحد من بين كل عشرة رجال ، سواء كانوا من الخيالة أو من الجمَّالة. ومع ذلك لا يسرى ذلك على العنيز الذين لم يحدث أن غزاهم ابن سعود مطلقًا ، لكنهم وافقوا عن طيب خاطر على دفع الزكاة .

مسألة الإبقاء على هذه الأمم المتوحشة (العنزيين) خاضعة خضوعًا تامًا تعد أمراً غير ممكن . هذه الأمم على استعداد دائم لرفع نير الإخضاع عنها ، هؤلاء هم عنيز الشمال لم يدفعوا الزكاة (الفدية) منذ سنوات عدة . يضاف إلى ذلك أن العنيز كلهم الذين التقيتُ بهم فى رحلتى خلال الصحراء كانوا متمردين ، ومع ذلك كانوا يبدون تفاهمًا شكليا مع الوهابى . امتنع شيوخ العنيز عن تدخين التبغ ، واعتنقوا المذهب الوهابى ، لكن عامة الناس لم تهتم بذلك المذهب الجديد ، وهم يغنون ويدخنون ، لكنهم دومًا يقرنون ذكر اسم ابن سعود بالتوقير والاحترام .

الزواج والطلاق

تعد مسألة تعدد الزوجات من منظور القانون التركى امتيازا من امتيازات البدو ، لكن السواد الأعظم من البدو يكتفون بزوجة واحدة . قلة قليلة منهم هم الذين لهم أكثر من زوجة ، ولم ألتقِ بشخص أخبرنى عن بدوى أنه كانت له أربع زوجات فى خيمته فى آن .

وحفل الزواج بسيط للغاية بين العنيز ، فالرجل إذا ما أراد الزواج من فتاة فإنه يوفد أحد الأصدقاء إلى والدها ، وتبدأ المفاوضات بعد ذلك . ويجرى بعد ذلك الوقوف على رغبة الفتاة ، وإذا ما اتفقت رغبة الفتاة مع رغبة والدها – إذ من غير المقبول ، بل ويستحيل أن تتزوج الفتاة على غير رغبة منها – وإذا ما تقرر عقد القران يقول الصديق وهو ممسك بيد والد الفتاة " أنت تقر بأنك ستجعل من ابنتك زوجة لفلان؟ " وهنا يرد والد الفتاة بالإيجاب. وبعد تحديد يوم الزواج (وعادة ما يكون بعد خمسة أيام أو ستة من الخطبة التى يطلقون عليها اسم " الطلب " ، يحضر العريس وهو يحمل حملاً صغيراً على ذراعيه إلى خيمة والد الفتاة ، ويقوم بذبح الخروف أمام الشهود . وفور سقوط الدم على الأرض يكون احتفال الزواج قد انتهى واكتمل . وهنا يروح الشباب والشابات يتسلون بالطعام أو الغناء .

وعقب غروب الشمس مباشرة يأوى العريس إلى خيمة من الخيام ، يجرى نصبها له على مقربة من المخيم، ويحبس العريس نفسه فى تلك الخيمة انتظاراً لمجىء العروس. وهنا تروح العروس الخجول تجرى هاربة من خيمة صديقة إلى خيمة أخرى ، إلى أن يجرى الإمساك بها فى النهاية ، ويجرى اقتيادها فرحًا بواسطة قلة قليلة من النساء إلى الخيمة التى يحبس العريس نفسه فيها ، ويدخلونها عنوة إلى تلك الخيمة ثم ترحل النساء عن المكان بعد ذلك . ذلك الموقف الجديد على تلك العذراء الصغيرة من الطبيعى أن يجعلها تتعجب وتندهش ؛ وهذا يعد فى نظر الصديقات إشارة أو علامة كافية على الخجل العذرى ، والنساء هنا لا يطلبن مثل أمم الشرق ، أدلة غير محتشمة فى مثل هذه المناسبة ، لكن إذا ما تزوجت أرملة عنزية للمرة الثانية فلن يكون من اللائق أو المناسب أن تطلق مثل هذه التساؤلات .

وهناك بالقرب من الناصرة تعيش قبيلة عرب الرير ، التى يتفاهم الوالدان فيها حول مسألة زواج أبنائهم وبناتهم . وبعد تحديد الشروط يقوم والد العريس بتقديم هدية إلى والد العروس، وهى عبارة عن ورقة خضراء من نبات معين ، ويُشْهِد الحاضرين على تقديم الهدية .

العنيز يعدون طلب والد العروس للنقود ، أو بالأحرى ما يسمونه " حق البنت " عارا وفضيحة ، وذلك على الرغم من أن هذه العادة تكاد تكون عامة فى سوريا ، حيث يدفع التركى أو المسيحى أو اليهودى لزوجته مبلغًا يتناسب مع مكانة والدها . وعند أهل الشمال يتسلم والد الفتاة ذلك الذى يسمونه " الخَمْس " ، الذى يظل من ممتلكات الزوجة ، ويظل معها حتى بعد طلاقها . و" الخَمْس " هذا مصطلح يفهمه الناس هنا على أنه عبارة عن سجادة ، وخزام من الفضة ، وسلسلة عنق من الفضة ، وأساور من فضة ، وخُرْج جمل صوفى صناعة بغدادية . والعنزى يسمح له بتقديم الهدايا إلى من يحب ، وقبول الفتاة لمثل هذه الهدايا لا يعد عيبًا . وقد يقدم المحب هدايا أيضًا لوالد المحبوبة أو لأخيها؛ أملاً فى التأثير عليهم وكسبهم إلى جانبه . لكن ذلك لا يحدث بصورة دائمة ؛ إذ إن الاستمرار فى هذه العملية يعد عملا شائنا عند من يقبلون هذه الهديا .

سبق أن قلت إن العنيز لا يتزوجون مطلقًا من الصنَّاع ، أى من الحرفيين أو المهنيين ، كما أنهم لا يزوجون بناتهم للفلاحين أو سكان المدن ، لكن أهل الشمال أقل تمسكًا بمثل هذه العادات .

إذا ما توفرت للعربى بعد انتهاء مراسم الزفاف أسباب تجعله يشك فى عذرية العروسة فإنه لا يبادر على الفور إلى كشف عار هذه العروس ؛ مخافه أن يسىء إلى أسرتها ، ولكنه بعد يوم أو يومين يرفض زوجته مدعيًا – وهذا سبب كاف تمامًا – أنها لم تُرضِه أو ترُق له . وإذا ما توفرت للعربى أسباب واضحة ودلائل مؤكدة على خيانة زوجته فإنه يوجه إليها الاتهام أمام والدها أو أمام شقيقها ، وإذا ما ثبت الزنا ثبوتًا قاطعًا قام الوالد بنفسه أو الأخ بقتل الفتاة .

السواد الأعظم من العرب يرضون بزوجة واحدة ، لكنهم حتى فى هذا التفرد الزوجى يحدثون فيه بعض التعديلات ؛ بأن يلجأوا أحيانًا إلى التشكيل والتغيير والتبديل . والعرب فى أحيان كثيرة يبدلون زوجاتهم ، طبقًا للأعراف المؤسسة على القانون التركى الخاص بالطلاق، والذى أساء العرب استعماله بينهم . والسبب فى ذلك أن أىَّ واحدٍ من العرب، وبناء على أى هفوة بسيطة يترتب عليها عدم الرضا عن زوجته، فإنه ينفصل عنها بأن يقول لها ببساطة " أنت طالق "، وعندها يعطى الزوج هذه الزوجة ناقة ويعيدها إلى خيام أسرتها. وليس مطلوباً من الزوج أن يورد الأسباب، كما أن هذا الأمر لا يعد عيبًا ولا تحقيرًا للمرأة المطلقة ولا لأسرتها ، وترى الناس تلتمس لذلك الزوج الأعذار بأن تقول " هو لم يحبها "، بل وربما يتزوج الرجل فى اليوم نفسه من أنثى ثانية، لكن زوجته المطلقة يتعين عليها – على العكس من ذلك – الانتظار مدة أربعين يوما قبل الزواج من رجل آخر(*) ، وذلك من باب التأكد إن كانت قد حملت من الزوج السابق أو لا . حالات الطلاق شائعة بين العنيز ، إلى حد أن الطلاق يمكن أن يقع على المرأة الحامل أيضًا . يضاف إلى ذلك أن المرأة التى لا تنجب لزوجها أطفالاً عدة قد يتسبب ذلك فى طلاقها . والمرأة إذا طلقت وهى حامل فإنها تربى طفلها إلى أن يصبح قادرا على الجرى هنا وهناك ، وعندها يأخذه والده إلى خيمته . والرجل عندما يطلق امرأة كبيرة فى السن وربة عائلة يسمح لها فى بعض الأحيان بالعيش فى خيمته بين أطفاله ، ولكن من حقها العودة إلى خيام والديها . والمرأة التى تطلق ثلاث مرات أو أربع مرات قد تتحرر من أية وصمة فى شخصيتها . ولقد رأيت أعرابا يبلغ عمر الواحد منهم خمسة وأربعين عاما تزوج كل واحدٍ منهم حوالى خمسين زوجة . كل من يستطيع دفع ثمن الجمل يستطيع تطليق زوجاته وتغييرهن حسبما يشاء .

القانون يعطى الزوجة أيضًا حق الطلاق، والمرأة إذا لم تشعر بالسعادة فى خيمة زوجها فإنها قد تهرب وتلوذ بخيمة والدها أو أقرب أقاربها . وقد يقوم الزوج بإغرائها بالعودة عن طريق وعود بالملابس الجميلة، والأقراط التى تلبس فى الأذن، أو عن طريق

(*) حسب الشريعة المستمدة من القرآن لا يجوز للمطلقة أن تتزوج قبل مضى ثلاثة أشهر تقريبًا ، لقوله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ (٢٢٨) ﴾ (البقرة/ ٢٢٨) . (التحرير)

البسط والسجاجيد . لكنها إذا رفضت يصعب على الزوج أخذها أو إعادتها بالقوة ؛ نظراً لأن عائلتها سوف ترفض العنف. وكل ما فى الأمر يتمثل فى عودة الزوج عن يمين الطلاق (*) ، وهنا تعجز الزوجة عن الزواج مرة ثانية .

قد يُرشَى الزوج فى بعض الأحيان بهدية كبيرة من الإبل كى يوقع يمين الطلاق ، لكنه إذا أصر على موقفه ورفضه فإن الزوجة تمضى بقية حياتها فى حكم العزباء . والزوجة التى يهجرها زوجها بهذه الطريقة يطلقون عليها اسم "الطامحة"، وهناك أعداد كبيرة من هذه النساء، لكن على الجانب الآخر لا توجد بنات كبيرات السن بين العرب .

الشاب عندما يترك وراءه أرملة يتقدم أخوه للزواج منها فى معظم الأحيان ، والأعراف والتقاليد لا تضطره أو تضطرها إلى الإقدام على مثل هذا الزواج ، ولا يمكن لشقيق زوجها السابق أن يمنعها من الزواج من رجل آخر . لكن يندر أن ترفض الأرملة الزواج الذى يكون من هذا القبيل ؛ والسبب فى ذلك أن مثل هذا القران يحافظ على ثروة العائلة .

الرجل هنا له الحق المطلق فى أن يطلب يد ابنة عمه، وهو لا يرغم على الزواج منها، لكنها لا يمكن أن تصبح زوجة لرجل آخر دون موافقة منه. والشاب عندما يسمح لابنة عمه بالزواج من حبيبها، والزوج عندما يطلق زوجته الهاربة ، عادةً ما يقول بلغة البدو "كانت بابوجى وشلحتها"، بمعنى "كانت شبشباً فى قدمَىَّ ورميته كى أتخلص منه".(**)

وعند قبائل أهل الشمال إذا ما هرب عربى مع زوجة رجل آخر ، والتجأ الاثنان إلى حماية شخص ثالث يقوم ذلك الثالث بذبح شاة ، ويقوم بتزويج الاثنين . هذا الحال إذا ما حدث بين العنيز تعود الزوجة سالمة إلى بيت والديها وتنتظر الطلاق ، أى أن يقوم زوجها بتطليقها، ويكون حبيبها هو الآخر فى مأمن من الخطر الشخصى ؛ لأنه فى مثل هذا الحال يكون " دخيل " الأسرة التى يكون فى خيمتها .

(*) للرجوع عن الطلاق ضوابط يحدها نوع الطلاق والمدة التى يبقى فيها المطلقان منفصلين وتفاصيل أخرى لدى المتخصصين فى هذا الفرع من التشريع الإسلامى . (التحرير)

(**) راجع كتاب روث ، الفصل الرابع، صفحة ٧ – ٨ .

وسيلة الطلاق هذه هى التى تفك الروابط التى ينبغى أن تربط العائلات بعضها ببعض. والتغيير المستمر للزوجات يؤدى إلى إفشاء أسرار الوالدين والأطفال فى سائر أنحاء القبيلة ؛ وهنا تستثار الأحقاد بين الأقارب ، ويسهل أن يمتد تأثيرها إلى الأخلاق .

وعلى الرغم من ذلك يجب أن نسلم بأن العربى يقدر والديه تقديراً كبيراً ، وهو يحب أمه بصفة خاصة حبا جما ، ويصل الأمر إلى حد أن العربى يتشاجر مع والده من أجل أمه ، وقد يطرد الأب ابنه من خيمته بسبب تشبثه بقضية أمه .

الابن عندما يكبر يعطيه والده فرسًا فى أغلب الأحيان أو جملاً ؛ على أمل أن يجرب حظه فى عمليات الغزو . ونصيبه من الغزو يعد ملكًا شخصيا له ، ولا يمكن لوالده أن يأخذ منه . والابن المحبب يتلقى عند زواجه هدية فى شكل إبل أو نقود من والده ، لكن هذه ليست قاعدة عامة . وكثير من العرب يبدأون الزواج الاعتماد على بمجرد جمل واحد يستعمل فى إعاشة عائلة كبيرة . فى بعض الأحيان قد يسمح للابن بالعيش مع زوجته فى خيمة الأب . وفيما يتعلق بالابنة فهى لا تحصل على شىء من والدها عندما تتزوج . أما مسألة " الخَمْس " (سالفة الذكر) التى يقدمها العريس لوالد العروس عند أهل الشمال فإنه عادةً ما يقدمها الأب لابنته .

الحكم وإقامة العدل بين الناس

العرب أمة حرة ؛ حرية الأفراد واستقلالهم قد تصل إلى حد الفوضى . ومن واقع خبرة الأزمان التى لم يطرأ خلالها أى تغيير ولو طفيف على حالهم السياسى ، يبدو أن مؤسساتهم المدنية تناسب تمامًا عاداتهم وأسلوب حياتهم ، على الرغم من أنهم قد يبدون للوهلة الأولى كأنهم ليسوا مؤهلين لتأمين ذلك الهدف التشريعى العظيم ، ألا وهو حماية الضعيف من القوى .

كل قبيلة من القبائل العربية بها شيخ (رئيسها الكبير) ، وكل مخيم (نظراً لأن القبيلة قد تتكون من مخيمات متعددة) يرأسه شيخ من الشيوخ ، أو على الأقل يرأسه

واحد من العرب الذين يحظون بشيء من الاحترام والتقدير . لكن ذلك الشيخ ليست له سلطة حقيقية على أفراد القبيلة ؛ ومع ذلك قد يستطيع مثل هذا الشيخ عن طريق سماته الشخصية أن يكون له نفوذ كبير . أوامر مثل هذا الشيخ قد تقابل بالرفض والاحتقار ، لكن نصائحه يمكن أن يأخذها الناس بعين اعتبارهم، إذا ما كانوا ينظرون إلى مثل هذا الشيخ باعتباره صاحب حنكة ومهارة فى الشئون العامة والخاصة .

حكومة البدو الفعلية يمكن أن نقول عنها إنها تتمثل فى القوة المستقلة لمختلف العائلات ، التى تكون كثيراً من الجماعات المسلحة المستعدة دائمًا لمعاقبة العدوان والانتقام منه . إحداث نوع من التوازن بين هذه الجماعات والهيئات هو الذى يحافظ على السلم فى القبيلة ، وإذا ما حدث نزاع بين فردين من القبيلة ينهض الشيخ محاولاً تسوية ذلك الخلاف ، لكن إذا لم يقتنع أحدهما بنصيحة الشيخ فإن الشيخ لا يمكن أن يصر على الرضوخ لنصيحته . هذا يعنى أن العربى يمكن إقناعه بواسطة أهله وأقاربه ، وإذا ما فشلوا فى إقناعه تبدأ حرب بين العائلتين وبين جميع الأقارب على وجه الدقة . من هنا فإن البدوى يقول بحق إنه لا يعترف بأى سيد له سوى سيد الكون ؛ ومن هنا نجد أن أقوى أقوياء العنيز لايستطيع إنزال عقوبة مهما كانت تافهة بأفقر فقراء القبيلة، دون أن يخاطر باحتمال الثأر من الفرد ومن أقاربه. من هنا لا يمكن النظر إلى الشيوخ أو الأمراء – كما يحلو للبعض أن يسمون أنفسهم – باعتبارهم أمراء للصحراء ، ذلك اللقب الذى حاول بعض الرحالة إضفاءه عليهم من باب التعظيم والتضخيم . الامتياز المقصود لهؤلاء الشيوخ يتمثل فى قيادة قبيلتهم ضد العدو ، وفى التفاوض بشأن السلام والحرب ، وفى تحديد موقع التخييم والمخيمات ، وفى استقبال الغرباء أصحاب المكانة ... إلخ . بل إن هذه الامتيازات تكاد تكون محدودة جدا . هذا يعنى أن الشيخ لا يمكنه إعلان الحرب أو إبرام صلح وسلام دون الرجوع إلى كبار رجال القبيلة . وإذا ما أراد الشيخ فض المخيم فإن ذلك يحتم عليه استطلاع رأى أهله وناسه حول أمن الطرق وكفاية المرعى والماء فى المنطقة التى تتجه إليها أنظاره . وأوامر الشيخ لا تُطاع مطلقًا، لكن مثله يحتذى به بشكل عام ؛ ومن هنا نجد الشيخ ينصب خيامه ويحمِّل إبله دون رغبة منه فى أن يفعل الآخرون الشىء نفسه ، لكنهم

عندما يعرفون أن الشيخ شرع فى الرحيل فإن أعرابه يسارعون بالانضمام إليه . وقد يحدث أيضًا – عندما يخيم الشيخ فى مكان لا يروق أهله وناسه – أن يقوم العرب بنصب خيامهم بعيداً عن خيمة الشيخ بمسافة مسير نصف يوم ؛ وبذلك يتركونه ومن حوله قلة قليلة من أقرب أقاربه . وقد يترك الأعرابى فى بعض الأحيان مخيم أصدقائه – إما بسبب الجشع أو الاستياء من رفاقه – ويلتحق بمخيم آخر من مخيمات القبيلة .

شيخ القبيلة لا يحصل على دخل سنوى من قبيلته أو مخيمه ، وهو على العكس من ذلك يضطر إلى المحافظة على لقبه عن طريق الإنفاق الكبير، كما يضطر إلى زيادة نفوذه عن طريق السخاء الكبير أيضًا . ويتحتم على شيخ القبيلة معاملة الغرباء بأسلوب أفضل من أساليب بقية أفراد القبيلة ، ويتعين عليه أيضًا إعانة الفقراء ، ويوزع على أصدقائه كل الهدايا التى تصله أو يحصل عليها . أما الوسائل التى يعوض بها هذه النفقات فهى تتمثل فى الإتاوة التى يفرضها على القرى السورية ويحصلها منها، والتعويضات التى يحصل عليها من قافلة الحج المكية .

وشيخ القبيلة عندما يموت فإنه يخلفه أحد أبنائه ، أو قد يخلفه أخوه ، أو أى شخص آخر من أقاربه المشهود لهم بالشجاعة والكرم ، لكن هذه ليست قاعدة عامة . وإذا ما كان هناك عربى آخر من أعراب القبيلة تتوفر فيه هذه الصفات إلى حد كبير فقد يقع عليه الاختيار . هذا يعنى أن القبيلة قد تنقسم فى أغلب الأحيان ، بمعنى أنه تكون هناك جماعة فى صف عائلة الشيخ المتوفى ، فى حين تقوم الجماعة الأخرى باختيار شخص جديد . وبالإمكان عزل شيخ من الشيوخ وهو على قيد الحياة ، واختيار آخر يكون أكثر منه كرمًا وسخاء .

والشكل الاحتفالى الوحيد الذى يصاحب عملية اختيار الشيخ يتمثل فى إعلانه بأنه من الآن فصاعداً سيكون شيخًا للقبيلة . والذين يقومون من بين العنيز بتنفيذ أعمال الباشا فى كل من دمشق وبغداد هم شيوخ القبائل . والأرباح التى تعود على هؤلاء الشيوخ من العلاقات التى من هذا القبيل تكون أكبر بكثير من تلك التى يحصلون عليها عن طريق الغزو والسلب والنهب . وإذا ماسمح وكيل (عميل) الباشا لأصدقائه بمشاركته فى أرباحه فذلك يعنى تأكده من تعيينهم إياه شيخًا للقبيلة .

فى أحوال التقاضى لا تكون للشيخ قوة أو سلطه تنفيذ الحكم ، وهذا يعنى أن طرفى التقاضى قد يتفقان على التمسك والالتزام بقرار الشيخ، أو يختاران حكمًا آخر ، لكنهما لا يمكن - تحت أى سبب من الأسباب - إجبارهما على الخضوع لقرار الشيخ، وهنا يمكن رفع دعوى أمام القاضى . قاضى العرب هذا الذى أتى المؤرخون العرب على ذكره مرارًا لم يعد موجودًا الآن ، سوى قلة قليلة بين بدو الصحراء . ولِد على مثلاً لديهم ثلاثة من هذه النوعية من القضاة ، ولدى الروالة قاض واحد ، ولدى البشر أيضًا قاض واحد. هؤلاء القضاه أناس يتميزون بأحكامهم الصائبة، وحبهم للعدالة ، وخبرتهم فى عادات وتقاليد وقوانين الأمم. هؤلاء القضاه لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، ويستعينون بالذاكرة مرشدة لهم فى القضايا التى ترفع أمامهم . والقاضى من هذا النوع يطلق عليه العرب اسم قاضى الفراع، بمعنى قاضى القوانين العرفية ، "وهذا على العكس من قاضى الشريعة بمعنى قاضى القانون المدوَّن ، الذى يمكن العثور عليه فى المدن والبلدان التركية . والقضاه لا يُميَّزون عن رفاقهم من البدو الرحل بلباسهم ، ولا بأى أسلوب آخر من أساليب المعيشة . منصب القاضى يتواصل فى الأسرة نفسها، واختيار قاضٍ جديد يعتمد على الآراء الطيبة التى يبديها القضاة الآخرون من القبائل العربية الصديقة ، كما يعتمد أيضًا على آراء أهل القبيلة نفسها . والاختبارات التى من هذا القبيل لا يكون للشيوخ دخل أو نفوذ فيها ، والمبالغ التى تدفع للقاضى فى القضايا مبالغ كبيرة جدا ، وعندما يكون النزاع على حصان أو فرس فإن الاتعاب تصل إلى بَكْرة ، أو إن شئت فقل ناقة صغيرة السن . وإذا ما كان الطرفان يتنازعان جملاً تقاضى القاضى "ذهبًا" واحدًا (أى: ما يعادل سبع شلنات)، وإذا ما كان النزاع على مبلغ من المال تصل أتعاب القاضى إلى خمسة وعشرين فى المئة من هذا المبلغ. وهذه الأتعاب يدفعها دومًا الطرف الذى يكسب القضية ، أما الخاسر فلا يدفع شيئًا .

إذا ما ظهر أن قضية من القضايا المعروضة تنطوى على مصاعب يتعذر على حكمة البشر التغلب عليها (كما هو الحال عند وجود شهود نفى وإثبات على القدر نفسه من المصداقية) فإن القاضى يحيل القضية محل التقاضى وطرفيها إلى "المبشع"،

الذى يخضع الطرفين للمحاكمة بالتعذيب (*) . وهذه الطريقة من طرق المحاكمة شبيهه بتلك التى كانت مستخدمة فى أوروبا فى العصور المظلمة ، أو إن شئت فقل عصور الظلام أو العصور الوسيطة.

كل قبيلة من قبائل العنيز الرئيسية لها قاضيها الخاص ، وهذا القاضى الخاص يطلق عليه اسم "المبشع"، ومحكمته هى التى تبت فى القضايا المعقدة كلها. وإذا فشلت محاولات هذا القاضى فى عقد صلح بين المتنازعين فإنه يأمر بإشعال نار أمامه ، ثم يتناول بعد ذلك ملعقة طويلة مصنوعة من الحديد (يستخدمها العرب فى تحميص البن)، وبعد أن تحمى هذه الملعقة فى النار إلى درجة الاحمرار يخرجها من النار ، ويلحس المتهم بلسانه الطرف العلوى منها من الجانبين ، ثم يعيد الملعقة مرة ثانية إلى النار . ويؤمر المتهم بغسل فمه أولاً بالماء ، ثم يقوم بعد ذلك بلحس الملعقة مثلما فعل القاضى. وإذا نجا المتهم بلا أذى من هذه العملية فإنه يُعد بريئًا ؛ وأما إذا تألم من الملعقة الساخنة فإنه يخسر قضيته . والعرب يعزون ذلك الهروب العجيب ، لا إلى الحامى الأعظم (جل جلاله) للبراءة ، وإنما إلى الشيطان .

يقال: إن أشخاصًا لحسوا هذه الملعقة الساخنة (التى يسمونها " البشعة ") أكثر من عشرين مرة دون أن يصابوا بأذى . وهذا "المبشع" يتقاضى مبلغ أربعين قرشًا ، أو ناقة عمرها عامين على سبيل الأتعاب المحددة له . وإذا ما اتهم إنسان بقتل إنسان آخر وأنكر ذلك ، أو إذا ما ارتكب إنسان عملاً يدخل – حسب المنظور العربى – ضمن إهدار أو سفك الدماء – فإن ذلك يحتم رفع قضيــة أمام "المبشع". فى مثل هذا الحال لا يعتد بشهادة الشهود حتى وإن كثرت، ولا يستطيع القاضى البت فيها، لكن فى حالة إنكار المتهم لا يكون أمام المدعى سوى اللجوء إلى محكمة " المبشع " .

والعربى إذا لم يكن راضيًا عن حكم القاضى فإنه يحق له اللجوء إلى قاضٍ آخر، أو إلى قضاة عدة، ولكن هؤلاء القضاه يؤيدون ما ذهب إليه القاضى الأول. وإذا ما أحس

(*) المحاكمة بالتعذيب وسيلة بدائية كانت تصطنع لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئًا أو مجرمًا، وذلك بإخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم. وكان الناس يحسبونها خاضعة لسيطرة قوى خارقة للطبيعة . (المترجم)

المدعى أنه لا يزال مظلوماً، وذلك على الرغم من قرار القاضى وقرار المحاكمة بالتعذيب، فمن حقه رفض الانصياع للحكم ، والسبب فى ذلك أنه لا توجد قوة قانونية تقوم بتنفيذ الحكم . فى الأحوال التى من هذا القبيل يحاول أقارب المدعى إقناعه بالتوصل إلى تسوية أو إلى وفاق ، لكنه إذا استمر على عناده فإنهم يتحتم عليهم عدم التخلى عنه ؛ مخافة أن يهدر دم أحد منهم ، وبالتالى يتحتم الثأر منهم ، على الرغم من عدم مشاركتهم فى ذلك القتل .

أنواع العقاب البدنى غير معروفة بين العرب . أحكام الشيوخ ، وحكم الفصل فى النزاع ، وكذلك أحكام القاضى والمبشع المؤسسة على استعمال قديم الأزل ، كلها تنطوى على غرامات مالية ، بغض النظر عن طبيعة الجريمة أيًا كانت . هذا يعنى أن كل جريمة أو مخالفة لها غرامة محددة معروفة للبلاط أو المحكمة المحيطة بالقاضى . يضاف إلى ذلك أن طبيعة ومقدار هذه الغرامات معلوم لدى العرب ، والخوف من توقيع هذه الغرامات هو الذى يحفظ النظام والهدوء فى القبيلة .

كل أقوال الشتم والسب (*) وأعمال العنف كلها ، والكلمة حتى وإن صغرت ، (والكلمة قد تختلف درجتها باختلاف المكان أو الجزء الذى تصوَّب إليه) ، وكذلك الجروح ومقدار الدم الذى ينزف منها ، حتى ولو كان نقطة واحدة ، كل هذه الأمور لها غراماتها المحددة . ويجرى حكم القاضى فى بعض الأحيان على النحو التالى :

بخيت سب جولان بأنه " كلب ". رد جولان على السب بلكمة واحدة إلى ذراع بخيت ، ثم قام بخيت بجرح جولان فى كتفه باستعمال سكين. وبذلك يكون بخيت مدينا لجولان بما يلى :

غرامة عن السب مقدارها غنمة (خروف) واحدة .

غرامة الجرح الذى أصاب الكتف ومقدارها ثلاثة من الإبل .

(*) السب الذى من قبيل " مطرد على ضيفك " بمعنى أنك تسىء معاملة الضيف ، أو " أنت عبد " ، أو " أنت جعرى " بمعنى " أنت كلب " ، أو " أنت حتيمى " ، يصح فيه أيضًا " حطيمى " ، والحطيم : قبيلة من قبائل عرب الكبلى ليس لها قدر أو قيمة عالية ، أو " أنا عرفتك " ، أو " أنت أبرص " .

أما جولان فيصبح مديناً لبخيت بما يلى :

غرامة اللكمة على الكتف ومقدارها جملٌ واحدٌ .

وبذلك يستحق جولان جملين وخروفًا من بخيت .

ومن بين الغرامات التى يدفعها العرب عن بعض الجرائم والاعتداءات ، تلك الغرامة التى تدفع إذا ما قتل أحد كلبًا من كلاب الحراسة ، هذه الغرامة شهيرة جدا ويطلق البدو عليها اسم "حق الجعرى". ويجرى الإمساك بالكلب الميت من ذيله ، على نحو يجعل فم الكلب يلامس الأرض ، ويجرى عندئذ قياس طول الكلب ، ويجرى بعد ذلك غرس عصا (بطول الكلب) فى الأرض . ويطلب من قاتل الكلب ، بل يُجَبرُ على أن يسكب على العصا قمحًا إلى أن يغطى القمح العصا تمامًا؛ وهنا تصبح هذه الغرامة ملكًا لصاحب الكلب القتيل . وقد بلغنى أن قاضى إسطنبول يفرض الغرامة نفسها إذا لم يكن الكلب قد قتل دفاعًا عن النفس .

العربى عندما يريد شهوداً على عمل من الأعمال بينه وبين شخص آخر ، يقوم بالمناداة على الحاضرين متعجباً ، وهو يقول : اشهد يا فلان . ويكفى أن يلمس أذرعهم بيده ، وهذا بحد ذاته يعد دعوة للإدلاء بالشهادة . و إذا لم يراعِ الشاكى أيا من هذين الأمرين ، وإذا ما أسفر الأمر عن رفع قضية أمام القضاء ، فإن القاضى فى مثل هذا الحال يعجل بتحديد نوعية الشهود إن كانوا حاضرين (أى موجودين فى المكان عرضًا)، أو شاهدين (أى ناظرين معاينة فعلية حقيقية) . وإذا لم يظهر سوى الشهود الحاضرين أصبح من حق الطرف الآخر رفض شهادة هؤلاء الشهود . وقد يصر الشهود الحاضرون على أن المتنازعين هما والقاضى يتعين عليهم الحضور إلى خيامهم لأخذ شهادتهم ، فى حين تحتم الأعراف على الشهود الفعليين أو الحقيقيين (الذين رأينا فيهم الشكلين السالفين) الحضور بأنفسهم أمام القاضى ، على الرغم من أن القاضى قد يكون مخيمًا فى مكان يبعد مسافة مسير أيام عدة . وإذا عجز الشاهد بسبب المرض عن القيام بمثل هذه الرحلة قام شيخه بأخذ شهادته ، على أن يقوم بتوصيلها للقاضى شفاهة أو مكتوبة ، مراعيًا فى ذلك أن يكون هو نفسه شاهداً على

مرض ذلك الشاهد. والعرب يطلقون أيضًا على الشهود الحاضرين اسم: "أولاد حلال" أو "أولاد الخير" ، أو قد يقولون لهم "الخير محضر". وفى حال وجود الشهود يصدر القاضى حكمه على الفور ، وفى حال عدم وجود الشهود يطلب القاضى من المتهم أن يحلف يمينًا على براءته ، وإذا ما حلف المتهم ذلك اليمين اعتُبر بريئًا ومطلق السراح . واليمين لا يُطلب مطلقًا من الشاكى أو المدعى، وإنما يطلب اليمين من المشكو فى حقه ، أو إن شئت فقل المتهم . ويكون اليمين طبقًا للمقولة التالية : "ما يسير يحلف ويأكل" . بمعنى "لايصح أن يحلف ويأكل". وفى ضوء هذه المقولة أو القاعدة نفسها لا يطلب المبشع مطلقًا من المدعى الذى يطالب بدية قريب من الأقارب ، لحس الملعقة الحارة ، وإنما يترك ميزة المحاكمة بالتعذيب هذه للمتهم نفسه .

لدى العرب أيمان متعددة ، وكلها أيمان قضائية يجرى استعمالها بين بينهم ، وهذه الأيمان تتميز بدرجات متفاوته من القداسه والحرمة . ومن أشهر الأيمان فى حياة العرب المنزلية أن يمسك العربى بالوسط ، أو إن شئت فقل عمود الخيمة الأوسط ، ويحلف قائلاً : " وحياة هد (*) وأصحاب البيت كذا وكذا " ، بمعنى " وحياة هذه الخيمة وأصحاب هذه الخيمة كذا وكذا".

هناك يمين مغلَّظة أخرى تؤدَّى أمام القاضى يطلقون عليها اسم " يمين العود " . وللتأكد من صدق شخص ما يجرى تناول قطعة من الخشب (أو شىء من القش) من فوق الأرض تقدم لذلك الشخص ، وتوجه إليه الكلمات التالية : " خُذ العود واحلف بالله وحياة من خضَّره ويبَّسهُ ". بمعنى " تناول هذا العود واحلف بالله الذى جعله أخضر وجعله يابسًا ".

هناك يمين مغلظة أخرى يطلقون عليه اسم " يمين الخط " وهذه اليمين لا تؤدَّى إلا فى ظروف مهمة . وإذا اتهم بدوى جاره بسرقة كبيرة ، ولم يستطع إثبات ذلك عن طريق الشهود فإن المدعى يصحب المدعى عليه إلى شيخ القبيلة ويطلب إليه حلف اليمين المطلوبة لبراءته . وإذا التزم بذلك الطلب عن طيب خاطر فإن المدعى يقتاده إلى مسافة غير بعيدة عن المخيم؛ مخافة أن تؤثر تلك اليمين المؤذية على العرب بشكل عام

(*) المعروف أن البدو يستعملون " هد " للدلالة على اسم الإشارة "هذا ".

إذا ما جرى حلف اليمين بالقرب من ديارهم . وهنا يقوم المدعى باستخدام سكينه المعقوف برسم دائرة كبيرة على الرمل ، ويرسم فيها كثيراً من الخطوط المتقاطعة ، ويجبر المدعى المتهم على وضع قدمه اليمنى داخل الدائرة ، على أن يفعل هو الشىء نفسه أيضًا ، ويروح يخاطب المتهم طالبًا منه ترديد ما يلى :

" والله ، وتالله ، وبالله إنى ما أخذته وما هو عندى ". بمعنى : أنا أقسم والله ، وتالله ، وبالله أنى لم آخذه وليس عندى " .

بعض الناس يدخلون هذه الدائرة بالقدمين. ويقال إن محمدا ﷺ أفاد من هذه اليمين ذات مرة ، وإن الحلف بها كذبًا يجعل العربى محطًا للعار والخزى طوال حياته. ولإضفاء نوع من القدسية على هذه اليمين يجرى وضع شملة (كيس حماية ضرع الناقة) ومعها نملة داخل هذه الدائرة؛ مما يوضح ويشير إلى أن المتهم يقسم على أمل ألا يحرم مطلقًا من ضرع الناقة ، وأنه لن يمر مطلقًا بخبرة زمن يكون فيه بحاجة إلى مئونة نملة واحدة من مئونة الشتاء. وهذه ما يطلقون عليها اسم "يمين الشملة والنملة".

هناك أيضًا عرف آخر من أعراف العرب المهمة ، وينبغى أن نأتى هنا على ذكره؛ نظرًا لأن هذا العرف يساهم فى المحافظة على السلم والهدوء بين جماهير الجنود المشاغبين الذين لا يعترفون بأى قانون سوى قانون الأقوى . هذا العرف هو ما يسميه العرب " عرف الوصى " ؛ فالعربى إذا ما رغب فى توفير الأمن لأسرته بعد مماته ، قد يطلب (وهو فى ريعان حياته) من أحد أصدقائه ، ويلتمس إليه أن يكون وصيًا على أبنائه. والاحتفال الذى يعقد لهذه المناسبة هو أن يظهر هذا الشخص بنفسه وهو يقتاد ناقة أمام صديقه، ثم يقوم بعد ذلك بربط طرف من أطراف كُوفِيَّة أو (غترة) صديقه على شكل عقدة ، ويقتاد الناقة بعد ذلك ناحية صديقه وهو يقول له: " أنا أنصِّبك وصيًا على أولادى ، وأنصب أبناءك أوصياء على أبنائى ، وأحفادك على أحفادى ".

وإذا قبل الصديق الناقة (ونادرًا ما يرفضها) يصبح الرجل هو وعائلته تحت حماية خلف وأحفاد ذلك الرجل . هذا يعنى أن التزام الوصى ومطالب الداخل

فى الحماية تمتد بنفس القدر إلى ورثتهم طبقا للعرف السائد . هذا يعنى أيضًا أن "س" من الناس عندما يجعل "ص" من الناس وصيًا على أبنائه ، فذلك يعنى بالضرورة أن أبناء "ص" سيكونون أوصياء على أحفاد "س" ذلك من الناس ... إلخ . لكن أحفاد أحفاد "س" لا يكون من حقهم الحصول على الحماية المباشرة من أحفاد "ص" من الناس .

كل عربى تقريبا له وصىٌّ فى أسرة أو أخرى ، وهو بدوره يكون وصيًا على أسرة ثالثة ، وحق أكبر الشيوخ لا يكون بدون وصى . والموصَى عليه يتقدم إلى الوصىِّ كلما أحس بالإهانة والغضب ، وهنا نجد أن أسرة الوصىِّ كلها تتعاون معه فى رفع الظلم الواقع على الموصَى عليه . نظام الوصاية هذا يفيد الصعاليك الصغار والنساء ، ويفيد أيضًا كبار السن من الرجال الذين يضطرون إلى مقاومة مطالب أبنائهم . من هنا يبدو أن العرب يشكلون داخل عائلاتهم ومع عائلات أوصيائهم جماعات أو هيئات مسلحة ، تعمل على حفظ الهدوء والسلم فى القبيلة جراء خوف هذه الهيئات أو الجماعات بعضها من بعض . وربما كان هذا العرف وحده هو القادر على حماية أمة على هذا القدر من الشراسة والوحشية ، من الدمار والاضمحلال ، بسبب التمردات الداخلية .

"طقس" ربط عقدة فى طرف كُوفيَّة الوصىِّ يجرى الإقدام عليه بحثا عن شهود لإثبات هذا العمل . هذا العرف يتبع أيضًا عندما يتعين الشهود على أية معاملة من المعاملات. الناقة المقدمة للموصَى ، والتى يطلق العرب عليها اسم "حجة" يتعين أن يكون عمرها أربع سنوات ، والوصىُّ يقبل من الفقير "عباة" (عباءة) بدلا من الناقة .

قوانين المواريث عند العرب هى القوانين الواردة فى القرآن، والثروة يجرى توزيعها بالتساوى بين الذكور . وإذا ترك الوالد عند وفاته أبناءً قصَّرًا فإن أقرب أقارب المتوفى يكون وصيًا على هؤلاء الأبناء . وإذا ما قُوِّضت خيمة الوالد فإن ذلك الراعى يُؤْوِى هؤلاء القصَّر فى خيمته ، ويصبح وصيًا على ممتلكاتهم . وهنا تعرف القبيلة كلها ، من خلال عدد الاغنام والإبل ، مقدار ممتلكات المتوفى . هذا يعنى أن

القاصر لا يمكن استغلاله أو الضحك عليه. كما يعنى أيضًا أن الأرباح التى تدرها هذه الممتلكات تكون لكسوة الأبناء وأشياء أخرى . والابن يتولى هذه الممتلكات عندما يبلغ الرشد ويصبح قادرا على معرفة قيمتها ، أى عندما يبلغ الصبى سن الثانية عشرة . وقبل هذه السن يكون من حق أقرب الأقارب إلى الابن أن تكون له سلطة ونفوذ على ذلك الصبى ، لكن فى حال استخدام هذه الممتلكات على نحو يعرض القاصر للخطر يجرى إبلاغ الوصىٍّ بذلك . وإذا ما أقام دائنو المتوفى دعاوى على الوارث ، وكان الدين على شكل ماشية ، فإنه يجرى سداد هذا الدين من الماشية أيضًا إلى الدائن المحدَّد . أما إذا كان الدين عبارة عن سلع أو بضاعة أو تجارة فإن الدائن يحصل على القيمة الحقيقية للبضاعة بالسعر الجارى فى يوم السداد ، وبدون أية أرباح .

العمليات الحربية وطلعات السلب والنهب (الغزو) عند البدو

تعد القبائل العربية فى أقصى حالات الحرب المستمرة مع بعضها البعض ، ويندر أن تتمتع أية قبيلة بلحظة من لحظات السلام التام مع جيرانها ، ويندر بين قبيلتين أن يستمر السلم فترة طويلة ؛ هذا يعنى أن السلم يمكن تحقيقه ، لكنه مع ذلك يسهل كسره لأوهى الأسباب . العمليات الحربية العربية هى عمليات طائفية ، معنى ذلك أن العرب يندر أن يدخلوا فى معارك عامة، كما يعنى أيضًا أن الهدف الرئيسى للطرفين هو مداهمة العدو وتخريب المخيم وسلبه ونهبه . وهذا هو السبب فى أن حروب العرب تخلو من الدماء ؛ وتعليل ذلك أن العدو يجرى الهجوم عليه بأعداد كبيرة ، ولذلك فهو يستسلم دون قتال، على أمل الثأر من مخيم ضعيف من مخيمات الخصم . يضاف إلى ذلك أن الآثار غير المرغوبة للثأر هى التى تحول دون وقوع الصراعات الدموية . من هنا نجد أن الحرب التى قد تنشب بين قبيلتين وتمتد عامًا كاملاً قد لا يزيد عدد الخسائر فيها عن ثلاثين رجلاً أو أربعين من كل جانب من الجانبين . ومع ذلك نجد أن العرب يكشفون فى بعض الأحيان عن صلابة وصمود وشجاعة عظيمة ، لكنهم عندما

يحاربون لمجرد السلب والنهب فإنهم يتصرفون تصرف الجبناء . وأنا أستطيع أن أورد أمثلة كثيرة عن رجال القوافل والفلاحين الذين استطاعوا أن يجعلوا عددا يصل إلى ثلاثة أضعاف عددهم يولون الأدبار ويلوذون بالفرار بعد أن جاءوا أصلاً للهجوم عليهم؛ من هنا أصبح الناس فى كل أنحاء سوريا يعرفون هؤلاء الأعراب على أنهم جبناء بائسين، إضافة إلى أن اشتباكاتهم مع الفلاحين تؤكد ذلك ، لكن العربى إذا واجه عدوا وطنيا فى معركة مفتوحة ، وإذا وجد أن اسم قبيلته وشرفها يتهددهما الخطر فإنه يكشف عن شجاعة بطولية . ونحن ما زلنا نشاهد بين العرب محاربين ذائعى الصيت فى سائر أنحاء الصحراء ، يضاف إلى ذلك أن أعمال الشجاعة التى تعزى إلى هؤلاء المحاربين قد تبدو أسطورية إذا لم نتذكر أن أسلحة العرب تفسح المجال واسعًا أمام التعبير عن الشجاعة الشخصية .

إن الخصائص الفائقة للحصان فى العمليات القتالية غير النظامية ، تعطى الخيَّال مزايا لا تحصى ولا تعد على خصمه أو عدوه . من هنا فنحن نقرأ فى سيرة عنترة أن ذلك العبد الشجاع عندما يمتطى صهوة فرسه الجبارة فإنه يستطيع أن يقتل بحربته فى معركة واحدة ثمانمائة رجل . وأيا كان الرقم الوارد فى هذه العبارة ، أجدنى هنا آتى على ذكر اسم بطل حديث جرى الثناء عليه فى مئات القصائد ، والذى حكى لى عن جولاته بالسلاح كثير من شهود العيان ، جِدوة الشمسى بن غيَّان ، المعروف بأنه قتل ثلاثين عدوا من أعدائه فى معركة واحدة ، وهو يتباهى بنفسه أنه لم يحدث أن ولَّى الأدبار، وأن الغنائم التى حصل عليها كانت هائلة . ولكن أصدقاءه هم وحدهم الذين كانوا يستفيدون من ذلك ، لأنه هو نفسه أمضى حياته فقيرا . وضحَّى الرجل فى نهاية المطاف بحياته فداء لشجاعته عندما نشبت فى العام ١٧٩٠ الميلادى حرب بين قبيلة ابن فضل وقبيلة ابن إزمير ، فى الوقت ذاته كان العنيز ينضمون فيه إلى هذا الجانب أو ذاك. وبعد معارك جزئية كثيرة تقابل الشيخان بالقرب من مزريب ، ومع كل منهما حوالى خمسة آلاف خيَّال ، واشتبكا بالقرب من مزريب ، وهى بلدة صغيرة على طريق الحج ، وتبعد حوالى خمسين ميلا عن دمشق ، فى سهل الحوران ، وكان كل منهما مصمماً على الدخول فى معركة عامة تنهى الحرب. وجرى توزيع الجيشين على مرأى

من بعضهما البعض، وبدأت الحرب ببعض المبارزات الطفيفة، إلى أن اتخذ جِدوة (أو بالأحرى : جدوا ، كما يحلو للبدو أن يسمونه) القرار الحاسم والتضحية بحياته من أجل شرف قبيلته ومجدها . وركب جِدوة فرسه وتصدى لابن إزمير، الذى كان الشمسى يحاربون تحت لوائه ورايته، وخلع جِدوة درعه وملابسه ولم يبق عليه سوى القميص ، وراح يقترب من الشيخ ثم قام بتقبيل لحيته ، مشيرا بذلك إلى أنه كرّس أو وهب حياته له . ثم قام بعد ذلك بالتخلى عن صفوف أصدقائه ، وبدون أى سلاح سوى سيفه المعقوف ، وراح يحث فرسه غضبا ضد عدوه . ولما كانت شجاعة هذا الرجل معروفة جيدا للقوات كلها على الجانبين فقد راح الجميع ينتظرون فى قلق النتيجة المترتبة على ذلك . وسرعان ما فتحت قوة جيش جِدوة طريقا لنفسها بين صفوف الأعداء، واخترق الرجل الصفوف إلى أن وصل لبيقهم ، أو إن شئت فقل المركب الذى كان محمولا فى المنتصف ، وأسقط على الأرض الجمل الذى كان يحمل ذلك المركب ؛ وذلك بضرب وجهه إلى وركيه ، ثم استدار حول المركب ، ووصل بالفعل إلى المسافة التى بين الجيشين ، ولكنه قتل بطلقة وجهها إليه المتراس ، أو إن شئت فقل جندى من جنود المشاة(*)؛ وهنا اندفع أصدقاؤه الذين شاهدوا سقوط المركب ، وراحوا يهتفون ويصيحون ويكبرون وهم يهاجمون الأعداء وينزلون بهم هزيمة نكراء . وجرى فى هذه المعركة قتل ما يزيد على خمسمائة من جنود المشاة . والمركب عندما يسقط تعد المعركة خاسرة بالنسبة إلى من ينتمى إليهم .

سبق أن قلت إن أسلوب العمليات الحربية المعتاد يقوم على المباغتة والهجمات المفاجئة ، والعرب يحققون ذلك عن طريق التجهيز لتجديد حملة على العدو الذى تبعد خيامه مسير عشرة أيام أو عشرين يوما عن بلدهم أو مَنْزَلهم. والمعروف أن العنيز يخيمون فى كثير من الأحيان فى الحوران ، ويتحرشون بمناطق كاملة ، أو بجماعة من عرب الظافر فى المنطقة المجاورة لبغداد ، ويروحون يدمرون ويسطون على مخيمات العنيز

(*) المتراس أو بالأحرى جنود المشاة يتسلحون ببنادق فتيلية ، وهم يتوزعون فى المقدمة بين صفوف الخيالة ، ويضعون أمامهم أكواما من الحجارة لكى يضعوا بنادقهم عليها حتى يمكن لهم التصويب على الهدف تصويبا دقيقا .

القريبة من دمشق ، أو قد يسطون على بعض أفراد قبيلة بنى صخر فى جبل البلقاء؛ مستهدفين بذلك القيام بالسلب والنهب فى مقاطعة العراق الغربى . والعرب عندما يقررون القيام بغزو بعيد فإنه يتعين فى مثل هذا الحال على كل خيَّال أن يستخدم معه صديقًا يرافقه فى ذلك الغزو ، هذا الرفيق يطلق العرب عليه اسم "زمل" (*) ، ويجرى ركوبه على جمل صغير قوى . والخيَّال يقدم خُرج الإبل ، وكمية من الطعام ، وشيئًا من الماء . والخيال يركب خلف الزمل مخافة أن تصاب فرسه بالإرهاق قبل اللحظة الحاسمة ، والعرب يطلقون على هذه الساعة الحاسمة اسم " ساعة الكسب " . والغزو عندما يقترب من العدو يحدد رئيسه ثلاثة أماكن للتجمع . والعرب يطلقون على رئيس الغزو اسم "كبير الغزو" أو "عقير الغزو"، كما يطلقون على مكان التجمع اسم "ميعاد". والزماميل يتجمعون فى أماكن التجمع المحددة انتظارا للخيالة الذين يندفعون للأمام بغرض الهجوم. وهو أول مكان للتجمع، أو بالأحرى أول ميعاد، يكون على بعد مسافة لا تزيد على مسير نصف ساعة من مخيم العدو ، وتكون نقطة التجمع هذه فى وادٍ من الوديان أو خلف تل من التلال . وإذا لم تعد الجماعة فى الوقت المحدد ينتقل الزماميل مسرعين إلى نقطة التجمع الثانية وينتظرون فيها يومًا كاملا ؛ أملا فى مجىء أصدقائهم . ومن منطقة التجمع الثانية يتحركون إلى المنطقة الثالثة أو المحطة الثالثة إن صح التعبير ، ويبقون فيها ثلاثة أيام أو أربعة . هذا المكان يبعد مسير يوم واحد من هدف الهجوم ، ألا وهو مخيم العدو . وإذا لم يعد أى من رجالهم بعد انتهاء المدة المحددة فإنهم يعجلون بالعودة إلى ديارهم بأقصى سرعة ممكنة . وفى حال نجاح الحملة (الغزو) فى الاستيلاء على غنيمة من الغنائم يحصل الزمل على مكافأة عبارة عن ناقة ، على الرغم من أن صديقه قد لا يصل نصيبه من تلك الغنيمة إلا إلى مجرد جمل واحد ، لكن إذا ما جرى قتل الخيَّال عن طريق هزيمته فإن الزمل لا يحصل على أى نوع من التعويضات . وقد يحدث فى بعض الأحيان ، وبخاصة فى الحملات

(*) زمل : الرجلان اللذان يركبان جملاً واحداً يقال لهما " مردوف "، وهذا أمر شائع بين البدو. والعرب يطلقون على الجماعة المسلحة التى تركب إبلا اسم " رُكُب" ، والجماعة التى تركب خيولاً " خيالة ".

(الغزوات) البعيدة ، تدمير الخيَّالة كلهم والقضاء عليهم . وإذا ما جرى صد الخيالة وعزلهم عن الزماميل الذين يحملون معهم الغذاء والماء ، فذلك يعنى هلاك هؤلاء الخيالة فى ذلك السهل القاحل ، أو قد يستسلمون لتجريدهم مما معهم وسلبهم ونهبهم .

العدو الذى يأتى من مسافة بعيدة لمهاجمة (غزو) مخيم من المخيمات لا يشغل نفسه بالممتلكات التى قد تكون فى الخيام ، وإنما يركز على اقتياد الخيول والإبل . وعلى العكس من ذلك ، إذا كان مخيم العدو قريبًا فإن الغزاة يستولون على الخيام ، وكل ما يكون بداخلها . وفى مثل هذه الأحوال قد تنجح امرأة شجاعة فى استعادة جمل من إبل زوجها إذا ما راحت تجرى فى إثر العدو المنسحب ، وتروح تنادى على شيخ الغزو مستعطفة إياه وهى تقول " يا عقيد القوم ، أريد من الله ومنك الأكل نحن مقطوعين . " هذا يعنى " يا شيخ الغزو أنا أريد من الله ومنك الغذاء ! سنموت جوعًا ! " . وإذا ما استطاعت أن تواصل تعقب الغزاة فترة طويلة من الوقت ، يرى شيخ الغزو هنا أن من الشرف أن يعطيها جملا من نصيبه الذى سيحصل عليه من الغنيمة .

هذا الذى يستولى عليه العرب فى أى غزو يجرى تقسيمه على أفراد الغزو ، طبقا لما تم الاتفاق عليه من قبل . فى بعض الأحيان قد يقوم كل خيال من الخيالة بالسلب والنهب لحساب نفسه، وفى أحيان أخرى قد يحصل الخيالة على أنصبة متساوية . وفى الحالة الأولى نجد أن كل ما تلمسه حربة الخيال يكون ملكا له وحده ، هذا يعنى أنه عندما يصادف الخيالة قطيعًا من الإبل فإنه يسارع كل واحد منهم إلى لمس أكبر عدد ممكن من الإبل بحربته قبل أن يفعل الأخرون الشىء نفسه، وعندما يلمس جملاً يقول : " اشهدوا ... هذا لى .. انظروا هذا ملكى " . شيخ الغزو (الذى لا يكون دوما هو شيخ المخيم ، وإنما قد يكون رجلا محترما آخر من رجال القبيلة) عادة ما ينص أو يشترط على أن يكون له نصيب إضافى من الغنيمة ، بمعنى أن تكون الإبل الذكور كلها التى جرى الاستيلاء عليها ملكا له على سبيل المثال ، أو قد يشترط الحصول على عُشر الغنيمة إضافة إلى نصيبه منها . وإذا ما استولت جماعة كبيرة على غنيمة صغيرة

فإن رئيس الغزو ، أو إن شئت فقل شيخ الغزو ، يقوم عند عودته بتجميع الرجال والماشية التى جرى الاستيلاء عليها أمام خيمته ، ثم يقول لرفاقه الواحد بعد الآخر : "اذهب يا أنت وخُذ واحدة ، وأنت أيضًا اذهب وخُذ واحدة" ، وبعد أن يحصل الجميع على حصصهم ينطق الشيخ بكلمة " ماليها " (بمعنى أن هذه الماشية ليس لها أحد يأخذها) ، وبعد أن ينطق شيخ الغزو بهذه الكلمة يندفع أفراد الغزو كلهم ناحية الماشية المتبقية ، وأيا كانت الرأس التى يمسك بها المتدافعون ، فإنها تكون من نصيب شيخ الغزو وتصبح ملكا له .

العنيز لا يهجمون أثناء الليل ، لأنهم ينظرون إلى الهجوم الليلى على أنه " بوق " أو نوع من الخيانة والغدر ، من منطلق أن الهجوم الليلى قد يترتب عليه دخول الأقسام المخصصة للحريم ؛ الأمر الذى يشكل نوعًا من العنف ، والذى يترتب عليه حدوث مقاومة كبيرة من جانب رجال المخيم الذى جرى السطو عليه ، وعادة ما ينتهى بمذبحة عامة ، وهذا ظرف من الظروف التى يحاول العرب تجنبها بشتى الطرق . وهنا يتعين علينا الإشارة إلى استثناء واحد من هذه القاعدة ، وهو أن عرب الشمَّر لديهم عادة غريبة وهى قيامهم بالهجوم أثناء الليل على مخيم العدو ، إذا كان ذلك المخيم قريبا من مخيمهم . والشمَّر إذا ما استطاعوا الوصول إلى مخيم العدو دون أن يراهم أحد ، فإنهم يسارعون إلى إسقاط الأعمدة الرئيسية فى الخيام ، وبينما يروح أصحاب الخيام يخلصون أنفسهم من الخيام التى سقطت عليهم يقوم الغزاة باقتياد الماشية . وهذا النوع يسميه العرب " البيات " .

لكن الجنس اللطيف ، أو إن شئت فقل الحريم ، يحظى باحترام وتقدير شديدين حتى من أشد الأعداء شراسة ، فى حال الهجوم أو الغزو لأى مخيم من المخيمات . يزاد على ذلك أنه لا الرجال ولا النساء ولا حتى العبيد يمكن اتخاذهم أسرى ، وإذا ما حصل العرب بعد سلب مخيمهم ونهبه على عون ودعم ، أو إذا استطاعوا تجميع قواهم فإنهم يشرعون فى مطاردة العدو وملاحقته ، وما يستطيعون استرجاعه من الممتلكات المنهوبة يعود إلى صاحبه الأصلى .

يندر فى غزو مخيم من المخيمات أن يُقْتل أحد من الرجال ، ونظرا لأن المخيم يفاجأ بالهجوم ، فإن الدفاع يصبح عديم الجدوى فى مواجهة الأعداد الكبيرة من المهاجمين ، يزاد على ذلك أن العربى لا يقتل عدوا لا يقاومه ، اللهم إلا إذا كان ذلك من باب الثأر لقريب من الأقارب.

قد تفشل مداهمة مخيم من المخيمات بناء على معلومات سابقة يجرى الحصول عليها من أفراد أقاموا بين العدو ، أو من واحد من القبيلة المعادية يود إنقاذ صديق حميم له يقيم فى المخيم الذى تحدد الهجوم عليه . هؤلاء الذين يقدمون الإنذارات التى من هذا القبيل يسميهم العرب " نذير " .

العربى الذى تجرى مطاردته أو تعقبه من عودة إذا ما اكتشف إن قوة فرسه على وشك أن تخور فإنه قد ينقذ حياته بإلقاء نفسه من فوق الفرس ويطلب الحماية . والعرب يطلقون على عملية الإلقاء من فوق الفرس هذه كلمة " حوِّل ". على كل حال فإن اللجوء إلى مثل هذا العمل يعد عاراً عند العرب ، ولا يمكن اللجوء إليه إلا فى حال الضرورة القصوى ؛ وهنا يروح العدو يتباهى بعد ذلك بأن "س" من الناس قفز من فوق فرسه أثناء مطاردته له .

وعلى الرغم من إنقاذ الحياة فى مثل هذه الظروف فإن الرجل يخسر فرسه وملابسه كلها . والهارب إذا لم يستسلم عندما يقترب منه ذلك الذى يطارده ويناديه قائلا " حوِّل ! حوِّل ! "، بمعنى " انزل من فوق الفرس "، يصبح من حق المُطارِد قتل المُطارَد بطعنه من حربته .

يحدث فى بعض الأحيان أثناء الحرب التى تدور بين قبيلتين أن يكون لعربى من هاتين القبيلتين مسألة مالية أو مصلحة عمل مع رجل من القبيلة الأخرى ، وأن هذا العمل يتطلب لقاءه شخصيًا . فى مثل هذه الحالة يقوم مثل هذا الشخص بدعوة الشخصيات الكبيرة من قبيلته وكل أفراد العدو الذين يتصادف أقامتهم فى المخيم ، بدعوة إلى اجتماع فى خيمة شيخ القبيلة ، ثم يمسك بعد ذلك بحربة أو بصقر ، وينادى على الجماعة كلها لتشهد على أنه يود تقديم الحربة أو الصقر هدية لشيخ قبيلة العدو التى يود زيارتها . وعندما يصل إلى المخيم المعادى يقدم الهدية ، وهنا يسمح له بالبقاء

طالما استدعى عمله بقاءه هناك . وإذا ما أوقفوه عند عودته وجرده بعض الأعداء من ملابسه ، يقوم شيخ قبيلته بالاتصال بشيخ القبيلة الأخرى ، وتجرى استعادة الممتلكات التى جرى الاستيلاء عليها كاملة .

فى وقت الحرب قد يستعمل بعض كبار شيوخ العنيز ذلك الذى يمكن أن نسميه "بيرق المعركة" . هذا البيرق لا يجرى رفعه مطلقا إلا فى الأعمال الحاسمة والمهمة ، ذلك لأن فقدان هذا البيرق أو سقوطه يكون إشارة إلى الهزيمة ودليلاً عليها . هذا البيرق له نوعان : أحدهما يسمى " مركب " (بمعنى " سفينة ") ، ويكون مكونًا من حاملين من الخشب ، ارتفاع كل واحد منهما يصل إلى حوالى ستة أقدام أو سبعة . هذان الحاملان يوضعان الواحد مقابلاً للآخر على ظهر جمل، بحيث تكون المسافة بين الحاملين من الأعلى لا تزيد على شبر واحد، لكنهما من الأسفل يكونان منفصلين على نحو يسمح بجلوس شخص فيما بينهما على عدة (سرج) الجمل، ويتمكن من توجيه الجمل أيضًا ، والجزء العلوى من هذا البيرق تجرى تغطيته بريش نعام أسود اللون .

البيرق الثانى يسمونه "عتفة" ، وهذه العتفة تتكون من قطعتين جانبيتين من لوح بيضاوى الشكل ، ومربع يصل ارتفاعه إلى خمسة أقدام ، ويجرى تزيينه مثل البيرق السابق بريش النعام أيضًا . هذا البيرق يستخدمه حاليًا الشيخ الطيار شيخ ولِد على لكن ابن إزمير وابن فضل يستخدمان بيرقا من طراز " المركب " .

موجِّه الجمل الذى يحمل بيرقا من طراز المركب أو العتفة لا يكون من الرجال الكبار ، وإنما يكونا صبيًا ، أو امرأة كبيرة فى السن، أو عبدًا ؛ إذ يرى العرب أن غناء الرجل إما أنه يحط من قدره أو أنه لا يليق به. والعرب يطلقون على الصيحات الصادرة من حامل البيرق اسم " ظغاريط" (الزغاريد) ، والمقصود بها هو إشعال حماس أولئك الذين يرافقون البيرق إلى المعركة . والخيالة كلهم يتجمعون حول البيرق، وكل جهود الطرفين تكون متجهة صوب النيل من المركب أو العتفة المعادى . والبيرق الذى يتم الاستيلاء عليه يجرى حمله إلى الشيخ الظافر أو المنتصر ، علامة على الانتصار .

اتفاق السلام بين قبيلتين يجرى إبرامه بينهما تحت رعاية قبيلة ثالثة صديقة للطرفين. تتمثل أكثر الأسباب الداعية إلى الخلافات فى أماكن السقيا ومناطق المرعى ، لكن اتفاقات السلم يجرى إبرامها على الفور إذا كان أحد الطرفين راغباً فى ذلك . فى حال وجود خلافات أو نزاعات بين أسر القبيلة الواحدة فإنه تجرى تسوية تلك الخلافات أو المنازعات عن طريق أرباب الأسر الذين يقومون بعقد صلح بين الأطراف المتنازعة . وإذا أدرك الشيخ أن شعبه (ناسه) ليسوا راضين عن شروط السلم والمسالمة فإنه يقوم بإرسال مكتوب أو إخطار شفاهى للطرف الآخر ، مفاده أن العمليات الحربية سوف تستأنف . والبدو يقولون لتجدد العمليات الحربية "مردود النَّقا " ؛ إذ من المعروف أن البدو يستخدمون كلمة " النَّقا " بدلا من كلمة " الحرب " .

استهدافا لتجنب النتائج الخطيرة المترتبة على الثأر (الذى سنتناوله فيما بعد) الذى يطالب به أقارب المقتولين ، بما فى ذلك أولئك الذين قتلوا فى حرب معلنة ، يقوم الشيوخ بناء على موافقة أغلبية قومه ، أو أن شئت فقل أفراد القبيلة ، بإبرام صلح شريطة تسوية " الديات " على الجانبين ، أو الديون الخاصة (الناجمة عن أية أسباب أخرى غير " البواج " ، أو أن شئت فقل الخيانة ، التى سبقت الإشارة إليها) والمستحقة للجانبين . والعرب عندما يفعلون ذلك يقول الناس عنهم " الشيوخ احتلحوا أو حضروا ودفنوا " ، ومع ذلك فإن العرب لا يوافقون على شروط السلم هذه عن طيب خاطر .

لم يعد العنيز يراعون قداسة الشهور التى كان السلم فيها فى الماضى واجباً دينياً بين العرب جميعهم، وهم حاليا يهاجمون أعداءهم حتى فى شهر رمضان المبارك. وفى كل شهر من الشهور العربية هناك ثلاثة أيام لا يتحارب العنيز مطلقًا خلالها ؛ وهذه الأيام الثلاثة هى السادس ، والسادس عشر، ثم ليلة يوم الحادى والعشرين (*) .

(*) العرب يعبرون عن ذلك بقولهم "كفى الله شر الست ، مع ست العشر والواحد والعشرين، يكفيك الكدى" . كما أنَّ العنيز يمتنعون أيضًا عن القتال فى يوم الأربعاء ؛ جراء اعتقاد خرافى مفاده أنهم إن قاتلوا أو دخلوا حربا فى يوم الأربعاء فسوف يخسرون تلك المعركة .

الثـــأر

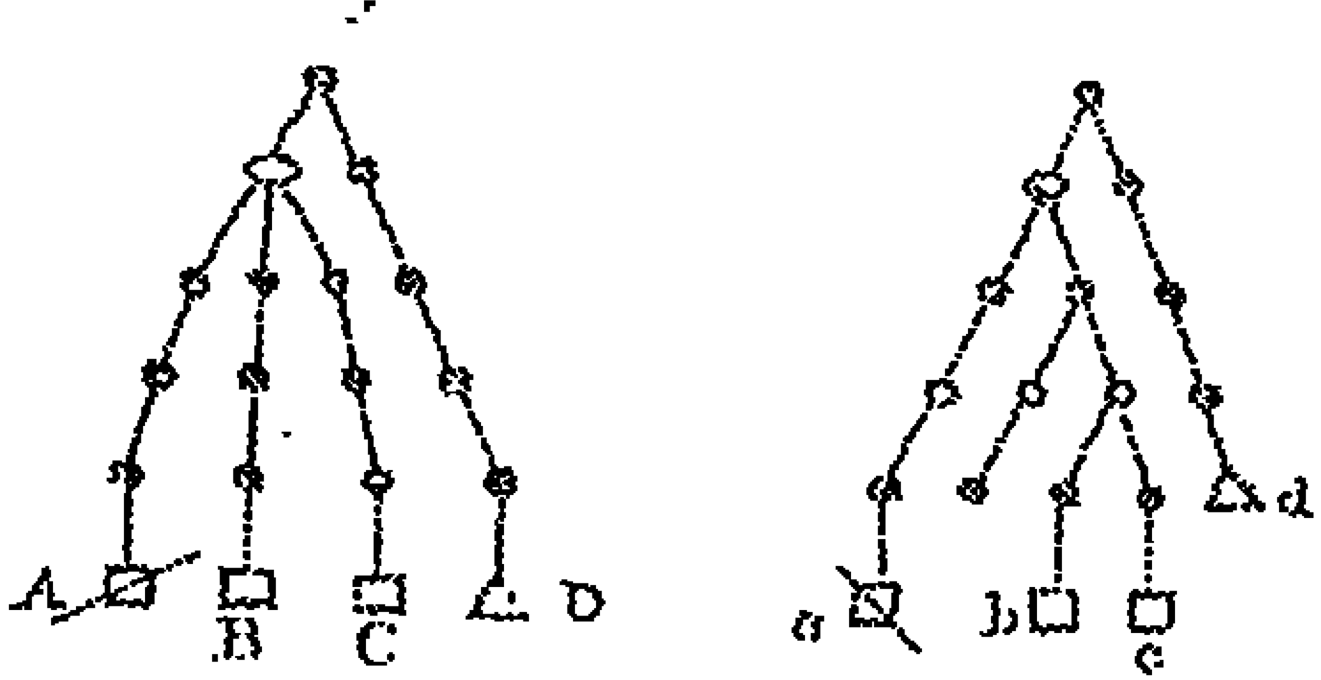
أنا أميل إلى تصديق الحقيقة التى مفادها أن هذا العرف الصحى أسهم بدرجة كبيرة ، أكثر من أى شىء آخر ، فى منع قبائل الجزيرة العربية المحبة للحرب من استئصال بعضها البعض . ولولا الثأر لما اتصفت حروب القبائل فى الصحراء بسفك وإهدار الدماء ، شأنها فى ذلك شأن الحروب التى يشنها المماليك فى مصر . ولما كانت الأسباب الداعية للحرب تظل موجودة مادامت أن هناك قبيلة تحاول الاستمرار فى حياتها البدوية المترحلة؛ فذلك يعنى أن هذا الحال من الحرب المستمرة سرعان ما يُجْهز على أقوى القبائل محولا إياها إلى ما هو أقل من اسمها بكثير . ومع ذلك فإن الخوف من الثأر المروِّع والمخيف هو الذى يجعل أشد الحروب ضراوة خالية من سفك الدماء إلى أبعد حد ممكن . من هنا نجد أن هناك بضع موضوعات مهمة جدا فى كتاب يتناول السلوكيات والعادات العربية .

هناك قانون يحكم العرب كلهم مفاده أن من قتل نفسًا لابد أن يُقتل بواسطة أسرة القتيل، هذا القانون وارد فى القرآن (فى السورة رقم ٢ الآية ١٧٨) التى تقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ . . . ﴾ ولكن القرآن نفسه (فى السورة رقم ١٧ الآية ٣٣) يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . . ﴾

العرب لا يراعون هذا الأمر مراعاة حرفية ؛ فهم يطلبون الثأر أو القصاص لا من القاتل الفعلى، وإنما من أقاربه كلهم. ومثل هذه الدعاوى هى التى تشكل الحق فى الثأر أو القصاص .

مسألة الثأر هذه تدخل ضمن ما يسميه العرب "الخُمس" ، أو بالأحرى الجيل الخامس (والعرب يقولون " الثأر فى الخمسة ") ، أى أولئك الذين يكون لهم حق الثأر لأب مقتول ، الذى يكون سلفه النسبى الرابع ، هو فى ذات الوقت السلف النسبى الرابع للقتيل . وعلى الجانب الآخر نجد أن أقارب القاتل الذكور هم المسئولون عن دفع دية المقتول ، الذى يكون سلفه النسبى الرابع ، وهو فى ذات الوقت السلف النسبى الرابع للقاتل . هذا يعنى أن الجيل الحالى يدخل ضمن عدد "الخُمس" الأمر الذى يعنى

أيضًا أن الخلف النسبى لكل أولئك الذين كان لهم حق الثأر فى لحظة القتل يرثون هذا الحق عن آبائهم .



هذا المخطط يبين ، أنه إذا كان A قد قتل a ، فذلك يعنى أن كلا من B و C هما وأسلافهما يجوز قتلهم ، لكن D لا يدخل ضمن " الخُمس " ، والثأر لا يطاله . ويكون من حق d و c أن يثأرا ، لكن d ليس مــن حقه الثأر . هــذا يعنى أن الحق فى الثأر لا يسقط مطلقًا ، أى أنه يمتد على الجانبين إلى أجيال بعيدة .

إذا ما قتلت أسـرة القتيل على سبيل الثأر اثنين من أسـرة القاتل ، ردت أسرة القاتل على ذلك بقتل شخص ثان من أسرة القتيل . والعرب يطلقون على القاتل اسم "دمّوى" ، أما إذا ما قتل فرد واحد يتوقف الأمر عند هذا الحد وتهدأ الأمـور ، لكن سرعان ما يتأجج الشجار من جديد بسبب الكراهية والانتقام .

والأمر هنا يترك إلى أقرب أقارب القتيل فيما يتعلق بقبول الدِّية التى هى محددة طبقًا لقوانين العنيز القديمة . وإذا رفض أقرب الأقارب قبول الدِّية المقدمة يقوم القاتل هو والداخلون فى الثـأر بالالتجاء إلى قبيلة لا تصل إليها ذراع الثـأر أو الانتـقام . والأعراف المقدسة تعطى للهارب ثلاثة أيام وأربع ساعات لا يلاحقه خلالها أى أحد من الناس . والعرب يطلقون على المنفيين الذين يكونون من هذا القبيل اسم " الجلاوى " ، وفى كل المخيمات يمكن العثور على أناس من هذا القبيل (*) . تأسيسا على قتل فرد

(*) بعض هؤلاء "الجلاويين" يجدون أنفسهم منعمين فى مجتمع العرب الذى حماهم أثناء وجودهم فى المنفى، إلى حد أنهم عندما يدفعون الدية يفضلون عدم العودة إلى قبيلتهم السابقة، ويبقون مع أصدقائهم الجدد . ومع ذلك لا يشارك هؤلاء المنفيون قبيلتهم الجديدة فى حربها على قبيلتهم الأصلية، لكن إن تصادف أن كان من بين الغنيمة شيءٌ من ممتلكات الجلاوى (والذى يكون قد تركها مع قبيلته) فإنه تجرى إعادتها إليه .

من الأفراد فإنه يتحتم نقل مئات الخيام أو أبعادها . كما أن " الجلاويين " يظلون فى المنفى إلى أن يصل أصدقاؤهم إلى صلح مع الخصوم ، وبعد أن يتكالبوا على أقرب أقارب القتيل ليجعلوه يقبل " الدِّية " المقدمة . معروف أن أسر الجلاويين تظل هاربة من قبيلة لأخرى (وهذا يعتمد على مدى صداقتهم أو عدائهم لقبائلهم الأصلية) لمدة قد تزيد على خمسين عاما ، وفى أحيان كثيرة قد لا يمكن الوصول إلى حل وسط خلال جيل أبناء أو أحفاد القتيل .

الثأر لغريب مقتول يبيح استعمال الوسائل كلها أو اللجوء إليها ، شريطة عدم قتل القاتل عندما يحل ضيفا على خيمة طرف ثالث ، أو حتى عندما لا ينتقدون الأقارب الذين يقبلون مثل هذا العرض أو الترتيب ، لكن العار قد يصيب أصدقاء المقتول إذا قبلوا مثل هذا العرض من المرة الأولى . وبعد أن يتم فى نهاية المطاف الاتفاق على تسوية الأمر فإنه يجرى تسوية الدِّية على النحو التالى : إذا قتل عنزى عنزيًا آخر تكون الدية على النحو التالى: " خمسون ناقة ، وذلول واحد (الذلول هو الجمل الذى يصلح للركوب) ، وفرس ، وعبد أسود ، ودرع من زرد ، وبندقية " . والبنود الخمس الأخيرة تشكل ذلك الذى يطلق عليه العرب اسم: " سلَع " ، والخمسون ناقة هى والسلَع يشكلان ما يسمى الدية . وإذا قتل العنزى عربيا من قبيلة أخرى ، أو إذا قتل أجنبىٌّ عنزيا فإن الدية تجرى تسويتها طبقا للعرف السائد فى قبيلة ذلك الغريب . أما عند الموالى والِّسردى والفِهيلى والآخرين من عرب الشمال، فإن الديَّة تعادل ألف قرش، أو ما يزيد على خمسين جنيهًا إنجليزيا . والدية عند العَمور تقدر بخمسمائة قرش . ولا يأخذون فى اعتبارهم مسألة البنود الأخرى الداخلة فى الدية، شريطة أن يكون الذلول من النوع الجيد القوى ، وقد يكون الفرس من سلالة رديئة ، والبندقية لا تساوى أكثر من بضعة قروش. ويتحتم على الرغم من ذلك كله دفع السلَع، لكن يندر أن يكون هذا العدد الكبير من الإبل مطلوبا . إذا أعرب أقرب أقارب القتيل (الذى تئول إليه الدية) عن استعداده لقبول الدية ، قام أصدقاء الدمَّوى مع زوجاتهم وبناتهم بزيارة خيمة عدوهم، ويطلب كل واحد منهم إلى أقرب الأقارب تخفيض جزء من الدية إكراما لخاطره ، وإذا كان الرجل كريما فإنه قد يتنازل عن جمل من أجل خاطر فلان أو علان ، وقد يتنازل عن جملين أو ثلاثة من أجل عيون بنت شابة جميلة ... إلخ ، إلى أن يتبقى عدد محدد لا يمكن أن

يتنازل عنه ، وهو لا يتنازل مطلقًا عن الفرس أو العبد أو البندقية . وهنا يقوم الدمّوى شخصيا أو صديقه الحميم بالحضور إلى خيمة الخصم ومعه ناقة ، ويقوم بنحر الناقة أمام الخيمة ؛ بزعم أن دم الناقة يزيل دم القتيل ، وعلى الفور يجرى أكل الناقة بواسطة أصدقاء الطرفين ، وتعد هذه من ضمن الدية . وعند الانصراف يقوم الدمّوى أو من يمثله بربط منديل أبيض على طرف حربته ؛ لتكون بمثابة إخطار عام على أنه أصبح منذ الآن مبرأً من الدم . والعرب يقولون لمثل هذا الشخص " إنه خلص من الدم ". ويجرى على الفور دفع جزء من الدية ، أما بقية الدية فيجرى دفعها بعد ذلك خلال عامين أو ثلاثة أعوام . وتتعاون عائلة الدموى كلها فى سداد أو دفع الدّية .

إذا قتل إنسان قريبا له فإن أقرب أقارب القتيل يطلبون الدية من أفراد أسرتهم ، وفى مثل هذا الحال يجرى جمع الدية عادة على الفور وبلا أى تأخير ، ثم يجرى تقديمها . يقال : إنه إذا قتل عبد من العبيد فإن سيد هذا العبد هو الذى يثأر لموته كما لو كان رجلاً حراً ، وبذلك يصبح من حق السيد نفسه قبول الدية . وأنا لست متأكداً تمامًا من هذا الأمر ، لكن مبلغ علمى أن العبد المحرر له الحق فى الثأر مثله مثل العربى الحر تماماً(*) .

أما من يقتلون فى الحروب التى بين قبيلتين فإن دية المقتولين تطلب من أولئك القاتلين الحقيقيين . وإذا تحقق السلم بدون "الحفر والدفن" (الذى سبقت الإشارة إليهما) تحتم الثأر للمقتول ، حتى وإن عرف الأقارب عن طريق الإبلاغ الغامض غير المباشر هؤلاء الذين قتلوا أصدقاءهم . ونظراً لصعوبة التأكد من القاتل الخيّال ، فإنه يجرى تقديم التماس أو طلب إلى المبشع (سالف الذكر) إذا ما أنكر المتهم قيامه بالقتل . فيما يتصل بإهدار الدماء فى المعارك ليس من المعتاد إحضار الشهود أمام القاضى ؛ فالملعقة الحارة هى وحدها التى يمكن أن تبت فى هذا الأمر .

قد يحدث فى زمن الحرب أن يكون هناك " دم " بين القبائل (أو " بيننا دم " على حد قول العرب) ، لك يجب التمييز هنا بين عدة أمور. إذا كان دين الدم هذا ناتجًا

(*) دية العبد نصف دية الحر؛ وفقًا للقواعد الفقهية فى الشريعة الإسلامية . (المراجع)

عن قتل أناس أثناء وطيس القتال ، وإنقاذ حياة كل أولئك الذين سلموا أنفسهم للمنتصر ، والعرب يقولون على سبيل المثال "بين الفضعان والموالى دم" ، على العكس من ذلك إذا بدأ ، أفراد قبيلة من القبائل المتصارعة بقتل أعدائهم بطريقة منافية للمتبع بين الناس ، أى عن طريق الذبح بالسكين وهم جرحى على الأرض ، أو بقتلهم بعد أن ينزلوا من فوق دوابهم فإن العرب يقولون فى مثل هذا الحال " بيننا ذبح " ؛ وهنا تقوم الجماعة الغاضبة بالثأر لنفسها عن طريق عدد مضاعف من أعدائهم بنفس هذه الظروف القاسية ، وهذا فى حد ذاته يشعل العداوة والبغضاء بين القبائل . وعلى الرغم من ذلك فقد بلغنى أن خيالاً قتل بهذه الطريقة ، وأن الأمر أسفر عن قتل أكثر من عشرين فرداً بالطريقة نفسها على كل جانب من الجانبين ، على الرغم من استمرار الحرب سنوات عدة . يزاد على ذلك أن عرب الموالى متهمون دومًا بالخيانة فى قتلهم لأعدائهم ، الذين لا يكل أقاربهم ولا يملُّون من المطالبة بحقهم فى الثأر .

السـرقة واللصوصية

بعد أن أتينا على ذكر الهجمات التى يشنها العرب على أعدائهم ، أجد لزامًا علىَّ أن أعرج على عمليات العرب الحربية السرية، وعلى عمليات السلب والنهب التى يتعرض لها الأصدقاء والأعداء على حد سواء. يمكن القول عن هؤلاء العرب إنهم أمة، أو أناس من اللصوص ، الذين يتمثل همهم الأول فى السلب والنهب ؛ لأن هذا السلب والنهب هو الشغل الشاغل لأفكارهم . لكن يتعين علينا ألا نلصق بهذا العمل تلك المفاهيم والمضامين الإجرامية التى نلصقها بقطاع الطرق ولصوص المنازل وكذلك اللصوص فى أوروبا . اللص العربى ينظر إلى مهنته بإعتبارها مهنة شريفة ، يضاف إلى ذلك أن الكلمة العربية " حرامى " بمعنى لص تعد واحدة من الألقاب التى تضفى على حاملها مظهراً فيه الكثير من السحر والجاذبية باعتباره بطلاً شابا(*) .

(*) لقد اختلطت المفاهيم عند المؤلف، ويبدو أن انطباعه عن اللص واللصوصية قد جانبه الصواب، لأن هذا العمل قد نظر إليه العرب دائمًا على أنه من الأعمال التى لا يقوم بها إلا السفلة وقد احتقرها العرب دائمًا. (المراجع)

العربى (من هؤلاء) يسرق أعداءه وأصدقاءه وجيرانه، شريطة ألا يكونوا موجودين في خيمته التي تعد ممتلكاتهم فيها أشياء مقدسة . مسألة السرقة من المخيم ، أو من بين القبائل الصديقة ، لا تفيد أى رجل من الرجال وليست فى صالحه ، ومع ذلك فإن قيامه بعمل من هذا القبيل لا غبار عليه بأى حال من الأحوال ، لأن هذا العمل يكاد يكون من بين أمور الحياة اليومية المعتادة . لكن العربى يتباهى بسرقته لأعدائه ، كما يتباهى أيضاً بأخذه خلسة ذلك الذى فشل فى الحصول عليه بصورة علنية . وهكذا نرى أن البدو قد قصروا السرقة - بكل فروعها - على منظومة كاملة ومنظمة ، لها الكثير من التفاصيل الشيقة . والعربى عندما ينوى القيام " بغزو " يأخذ معه اثنى عشر صديقاً من أصدقائه ، ويرتدون جميعاً ثياباً مهلهلة ، ويأخذ كل واحد منهم كمية قليلة جدا من الدقيق والملح، كما يأخذ معه أيضاً قربة ماء صغيرة، وبهذه المؤن البسيطة جداً يبدأون سيراً على الأقدام رحلة تستغرق مسير ثمانية أيام . معروف أن الحرامية أو اللصوص لا يركبون دوابَّ مطلقًا ، وعندما يصلون فى فترة المساء إلى منطقة قريبة من المخيم الذى ينوون سرقته - يجرى إيفاد ثلاثة من الجسورين فى اتجاه الخيام التى يصلون إليها عند منتصف الليل ، وهو الوقت الذى يكون فيه السواد الأعظم من العرب نياماً، فى حين يتعين على بقية أفراد الغزو انتظار عودتهم على بعد مسافة قريبة من المخيم . وكل واحد من هؤلاء الممثلين الرئيسيين الثلاثة له عمل محدد : واحد منهم (يطلقون عليه اسم المستنبح) يتمركز خلف الخيمة التى ستجرى سرقتها ويحاول استرعاء انتباه كلاب الحراسة . وعلى الفور تقوم تلك الكلاب بمهاجمته ، ويهرب الرجل أمام الكلاب التى تنطلق فى إثره إلى مسافة بعيدة عن المخيم ، الذى يجرى فعلاً إخلاؤه من هؤلاء الحراس الخطرين . الشخص الثانى من هؤلاء الثلاثة (والذى يسمونه " الحرامى " أو " اللص ") يتقدم صوب الإبل الباركة أمام الخيمة ، ويروح يقطِّع الحبال التى تربط فى أرجل الإبل ، ويجعل أكبر عدد منها يقف حسب رغبته هو . (وهنا يجب أن نؤكد على أنَّ الجمل غير المحمَّل يقف ثم يمشى دون أن يحدث ضوضاء) ثم يقتاد الحرامى بعد ذلك ناقة من النوق إلى خارج المخيم ، وهنا تتبعها بقية الإبل كالمعتاد . أما الشخص الثالث المغامر (والذى يسمونه " القعيدة ") فيتمركز بالقرب

من عمود الخيمة ، الذى يطلقون عليه اسم "اليد"، وهو يمسك فى يده عصا طويلة ثقيلة، رافعًا إياها فوق مدخل الخيمة ، ومستعداً لضرب مَنْ يحاول التقدم نحوه ؛ وبذلك يتمكن الحرامى من الهرب . وإذا ما نجحت السرقة يقوم كلٌّ من الحرامى والقعيدة باقتياد الإبل إلى مسافة قصيرة ، ويقوم كل واحد منهما بإمساك ذيل جمل من أقوى الجمال ، ثم يشدان هذين الذيلين بأقصى ما فى وسعهما ؛ وهذا يؤدى إلى جعل الإبل تجرى ، وتجران هذين الرجلين خلفهما ، ومن خلفهم بقية الإبل ، ليصلوا إلى مكان التجمع ، وفيه يلتقون بـ "المستنبح" الذى يكون مشغولاً بالدفاع عن نفسه ضد الكلاب ، ويحدث فى معظم الأحيان أن يسرق الحرامى أكثر من خمسين جملاً بهذه الطريقة . هؤلاء اللصوص الذين لا يتحركون إلا فى الليل فقط ، يعودون إلى مخيماتهم من طرق ومسيرات مختصرة . ويسمح لرئيس الغزو، هو والممثلين الثلاثة ، بالحصول على حصة أضافية من الغنيمة .

لكن الأمر يكون مختلفًا تمامًا فى حالة فشل مسألة الغزو هذه . لو لاحظ أى جار من الجيران كلاً من الحرامى والقعيدة فإنه يبادر إلى إيقاظ أصدقائه ، ويروحون يطوقون اللصوص، وأول واحد منهم يستطيع الإمساك بواحد منهم يتخذه أسيراً . والعرب يطلقون على هذا الأسير اسم "ربيط" وقوانين البدو الخاصة بهذا الربيط عجيبة جداً ، وتكشف عن التأثير الذى نقلته الأعراف والتقاليد عبر أجيال كثيرة (على الرغم من أن هذه القوانين منبتة الصلة بالدين) ، وكيف أن هذه الأعراف والتقاليد يمكن أن تؤثر على الشخصيات الأشد شراسة بين أشد أبناء الحرية شراسة . وهنا يقوم "الرباط"، أو بالأحرى ذلك الذى أمسك "بالربيط " ، بسؤال الربيط عن الهدف أو المهمة التى جاء من أجلها ، وعادةً ما يكون مثل هذا السؤال مصحوبًا ببضع ضربات على الرأس . وتكون الإجابة الشائعة على مثل هذا السؤال "جئت لأسرق ، لقد رمانى الله". ويجرى بعد ذلك اقتياد الأسير إلى داخل الخيمة ، التى يحظى فيها أسر الحرامى بكثير من الفرح والابتهاج . يقوم الرباط بعد ذلك بإخلاء الخيمة من الشهود كلهم ، ثم يواصل بعد ذلك وهو ممسك بسكينة ، ربط يدى الأسير وقدميه ، ثم يقوم بعد ذلك باستدعاء أفراد قبيلته أو أهلها . ويقوم أحدهم ، أو قد يفعل الرباط ذلك بنفسه ،

بمخاطبة الحرامى قائلاً " نفىّ " بمعنى " أنكر "، وهنا يتخوف الحرامى من استمرار الضرب فيرد قائلاً " بنفى "، أو قد يقول " ينفى " بمعنى " أنا أنكر " . هذا الطقس مؤسس على عادة أو عرف الدخيل ، الذى سوف أتناوله هنا بالشرح والتفسير .

من الثابت والمعروف عند العرب أن الإنسان أى إنسان إذا أصبح فى خطر فعلىّ من شخص آخر ، وإذا استطاع لمس عربى ثالث (كائنًا من كان ، حتى وإن كان شقيق المعتدى) أو حتى عندما يلمس جمادًا يكون حتى فى يد الآخر ، أو يتصل بأى جزء من أجزاء جسمه ، أو حتى عندما يستطيع لمسه حتى وإن كان ذلك عن طريق البصق عليه أو رميه بحجر ، وهو يستجير قائلاً " أنا دخيلك " بمعنى " أنا فى حمايتك "، أو عندما يقول " ترانى بالله و بك أنا دخيلك " ، يصبح بعد ذلك غير معرض لأى خطر ، ويضطر الطرف الثالث إلى الدفاع عنه . هذا بطبيعة الحال شىء نادر الحدوث ؛ نظراً لأن المعتدى يتوقف عما يفعله اعتباراً من هذه اللحظة ، وبالطريقة نفسها يصبح من حق الحرامى الاستفادة من الامتياز نفسه ، إذا ما أتيحت له فرصة طلب ذلك الامتياز، ويدخل فى عداد ذلك الأشخاص الذين يدخلون الخيمة ليطلبوا منه " الإنكار " (أى امتياز أو حق حماية الدخيل) . وإجابته " أنا أنكر " تجعل من المستحيل على الحرامى طلب امتياز حق حماية الدخيل . لكن هذا الاستنكار يبقى سارياً فى هذا اليوم فقط ؛ والسبب فى ذلك أنه لو دخل الأشخاص أنفسهم الخيمة فى اليوم التالى فلا بد من حتمية وجود ذلك الاستنكار ، يضاف إلى ذلك أن هذا الاستنكار يجرى تكراره مع دخول أى شخص إلى الخيمة. ومنعًا لهرب الحرامى بسهولة ويسر ، ومنعًا له من أن يكون دخيلاً لأى إنسان ، يجرى عمل حفرة فى أرضية الخيمة ، يصل عمقها إلى حوالى قدمين وبطول الرجل، ويجرى وضعه فى هذه الحفرة بعد ربط قدميه بسلسلة فى الأرض ، وربط يديه ، وتثبيت شعره الملوى إلى وتدين على جانبى رأسه . ويجرى وضع بعض أعمدة الخيمة فوق هذا القبر ، كما توضع أيضًا جوالات القمح وأشياء أخرى ثقيلة يجرى تكويمها فوق هذه الحفرة ، بحيث تترك مجرد فتحة صغيرة من فوق وجه الأسير كى يتنفس من خلالها .

إذا تقرر نقل المخيم فإنهم يلقون على رأس الحرامى قطعة من الجلد ، ويجرى بعد ذلك وضعه على جمل مع ربط رجليه ويديه بصورة دائمة . وفى كل مكان ينتقل المخيم إليه يجرى عمل حفرة أو قبو من ذلك القبيل سالف الذكر ؛ لكى يسجن فيه ذلك الأسير . وهذا الأسير الذى يدفن حيًا على هذا النحو لا يفقد الأمل فى الهرب بصورة أو بأخرى ، وهذا الهرب يستحوذ على ذهنه بصورة دائمة ، فى الوقت الذى يحاول فيه الرباط الحصول على أعلى فدية ممكنة من ذلك الأسير . والأسير إذا كان من أسرة ثرية فإنه لا يفصح عن اسمه الحقيقى ، وإنما يقول عن نفسه إنه شحاذ مسكين . وإذا ما أمكن التعرف عليه - وهذا هو ما يحدث فى أغلب الأحيان - فذلك يحتم عليه دفع فدية تشمل كل ثروته من الخيول والإبل والغنم والخيام والمؤن وكذلك الأمتعة . إصرار الأسير على ادعاء الفقر وإصراره على إخفاء اسمه الحقيقى قد يطيل سجنه إلى ما يقرب من ستة أشهر ، ثم يسمح للأسير بعد ذلك بشراء حريته بشروط معتدلة ، أو قد يسعده الحظ بالهرب . والعادات والأعراف السائدة بين البدو تسهم إلى حد كبير فى عملية الهرب هذه . ولو قدر لذلك الأسير أن يتمكن وهو فى تلك الحفرة ، التى يمكن أن نسميها قبره ، من أن يبصق فى وجه رجل أو طفل ، فى غياب صيغة النفى سالفة الذكر فذلك يعنى التسليم بأنه (الأسير) قد لمس حاميًا أو محررًا ، وإذا أعطاه طفل كسرة خبز (*) فإن الحرامى يزعم أنه أكل مع حاميه أو محرره . وعلى الرغم من أن مثل هذا الشخص يمكن أن يكون من أقرب أقارب الرباط ، فإنه يصبح صاحب حق فى الحرية ، ويجرى هنا قطع الخيوط التى تربط شعره باستعمال سكين، ويجرى أيضًا فك قيوده وإطلاق سراحه . فى بعض الأحيان قد يجد الأسير من الوسائل ما يساعده على تحرير نفسه من أغلاله أثناء غياب الرباط عنه ؛ فى مثل هذا الحال يهرب الربيط أثناء الليل ، ويلوذ بأقرب الخيام إليه ، معلنًا نفسه دخيلاً لأول شخص يلتقيه ، وبذلك يتمكن من استعادة حريته . لكن ذلك نادرًا ما يحدث ؛ نظرًا لأن الأسير يحصل دومًا على أقل القليل من الطعام المر الذى يجعل ضعفه يحول بينه وبين

(*) يستثنى من هذه القاعدة طفل الرباط .

بذل أى جهد غير عادى ، لكن أصدقاءه عادةً ما يحررونه؛ إما باللجوء إلى القوة أو عن طريق المكر والدهاء على النحو التالى :

– يقوم أحد أقارب الأسير، وغالبًا ما تكون أمه أو أخته ، بالتنكر فى زى شحاذ ، ويجرى استقبالها على شكل ضيف فقير الحال ، بواسطة بعض عرب المخيم المحتجز فيه الحرامى . وبعد التأكد من مكان خيمة الرباط يقوم ذلك المتنكر أو تلك المتنكرة بتقديم نفسها إلى تلك الخيمة أثناء الليل ، ومعها كرة من الخيط فى يديها ، وتقترب من الحفرة التى يرقد فيها الحرامى، وتلقى بطرف الخيط على وجه الأسير محاولة جعله يمسك طرف الخيط بفمه ، أو تقوم هى أو هو بتثبيت الخيط فى قدم الأسير . وبذلك يفهم أن العون والمساعدة أصبحا فى المتناول ، وتتراجع المرأة إلى الخلف وهى تفرد الخيط إلى أن تصل إلى الخيمة المجاورة ، ثم تقوم بإيقاظ صاحب الخيمة ، وتضع طرف الخيط فى صدره، وهى تقول له "ترانى بالله وبك هذا دخيلك"، بمعنى انظر إلىَّ ، وبمقدار حبك لله وحبك لنفسك سيكون هذا تحت حمايتك . وما إن يسمع العربى ويفهم الغرض أو الهدف الذى جاء من أجله هذا الزائر الليلى حتى ينهض واقفًا ويروح يلف الخيط فى يديه ويتتبعه إلى الخيمة التى تحتوى على الحرامى . وهنا يقوم الرجل بإيقاظ الرباط ، ويريه الخيط الذى ما يزال الأسير ممسكًا به ، ويعلن بعد ذلك أن الحرامى أصبح دخيله. ويجرى بعد ذلك تحرير الحرامى من أغلاله ، ويروح الرباط يستقبله استقبال ضيف وافد جديد ، ويجرى إشعاره بأنه سيرحل فى أمن وسلام . وما أحكيه هنا ليس حكاية رومانسية أو خرافية ، ووقائع هذا الحادث صحيحة تمامًا ، لأن السواد الأعظم من اللصوص الأفاقين يؤكدونها من واقع خبرتهم .

– فى بعض الأحيان يجرى تحرير اللص الربيط بطريقة أخرى ؛ بأن يبقى صديق الربيط فى المخيم إلى أن ينصب العرب خيامهم ، وعندما يجرى نقل الأسير المربوط فوق جمله ، وفصله عن بقية الجمال التى تحمل الأسرة ، يروح يسوق ذلك الجمل فى اتجاه أعرابى آخر ، فيصبح حاميًا ومخلصًا للربيط .

– إذا انعدمت وسائل تخليص الأسير أو هربه تعين عليه التوصل إلى اتفاق حول فدية معينة، قد يجرى تحديد مبلغ من المال . وعادةً ما يتصادف بين أفراد قبيلة الرباط بعض المقيمين من قبيلة الأسير ، فيتعهدون بسداد المبلغ . هنا يجرى تسليم الأسير لهؤلاء الأفراد الذين يقوم أحدهم بمرافقته إلى موطنه ، ويتسلم منه المبلغ المتفق عليه ، والإبل أو السلع الأخرى التى يواظب على سدادها للرباط . وإذا لم يستطع اللص المحرر دفع مبلغ الفدية كاملاً ، فإنه يقوم بتسليم نفسه – وفاء لكلمة الشرف التى قطعها على نفسه – إلى رباطه مرة ثانية ، وبذلك يصبح أسيراً من جديد . ومسألة عدم دفع الربيط للفدية أو عدم عودته إلى رباطه أمر نادر الحدوث تمامًا . وإذا ما عجز كفيل الربيط عن دفع الفدية تعين عليه الوفاء بذلك المبلغ من ثروته الخاصة ؛ لكنه هنا يصبح من حقه فرض عقاب شديد على صديقه المزيف ، وهذا العقاب يخشاه العرب ويخافونه إلى حد أنهم لا يلجأون إليه إلا نادراً . ولا يتعين على الكفيل سوى أن يستنكر عمل ذلك الآخر ويتهمه بالخيانة فيما بين أفراد قبيلة الكفيل . والكفيل عندما يفعل ذلك الشيء يقول له العرب "إنه يَبُوقه الحرامي". بعد ذلك لا يكون من حقه الحصول على كرم الضيافة أو أن يكون دخيلاً ، بل إنه يمكن تجريده من كل ما معه بواسطة المضيف .

دعوى "البوق" هذه تتوقف إذا ما أعاد الخائن الأشياء المسروقة ، هذا يعنى أن ضمير الرجل أو مصلحتــه هى التى تحتم عليــه تسوية الأمــر فى نهاية المطاف ، لكن شيخ القبيلة لا يمكن له أن يجبره أو يضطره ، ولا تستطيع أسرته أيضًا إقناعه بأن يعيد الذى سرقه . هذا البوق لا يكون له تأثير فى قبيلة الحرامى ، على الرغم من أن الرجل سيصبح محطًا للازدراء والاحتقار اللذين جرهما على نفسه .

ورب العائلة (أو ولده) عندما يقرر القيام بغزو ، مهما كانت خطورته ، لا يأتى على ذكره أمام أصدقائه المقربين ، لكنه يأمر زوجته أو أخته بتجهيز شيء من الدقيق والملح فى كيس صغير . وإذا سأله أحد عن مقصد رحلته فإنه يرد قائلاً " هذا ليس من شأنك " . أو قد يجيب بالعبارة البدوية الشهيرة " على باب الله " .

الوالد الذى يجرى أسر ولده (أو أخذه " ربيطًا ") غالبًا ما يضحى بثروته كلها من أجل الوفاء بالفدية المطلوبة ، لأنه يعد ذلك شرفًا أن أصبح ولده لصا ، ويتطلع إلى دفع الفدية على وجه السرعة ، أو القيام بعملية غزو أخرى ناجحة .

قد يجرى تحرير " الربيط " بلا فدية فى بعض الأحيان أو نظير فدية معتدلة جداً ، وهذا يحدث عادة إذا كان السجن يهدد حياة الرجل ، والرجل إذا مات وهو مقيد بالأغلال أصبح دمه فى عنق " الرباط ". والعربى الكريم صاحب العقل الراجح يربأ بنفسه أن يكون عنده أسير أو لص على النحو سالف الذكر، ولكن الأمثلة على هذا النوع من الأصالة والكرم ليست كثيرة.

العرب لا يقتربون من أى مخيم من المخيمات وهم سائرون على أقدامهم ، أو بأعداد صغيرة ، اللهمَّ إلا إذا كان ذلك بقصد السرقة . والعرب فى حالة الهجوم العلنى يجيئون راكبين خيولهم أو إبلهم . وعلى الرغم من فشل محاولتهم أحيانًا ، فإن معاملتهم تكون باعتبارهم أعداء وليسوا لصوصا ؛ هذا يعنى تجريد العرب مما معهم ومن ممتلكاتهم وملابسهم ، لكن لا يجرى احتجازهم . وعلى العكس من ذلك إذا التقى عربىٌّ بعدو أعزل ليس معه سلاح، فإنه يأخذه على أنه لص جاء بنية السرقة ؛ وهنا يصبح من حق العربى أن يجعل من مثل هذا الرجل " ربيطًا " له ، شريطة أن يمسك به فى مكان يمكن له أن يعود منه إلى مخيمه قبل غروب الشمس ، أو يصل إلى خيام قبيلة صديقه(*) . المُسَلَّمُ به فى مثل هذا الحال أن العدو كان ينوى سرقة المخيم فى تلك الليلة . لكن إذا كان المكان الذى يلقى العربى فيه ذلك اللص على بعد مسافة كبيرة تزيد على مسير يوم واحد ، أو أبعد مما يمكن أن يصل الإنسان إليه فى بقية النهار (محسوبا معه وقت اللقيا إلى غروب الشمس) تصبح مسألة جعل هذا اللص "ربيطا" أمرا غير مدبر، لكنه يتعين عليه فى مثل هذا الحال معاملة العدو المعتاد. النساء لا يؤخذن "ربيطات" مطلقا .

(*) عرفت من بعض العرب أن من بين العنيز قبائل معينة ، مثل الفضعان ، يعاملون معاملة الربيط بدون أى تمييز ، سواء أكانوا متلبسين بالسرقة أم مشاركين فى عمليات حربية علنية .

إذا ما أمسك العربى بإنسان وهو يحاول تخليص صديقه أو قريبه الأسير فإنه قد يتحول هو نفسه إلى "ربيط"، شريطة أن يكون قد جاء مباشرة من الصحراء . لكنه إذا جرى استقباله فى أية خيمة من خيام المخيم ، أو حتى عندما يكون قد شرب ولو مجرد شىء من الماء ، أو جلس فى واحدة من الخيام ولو لفترة وجيزة جدا ، ونطق بتحية "السلام عليك" – فإنه يتعين حمايته من قبل صاحب الخيمة ، وألا تساء معاملته على الرغم من فشل خطته .

قد يدرك اللصوص أثناء قيامهم بالسرقة أنه جرى اكتشاف أمرهم ، أو قد يدركون أن النهار قد أوشك على الطلوع ، وأن ذلك يمكن أن يعرضهم للخطر ، أو أن واحداً من الجماعة قد أصيب ولا يستطيع مواصلة القيام بالمهمة . فى مثل هذه الأحوال يتوقف اللصوص عن عملية السرقة تماما ، ويدخلون أية خيمة من الخيام فيوقظوا أهلها ويقولون "نحن حرامية ونريد نتحول" . وهنا يرد عليهم أهل الخيمة قائلين : "سلمتم" . وهنا يقوم أهل الخيمة على الفور بشب النار ، وتصليح القهوة ، وتقديم الفطور للغرباء ، الذين يجرى الاحتفال بهم طوال إقامتهم مهما طالت . وعند الرحيل تقدم لهم مؤن تكفى عودتهم إلى ديارهم . واذا تصادف أن التقى هؤلاء اللصوص أثناء عودتهم بجماعة معادية من القبيلة التى سبق أن خططوا لسرقتها أو غزوها ؛ فإن مجرد نطقهم بالعبارة التى تقول "نحن مالحين" تصبح جواز سفر يضمن لهم رحلة آمنة ، هذه العبارة تعنى "لقد أكلنا عيشا وملحا فى الخيمة الفلانية أو العلانية" . وفى كل الأحوال تكفى شهادة المضيف لتخليصهم من أيدى العربى سواء أكان مستقلا أم من قبيلة صديقة. لكن إذا قام الحرامية بعد أن أكرم حاميهم وفادتهم، وبدافع من الوضاعة والخسة ، بنهب بعض العرب من القبيلة المعادية ، فإنهم يضحون بفكرة الدخيل ويهدرونها ؛ وهنا يقوم الشخص المنهوب بإبلاغ الأمر إلى مضيفهم ، الذى يوفد على الفور رسولا أو مندوبا لشيخ قبيلة اللصوص ، يطالبه بإعادة الممتلكات المسروقة بطريقة تتعارض مع قوانين الشرف والعدالة . والحرامى عندما يعيد المسروقات يصبح الأمر منتهيًا . أمَّا إذا رفض الحرامية إعادة المسروقات فإن

مضيفهم السابق يتقدم لملاقاتهم ، محضرا معه الطبق النحاسى الأحمر الذى أكلوا منه عندما حلوا ضيوفا عليه . وعندما يصل الرجل إلى خيمة شيخ القبيلة (قبيلة اللصوص) تتجمع القبيلة كلها ، وهنا يقول الرجل للحرامية "هذا هو الطبق الذى أكلتم منه ، رمز الحماية التى أعطيت لكم عندما كان الخطر يتهددكم، أعيدوا إذن الماشية المسروقة" . وإذا استجابوا للطلب ينتهى الأمر نهاية ودية ، أما إذا استمروا على رفضهم فإن العربى يتناول الطبق (الذى يقولون له "مَقَرة") ، ويقول لهم على الملأ "أنتم خونة، وسوف نستنكركم فى كل مكان على أنكم "مبوَّقون") . تأثير هذا الإعلان وآثاره شبيهة بالإعلانات سالفة الذكر ، فى حال "البوق" أو السلوك الخائن .

عند إبرام صلح بين قبيلتين ، وبعد أن يقوم شيخا القبيلتين "بالحفر والدفن" (كما أسلفنا) تظل الديون المترتبة على "الخيانة" والمستحقة للأفراد على الجانبين باقية على الرغم من عقد الصلح ، ولا تنتهى جهود "البوق" مطلقا إلا بعد تسوية المشكلة تماما .

مسألة استقبال الدخيل أمر تطوعى ، أو إن شئت فقل اختيارى ، قد يرفض ، لكن ذلك أمر نادر تماما . والعرب يقولون إن "الدخَّال"، أو بالأحرى ذلك الرجل الذى يطلب الحماية ، يهل علينا فجأة ، فليس أمامنا من خيار سوى قبول طلبه ، لكن حق الدخيل هذا يمكن أن يكون جزئيا فى بعض الأحيان . فى المعارك التى يحدث فيها "ذبح" (كما أسلفنا) قد تتهيأ للعدو الذى تجرى ملاحقته فرصة الإلقاء بنفسه ؛ طلبا لحماية عربى يتصادف أن يكون صديقا لذلك الذى يقوم بمطاردة هذا العدو ، وهنا يقول له العربى : "أنا أحمى حياتك ، لكنى لا أحمى حصانك أو ممتلكاتك " . هذه الأشياء يستولى عليها المُلاَحِق بطبيعة الحال .

النساء والعبيد ، بل وحتى الغرباء ، لهم أيضاً حق فى مفهوم الدخيل. هم يقومون على الفور بنقل ذلك الدخيل أو تحويله ؛ فالمرأة تحوله إلى والدها ، أو إلى قريب لها ، والعبد يحيل الدخيل إلى سيده ، والغريب يحيل الدخيل إلى مضيفه. ولقد لاحظت

أن "الربيط" فى ظل ظروف معينة إذا ما لمس شخصا بعينه، فذلك يعنى أنه أصبح دخيله، لكن يجب ألا يغيب عنا أن أى إنسان إذا ما لمس "الربيط" فإنه يمكن أن يصبح حاميا أو محررا له . وهذا التحذير ضرورى من الناحية القانونية ، والسبب فى ذلك أن الرجل الذى يتحكم فى الأسير يكون له دوما عدو سرى من أفراد قبيلته ، يحاول حرمانه من الحصول على الفدية ، وهذا يحتم دوما أن يكون "الرباط" حذرا ، ويروح يحث "الربيط" على إنكار امتياز الدخيل ، أو قد يقوم بمنع دخول الزوار إلى الخيمة . و"الرباط" عندما يكون مشغولا بأعمال أخرى فإنه يجوز أن يعهد "بالربيط" إلى واحد من أصدقائه المخلصين ، الذى يقوم على حراسته فى خيمته (خيمة الصديق) ، ويحصل من صديقه على ناقة أجراً له على القيام بهذا العمل .

إذاما قام أحد بإيذاء دخيل شخص آخر أو مضايقته ، وهذا أمر نادر الحدوث ، فإن ممتلكات وثروة مثل هذا الرجل كلها لا تكفى أمام القاضى للتكفير عن مثل هذه الجريمة أو الذنب ؛ إذ إن إيذاء الدخيل يعد أخطر بكثير من إيذاء "الرباط" نفسه . والعربى عندما يعبر عن مسألة إيذاء دخيله بواسطة طرف ثالث يقول "قطعت أرضى" أو "كسرت عِرْضى" ، بمعنى "إن أرضى قد قُطِّعت أو دِيست" ، أو "طُعِن شرفى" .

إلى هنا أكون قد أبديت ملاحظاتى عن السرقات التى تجرى فى المخيمات المعادية، لكن العرب لا يقصرون سلبهم ونهبهم على خيام الأعداء ؛ إذ إنهم قد يسرقون أهليهم ، أو قد يسرقون أو ينهبون قبيلة صديقة . السرقة التى تكون من هذا القبيل إذا أخذت مأخذ الجد ، تصبح مدانة من القانون القديم ، ويجازى من يقوم بها بقطع يده اليمنى ، لكن العرف يسمح لمثل هذا اللص بالتكفير عن هذه السرقه عن طريق دفع خمسة نياق تسلم للشخص الذى اعتزم اللص سلبه أو نهبه . هؤلاء الذين يقومون بعمليات سلب ونهب من هذا القبيل على أصدقائهم لا يمكن أن يكونوا "ربيطين" مطلقا ، وانما يقول الناس لهم "نتال" (وليس "نشال") التى هى المصطلح الشائع فى سوريا .

كرم العرب

بعد هذا الذى قلناه عن العرب ، من الضرورى الإشارة إلى أن الضيف عند العنيز يعد شيئا مقدسا ؛ فكيانه محفوظ ، ومسألة الإخلال بالضيافة عن طريق خيانة الضيف لا تخطر ببال أى أحد من العنيز . والشخص الذى يكون له حامٍ واحد فى أية قبيلة من القبائل يصبح صديقا محبوبا أيضًا لدى القبائل كلها التى لها صلة بهذه القبيلة . الحياة والثروة والممتلكات يمكن أن يعهد بها فى أمان كامل إلى واحد من العنيز ؛ وبالتالى يستطيع طالب الحماية التجوال مع ذلك العنزى فى كل الأماكن التى يذهب اليها، لكن أعداء ذلك العنزى يجب أن يكونوا أعداء أيضًا لطالب الحماية . المراسلون الذين يعملون بين حلب وبغداد والبصرة هم دائما من العنيز ، وقد سبق لهؤلاء العنيز مرافقة السادة الإنجليز العائدين من الهند أو الذاهبين إليها ، أثناء عبور الصحراء . وعلى الرغم من وقوع بعض حوادث السلب والنهب على الطريق لبعض الرحالة والمسافرين بواسطة بعض القبائل العربية فإنه من المؤكد أن مرشدى هؤلاء الرحالة من العنيز – رغم حاجاتهم الشديدة إلى المال – قد أخلصوا تماما فى المهمة التى حملوها على عاتقهم . وهنا يتعين علىّ أن أشير إلى حقيقة ، هى من واقع تجربتى الخاصة : فى شهر يونيو من العام ١٨١٠ الميلادى ، بدأت من حلب بصحبة شيخ من شيوخ الفضعان . هذا الشيخ كان قد جرى سلبه ونهبه بالقرب من حماة بواسطة بعض من عرب الموالى ، الذين كان العنيز فى حرب معهم فى ذلك الوقت . كان القسم الأكبر من ممتلكات هذا الشيخ وإبل أعرابه قد أعيد من خلال نفوذ متسلم حماة ، وواصل الشيخ رحلته بعد ذلك . لكنه أصابه الخوف والرعب جراء وصول الوهابى إلى دمشق ، والذى كانت عائلته تخيم على مقربة منهم ، ورفض الشيخ أن يرافقنى إلى بلدة تدمر ، لكنه وفر لى مرشداً واحداً ليرشدنى بين الأنقاض ، فى حين مضى هو فى طريقه متجها صوب الجنوب . خشيت فى ذلك الوقت أن يكون الشيخ قد خدعنى ، لكن سرعان ما اتضح لى أن مرشدا واحداً كان كافيا تماما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ؛ فقد استقبلنى العرب الذين لقيناهم استقبالا بشوشا كريما ، وعدت مع المرشد عبر الصحراء إلى بلدة جيرود التى تبعد مسير اثنتى عشرة ساعة عن دمشق .

الضيف ، شأنه شأن المضيف أيضًا ، يكون معرضا فى الخيمة العربية للسلب والنهب أثناء الليل ، هذا السلب والنهب لا يكون بطبيعة الحال من قبل أى فرد من أفراد أسرة المضيف ، وإنما من قبل الحرامية أو النتالين . ولما كان المضيف على يقين من هذا الحال ، ومن باب الحرص والغيرة من أن ينال ذلك من كرامته ويثير من حوله الشكوك ، فإنه يحرص حرصا شديدا على المحافظة على فرس الضيف أو جمله ، وإذا كان المضيف غنيا وكريما فإنه يقوم بتعويض الغريب (الضيف) عن سائر الخسائر التى تنزل به عندما يكون فى ضيافته وفى ظل حماية كرمه .

الغرباء (الضيوف) الذين ليس لهم أصدقاء أو معارف فى المخيم ينزلون عند أول خيمة تصادفهم، وسواء أكان صاحب الخيمة حاضرًا أم غائبًا فإن الزوجة تقوم أو الابنة بفرد بساط من البسط ، وتبدأ فى تجهيز الفطور أو الغداء . إذا كانت مهمة الغريب تتطلب مقاما طويلا ، مثل عبور الصحراء تحت حماية القبيلة ، فإن المضيف بعد مرور ثلاثة أيام وأربع ساعات(*) – محسوبة من وقت مجىء الغريب – يبادر بسؤال الغريب إن كان سيشرفه بالبقاء معه مدة أطول . وإذا أعرب الغريب عن رغبته فى إطالة مدة زيارته فإنه ينتظر منه أن يساعد مضيفه فى أموره المنزلية ، مثل إحضار الماء ، وحلب الإبل ، وتقديم العلف للحصان ... إلخ. وإذا امتنع عن ذلك حق له البقاء ، لكنه سيصبح عرضة للانتقاد من عرب المخيم كلهم ، ومع ذلك يجوز له الانتقال إلى خيمة أخرى من خيام النزل (راجع ص٣٣ من الجزء الأول) ، ويعلن نفسه ضيفا عليها ، هذا يعنى أن مثل هذا الرجل قد يغير ضيافته كل ثلاثة أيام أو أربعة إلى أن تنتهى مهمته، أو وصوله إلى المكان الذى يبتغى الوصول إليه . عرب القبيلة النجدية يستقبلون الضيف بصب كوب من السمن على رأسه . وفى "المرقدة" – تلك القبيلة التى على حدود اليمن – يحتم العرف على الضيف تمضية الليل مع زوجة المضيف أيا كان عمرها أو حالها . وإذا أعجب الضيف السيدة جرى استقباله استقبالا حافلا وكريما ؛ أمّا إذا لم يعجب الضيف السيدة بعد تمضية الليل معها ، فإنهم يقطعون نصف عباءته الأسفل ،

(*) يجب أن نلاحظ هنا أن هذه الفترة الزمنية نفسها تعطى فرصة للجلاوى كى يهرب .

ويطردونه مكللا بالخزى والعار(*). وعندما اعتنق المرقدة المذهب الوهابى أجبروا على وقف هذا العرف(**) لكن موجة الجفاف والقحط التى حدثت لهم بعد ذلك ، والتى اعتبروها عقابا لهم عن تلك العادة القديمة التى ورثوها عن أجدادهم ، تقدموا بطلب إلى الأمير (عبد العزيز) ليسمح لهم باستضافة ضيوفهم على النحو السابق ، ووافق عبد العزيز على ذلك الطلب(***) . أن تقول لعربى إنه يهمل ضيفه أو لا يحسن معاملته، يعد أهانة وسبة من السباب البشعة . والعبارة التى يستخدمها العرب لهذه السُّبَّة هى "أنت باشع على ضيفك" أو "مطرَد ضيفك" .

العبيد والخدم

العبيد السود أمر شائع تماما بين العرب ، وفى كل عام يحصل كل شيخ من الشيوخ الأقوياء على عدد من العبيد يتراوح بين خمسة عبيد وستة، كما يحصل أيضًا على عدد من الجاريات اللاتى يأتين من بغداد ، حيث يجلبن إليها بواسطة تجار مسقط واليمن أو من مكة أو القاهرة . والعنيز يمتنعون عن معاشرة جواريهم ، لكنهن بعد أن يخدمن أسيادهن بضع سنين يحرروهن، ويزوجوهن لعبيدهم، أو إلى الأحرار من هؤلاء

(*) يبدو أن هذه الرواية التى قد يكون المؤلف سمع بها، لكن لم يرد فى أى من كتب التاريخ العربى ما يقيم دليلاً عليها. والمؤلف نفسه لم يحقق هذه الرواية التى جاءت على طريقة الحكي الذى سمعه من بعض مرافقيه عن مناطق لم يزرها المؤلف ، ولم يزرها الشخص الذى رواها له .

(**) لا أعتقد أن هذه الأفعال كانت موجودة عند زيارة بوركهارت ، ولعله قد سمعها من قبيل الحكايات المسلمة ولعلها كانت عادة جاهلية قديمة جاء الإسلام فقضى عليها . (المراجع)

(***) يورد بوركهارت فى كتابه المعنون "ترحال ....". هذا العرف الغريب من أعراف قبيلة المرقدة ، ويقول "أنثى من إناث الأسرة – غالبا ما تكون زوجة المضيف نفسه – خصصت للغريب (الضيف) لتكون رفيقة له أثناء الليل . لكنه يقول "إن العذراوات الصغيرات لا يضحى بهن مطلقا فى ذلك النوع من الكرم غير المتحضر أو الهمجى" . لكن كل أنواع الشكوك التى راودت بوركهارت حول حقيقة هذا الأمر أزيلت بواسطة شهادة أشخاص متعددين شهدوا هذه الحقيقة ، وذلك بغض النظر عن عدم اتفاق هذه الحقيقة مع أفكارنا الخاصة بالاحترام الذى تحظى به المرأة من قبل العرب .

العبيد الذين يعيشون مع القبيلة . العبيد يجرى تحريرهم أمام الشهود ، وكعلامة على تحريرهم يسمح لهم سادتهم بحلق رءوسهم . وابن إزمير لديه ما يزيد على خمسين خيمة مملوكة لأشخاص كانوا عبيداً فى يوم من الأيام ، وهم مدينون بثرائهم وثروتهم كلها لكرم وسخاء ابن إزمير . والرجل لا يستطيع حاليا الحصول منهم على فدية سنوية ؛ نظرا لأنهم أصبحوا عربا أحرارا . لكنه يطلب منهم أيدى بناتهم ليزوجهن من العبيد الذين اشتراهم وجرى تحريرهم مؤخرا . وفى حالة الحرب إذا حصل هؤلاء السود على غنيمة كبيرة فإن الشيخ قد يطلب منهم جملا لطيفا ، وهم لا يرفضون تحقيق مثل هذا الطلب. والعبيد على الرغم من تحريرهم يظلون يحتفظون بطابع الرق ، ويجب ألا يتزوجوا من بنات بيضاوات ، ولا يمكن للعربى الحر أن يتزوج بنتا سوداء . أبناء وبنات العبيد يتزوجون بعضهم من بعض ، كما يتزوجون أيضاً من الصُّونا ، أو العمال المقيمين مع القبيلة. وبصورة متدرجة يبدأ اختفاء مظهر هؤلاء العبيد الزنوج، وبخاصة الشعر ، لكنهم يظلون محتفظين فى ملامحهم بقدر كبير من أصلهم الزنجى . ويمكن القول بحق إن الصحراء السورية تحتوى على مخيمات كاملة من الزنوج ، الذين يغيرون مواقفهم بين الحين والأخر .

الأثرياء من الناس يقوم على خدمتهم خدم من العرب ، والعبيد يعاملون معاملة طيبة أو حانية ويندر أن يضربوا ؛ نظراً لأن القسوة قد تغريهم وتدفعهم إلى الهرب . والخادم يرفض أية ضربة أو لعنة تأتيه من مثيل له . كل خيمتين أو ثلاثة خيام لهم راع واحد ، أو إن شئت فقل شخص يرعى الماشية، وقد يكون ابنًا صغيرا أو خادما . هذا الراعى أو الخادم يتلقى أجرا عن عشرة أشهر . أما خلال الشهرين الأولين من فصل الربيع فإن الماشية ترعى وتتغذى حول الخيام دون حاجة إلى رعاية . وأجر الراعى أو الخادم عبارة عن " حُوار " ، و " الحُوار " هو الجمل الصغير الذى يبقى مع أمه إلى أن يبلغ من العمر عاما واحدا ، كما يحصل أيضًا على "خمسة"، أو أن، شئت فقل خمسة أشياء : " رزبول " (الرزبول هو الحذاء) ، و "توب" (قميص) وكوفيَّه أو إن شئت فقل منديل ، كما يحصل أيضًا على عباءة ، وجلد خروف . هؤلاء الخمسة يصل إجمالى ثمنهم إلى خمسة وعشرين شلنًا .

الطابع الأخلاقى البدوى

لعلَّ القارئ يكون قد توصل من خلال قراءته لهذه الصفحات إلى بعض من الظروف المتضاربة فى الطابع الأخلاقى للبدو ، وأن هذه الظروف المتضاربة يصعب التعايش معها . ونحن إن أردنا التحدث عن العرب بشكل عام لابد من التمييز الواضح بين العرب ، السكان المتجانسين الذين يعيشون فى الريف ، أو بالأحرى الفلاحين ، والأتراك ، أو إن شئت فقل العثمانيين الذى أخضعوا البلاد ، واستوطنوا المدن الحكومية كلها . ونحن هنا نتعامل أو نتناول البدو وحدهم ، لكن ينبغى ، ومن باب العدالة ، أن ننظر إلى الفلاحين ، وأن هذين الصنفين من الناس الذين سبقت الإشارة إليهما يجب الالتزام بهما ، ونحن نحاول وصف الشخصية السورية .

الحب الجامح للمال والمكاسب هو بمثابة الملمح الرئيسى فى الشخصية الشرقية ، هذا الحب الجامح للمال والمكاسب يتسود الطبقات كلها ، بدءا من الباشا إلى العربى الجائل . كما أن هناك قلة قليلة من الأفراد هم الذين لا يمارسون الوسائل الوضيعة والأعمال غير المشروعة طلبا للحصول على المال . من هنا نجد أن ما يشغل ذهن البدوى بصورة دائمة هو الكسب والمكسب، والمصلحة هى الدافع الرئيسى وراء تصرفات البدوى . يزاد على ذلك أن مضمون أعرافهم القضائية تثبت أن هذه الروح لا زالت قوانينهم تذكيها وتزيدها . من هنا نجد أن الكذب والغش والتآمر والرذائل الأخرى تنشأ عن هذا المصدر، ونراها تشيع فى الصحراء مثلما هى شائعة فى أسواق سوريا، وفى المناسبات العامة الخاصة بالبيع والشراء ، حيث لا يتطلب الأمر دخيلاً نجد كلمة العربى لا مصداقية لها أكثر من مصداقية اليمين التى يحلفها التجار فى أسواق حلب(*).

من هنا نجد أن العربى يستعرض شخصيته الرجولية عندما يدافع عن ضيفه على نحو يعرض حياته للخطر، وعندما يعرض نفسه لتقلبات الحظ المعاكس ، وعندما يعرض نفسه للكرب وللإحباط فى ظروف قاسية . العربى يتميز عن التركى بفضيلة الشفقة

(*) هذه الأوصاف القاسية التى نعت بها المؤلف العرب لا تعدو كونها انطباعات شخصية ، إذا ما وضعنا فى الاعتبار تلك الظروف الاقتصادية الصعبة ومشقة الحياة التى عاشها البدو . (المراجع)

والاعتراف بالفضل وبالجميل . وتلك الصفات ليست في الأتراك ، التركي قاس وغليظ القلب ، لكن العربي شفوق . والعربي يأسى للبائس ويسانده ، ولا يمكن أن ينسى مطلقا الكرم الذي ناله حتى ولو كان من عدوه . ولما كان العربي غير معتاد على سفك الدماء التي تصيب قلب العثماني بالغلظة والفساد ، فإن البدوي يتعلم في سن مبكرة تماما من حياته الامتناع عن المعاناة والتعذيب ، والتعلم من الخبرة والتجربة القوة الشافية للرحمة والمواساة .

العربي حر ميال إلى التنكيت والهزل ، وبشوش ومؤدب في حواراته المألوفة . التركي دساس وخطير ، وحريص في كلامه وفي خطابه ، كما أنه لا يضحك إلا نادرا ، ومبالغ ومفرط في الأوهام البالية غير الدقيقة . والعربي ليس بأي حال من الأحوال هو ذلك المخلوق الصامت الذي يصوره بعض الرحالة على هذا النحو . أنا على العكس من ذلك ، وجدت هذا العربي رفيقا لطيفا . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العرب أثناء الرحلات لا يتكلمون إلا قليلا ، لأنهم يعرفون أن الكلام الكثير في ظل الإرهاق الناتج عن الرحلات التي يقومون بها في فصل الصيف يثير الظمأ ويجفف الحلق ، لكنهم عندما يجتمعون تحت خيامهم تدور بينهم حوارات لا تنتهي ولا تتوقف. ومع ذلك فقد تهيأت لي فرص كثيرة أكدت لي صدق الملاحظة التي مفادها أن البدوي عندما يكون في المدينة يبدو مختلفا تماما عما هو عليه في الصحراء . البدوي يعرف أن أهل المدينة الذين يحتقرهم لديهم الكثير من الأفكار المضحكة أو الساخرة عن البدو ؛ ولذلك فهو يحاول أن يفرض نفسه على أهل الحضر عن طريق التظاهر بالصمت العميق من ناحية والقرار الحاسم من ناحية أخرى . يزاد على ذلك أن العبارات التي يستخدمها البدوي تكون محسوبة على نحو يكشف عن ثبات آراء البدو وعدم قابليتها للتغيير . لكن هذه الشخصية التي يتقمصها البدوي طلبا لتحقيق مآربه ومبتغاه يتخلى الرجل عنها بعد عودته إلى الصحراء . وهنا ينبغي أن نضيف أيضًا أن حديث البدوي وحواره ينطوي على أصالة أكثر من تلك التي نجدها في اللغة العربية المستخدمة بين سكان المدن ، الذين يلجأون مثل الأتراك إلى اللف والدوران للتعبير عن شيء ما ، أو توصيل معنى يستطيع البدوي توصيله بكلمتين أو ثلاث كلمات لا غير،

وعلى الرغم من أن البدوى فى بعض الأحيان عندما يكون فى المدينة يستعرض جُمَلا لا يستعملها هـو مطلقا (أنا بنفسي لم أسمـع بدويا وهـو يستعمـل هـذه الجُمـل) فى الصحراء . العرب الرحل هم بالقطع أذكى وأكثر تعقلا من أولئك الناس الذين يعيشون فى المدن ؛ أذهانهم صافية دوما ، وأرواحهم ليست مشوهة بسبب الدعارة ، ولم تفسد العبودية عقولهم ، وأنا على حق عندما أقول إن هناك أمما قليلة جدا تنتشر بينها المواهب الطبيعية على نطاق واسع مثل مجتمع البدو . والبدو فى المتع الحسية معتدلين جدا وغير مفرطين . والعربى عندما يكون لديه ما يكفيه من الطعام لا يهتم بنوعية الطعام ، أو بتلك الكماليات التى نطلق عليها نحن اسم " مباهج المائدة " . وفيما يتعلق بالنساء نجد أن العربى راض عن زوجته بشكل عام وقانع بها ، وحالات الخيانة جد نادرة تماما ، والبغاء والإيماس غير معروفين فى المخيمات العربية . والعرب يغارون على نسائهم، لكنهم لا يمنعوهن من الضحك مع الغرباء والحديث معهم. ويندر أن يضرب البدوى زوجته ، وإذا ما فعل ذلك نادت وصيها بأعلى صوتها ، الذى يقوم بتهدئة الزوج ، ويجعله يستمع إلى لغة العقل .

العربى فى خيمته كسول إلى أبعد الحدود ، وهمه الوحيد هو علف الحصان ، أو حلب الإبل فى المساء ، وهو من حين لآخر يخرج للصيد بصقره . والعربى عندما يستأجر رجلا لهذا الغرض فإن مهمته تتمثل فى العناية بقطعانه وماشيته ، فى حين تقوم الزوجة والبنات بالأعمال المنزلية . هن يقمن بطحن القمح فى الرحى اليدوية ، وقد يقمن بسحقه فى الهاون ، وهن اللاتى يقمن بتجهيز الفطور والغداء، وهن اللاتى يعجنَّ ويخبزن الخبز ، وهن اللاتى يعددن الزبد ، وهن اللاتى يجلبن الماء ، وهن اللاتى يعملن على النول ، وهن اللاتى يصلحن غطاء الخيمة . ولابد من القول هنا إن النساء لابد وأن يكن من النوع الذى لا يعرف الكلل أو الملل بعد كل ذلك ، وفى الوقت الذى نرى فيه الزوج أو أخاه جالسا أمام الخيمة يدخن الغليون ، أو يتفكر فى مجيء غريب إلى المخيم من خلال الدخان الكثيف المتصاعد من المُحَرِّم ، أو أن شئت فقل قسم النساء ، فى الخيمة ، حيث يجرى استقبال ضيف من الضيوف ، فيذهب إلى تلك الخيمة ويحيى الغريب ، ويتوقع وصول دعوة له لتناول الغداء وشرب القهوة مع الضيف .

العرب يحيون الغريب قائلين " سلام عليك ! " ، وهم يلقون ذلك السلام حتى على المسيحيين . وإذا كان الغريب من المعارف القدماء فإنهم يعانقونه ، وإذا كان من الكبار أصحاب المقام قبَّلوا لحيته . وبعد أن يجلس الغريب على السجادة التى يفردها المضيف له فور وصوله ، فإنه لمن قبيل الأدب المطلوب للصحبة كلها أن يسأل الضيف الحاضرين ، كلَّ أحدٍ باسمه ، عن أحواله . والعبارة الشائعة فى مثل هذا الحال هى "لعلك طيب" . وهم ينطقون هذه العبارة " علَّك طوى "، وهنا يبدأ الحوار المفعم بالحياة ، وهنا يروحون يسألون الغريب عن أحوال قبيلته وأحوال جيرانه ، كما يجرى أيضاً مناقشة أحوال البادية السياسية . يضاف إلى ذلك أن تحركات العرب المستمرة تساعد على نشر الأخبار على اختلاف أنواعها فى كل أنحاء الصحراء. والمدهش بحق هو تلك الأخبار الدقيقة والمعلومات الدقيقة أيضًا التى يحصل عليها العنيز عن شئون كل من نجد والحجاز والدرعية والعراق ، فى بلاد يندر فيها التواصل عن طريق الرسائل . علمت من شيخ الدروز أثناء مقامى فى الحوران أن بعضا من العنيز قد استطاعوا قبل أشهر عدة الحصولَ على معلومات استخباراتية مفادها أن الفرنجة، الذين يدعونهم "الإنجليز" – وهذا هو نطق البدو لكلمة – نزلوا على الجانب العربى من الخليج الفارسى، وأنهم استولوا على رأس الخيمة، وأنهم قتلوا كثيرا من العرب هناك ، وأن ابن عمٍّ ابن سعود من القتلى . لم يصدق أهل الحوران تلك الأنباء فى بداية الأمر . قالوا "نحن نعلم أن الانجليز جاءوا إلى عكا من اتجاه الغرب، فكيف لهم بالظهور ناحية الشرق منا؟" وعندما شرحت لهم الظروف كرروا الكلام ثانية "نحن نعلم أن هذا التقرير فيه شىء من الصدق؛ نظراً لأن العنيز لا ينشرون فى الصحراء خبرا بلا أساس".

على الرغم مما جاء فى الكتاب الثمين المختار الذى ألفه دارفييه عن السلوكيات العربية ، أجدنى أقول عن يقين إنَّ البدو بأى حال من الأحوال ليسوا قساة أو متزمتين بالصورة التى يرسمها لهم وأنهم دائمو البصق . صحيح أنه على حق فى روايته عن الرعب الذى ينتابهم إذا حدث خروج على اللياقة أو الذوق العام فى المجتمع ، وقد تأكد لدىَّ أن العربى الذى يُذاع عنه هذا النوع من الإساءات فى معظم الأحيان لا يعتد بشهادته أمام القاضى .

العرب فى معاملاتهم الخاصة يغشون بعضهم بعضا قدر المستطاع ، وهم يمارسون الربا سراً فيما بينهم .

فى فصل الربيع ، وعندما يقترب العرب من حدود سوريا ، يخرج حوالى عشرون بائعا جائلا من دمشق لزيارة مختلف القبائل . وهم يصحبون معهم كل السلع الحضرية التى يحتاجها العرب، من قبيل الملابس والبارود وحبات الرش والمسامير والحديد وحذيان الخيل والسيوف القصيرة المعقوفة والبن والتبغ والحلوى والتوابل واللجم المطلوبة لخيول شيخ القبيلة ... إلخ، وكل واحد من هؤلاء التجار الصغار يدفع مساهمة سنوية صغيرة لشيخ القبيلة التى يتردد عليها ذلك البائع ؛ من هنا يحظى مثل هذا البائع بحماية القبيلة له ، كما يتمتع بامتيازات العربى الحر كلها . ورأس المال الكلى المستثمر فى هذه التجارة لا يزيد على مبلغ خمسة جنيه إنجليزى أو ستة آلاف .

كل تاجر له خيمته الخاصة به ، وله أيضًا إبله الخاصة به ، وعندما يزور تجار عدة قبيلة واحدة فإنهم ينصبون خيامهم إلى جوار بعضها البعض ، مكونين من ذلك سوقا من نوع معين . والتجار يتبعون المخيم إلى الأماكن التى ينتقل إليها ؛ وبذلك فهم يتعرضون لكثير من الحوادث ، شأنهم فى ذلك شأن العرب أنفسهم . لكن لما كانت بضاعة أولئك التجار عبارة عن سلع ليس إلا ، ولما كانت الإبل تجرى سرقتها واقتيادها أثناء الليل بواسطة العدو ، فإن هؤلاء التجار يتبقى لهم ذلك الذى يكون داخل خيامهم. وأنا أعرف واحداً من هؤلاء الباعة الجائلين قد خسر كل ثروته وممتلكاته أربع مرات ، وقد استطاع استعادة ممتلكاته ذات مرة ، لأنه عرف الشخص الذى أخذها أثناء الهرج والمرج الذى جرى تحت جنح الظلام . ولما كان ذلك الرجل من القبيلة التى يقدم البائع لشيخها مساهمة سنوية صغيرة ، ونظرا لأنه كان على علاقة أخوية بذلك الشيخ ، فقد اضطر اللص – بناء على ضغط من وصى البائع (شيخ القبيلة) – إلى إعادة البضاعة المسروقة . هؤلاء التجار يبيعون بضاعتهم بأجل مدته عام ، وفى العام التالى يأخذون

ثمن هذه السلع زبدا وأغناما يبيعونها فور وصولهم إلى دمشق فى فصل الشتاء(*) . وإذا رغب رحال أوروبى فى زيارة المنطقة الداخلية من الصحراء فيما بين دمشق والخليج الفارسى فإنه يمكنه تحقيق مبتغاه في هذا الصدد من خلال عون ومساعدة هؤلاء الباعة الجائلين له . هؤلاء الباعة حسنو السمعة ويحظون بتقدير البدو لهم ، نصف هؤلاء البدو الجائلين من المسيحين ، الذين يحظون ويتمتعون بحماية شيوخ القبائل لهم، هذه الحماية التى يوفرها الشيوخ للأتراك أيضًا ، والسبب فى ذلك أن هؤلاء العرب ليسوا من المسلمين المتشددين ، ولا يفرقون بين المذاهب والنحل .

تقوم القبائل العنزية الرئيسية بتحصيل إتاوة من القرى الواقعة شرقى سوريا ، التى يخيمون بالقرب منها فى فصل الصيف . والقبيلة التى يكون لها فرد واحد فى القبيلة التى تدفع لها الإتاوة أو الفدية ، تصبح آمنة من حالات السلب والنهب التى تقوم بها هذه القبيلة، ويُسْتثنى من ذلك لصوص الليل ، الذين لا يحسون بأنهم مرتبطون بهذا القيد . هذه الإتاوة أو الفدية يجرى دفعها لشيخ القبيلة أو لرجل محترم من رجالها ، يصبح "أخا" للقرويين، ويطلق على القرية اسم "أخته". هذه التسمية هى التى جرى منها اشتقاق الاسم "خوة" بمعنى "أخوَّة". هذه الـ "خوَّة" عندما يجرى الاتفاق عليها أول مرة بين قرية من القرى وواحد من العرب – فإن ذلك العربى يطلب سداد المبلغ السنوى المتفق عليه مقدما . والعرب يسمون الشخص الذى يقوم بهذه "الخوة" "عاقد الخوة" أو "قاطع الخوة" . ويقوم "قاطع الخوة" بشراء بعض المأكولات من المبلغ المقدم ، ثم يقوم بتوزيع هذه المأكولات على أصدقائه حتى يمكن أن يكونوا شهوداً على الاتفاق، على اعتبار أنهم أكلوا قسما من "الخوة". وفى العام التالى يفرض "عاقد الخوة" مقدار الخوة كأنه مبلغ مستحق ، وتعد الهدية الصغيرة التى يطلبها فى العام التالى ، وكأنها مبلغ مستحق على العام الثالث . وهذا هو الحال بالنسبة للصرة أو الإتاوة التى

(*) يقوم العرب الذين يخيمون على الحدود الجنوبية الشرقية للحوران بإحضار أحمال من الملح ، الذى يجمعونه من البحيرة المالحة الصغيرة التى يطلقون عليها اسم إزراك ، والتى تبعد مسير ستة أيام عن دمشق ، فى اتجاه أقصى الجنوب الشرقى . هناك قلعة مدمرة بالقرب من هذه البحيرة ، كما أن هناك أيضًا ينابيع متعددة للماء العذب فضلا عن عدد هائل من النخيل .

تدفع للعنيز وللعرب الآخرين من موكب الحج ، والتى بلغ مقدارها فى موسم الحج الماضى ما يتراوح بين خمسين وستين ألف جنيه .

ماشية البدو وحيوانات الصحراء الأخرى

الإبل :

جمل الصحراء السورية أصغر حجما من جمل الأناضول والجمل التركمانى ، وأصغر حجماً أيضاً من الجمل الكردى . هذا الجمل السورى يتحمل الحرارة والعطش أفضل من الجمال الأخرى ، لكنه يتأثر تأثرا شديدا بالبرودة ، التى تتسبب فى قتل أعداد كبيره منها . الجمل الأناضولى له عنق غليظ مغطى بالوبر ، وهو أكبر وأقوى من جمل الصحراء ، ويحمل أحمالا أكبر ، وله منفعة بالغة فى جبال الأناضول ، لكنه لا يجود مطلقا فى الصحراء . السلالة الأناضولية من الإبل الناتجة عن عملية تهجين بين ناقة عربية وجمل أناضولى ذكر ذى سنامين جرى إحضاره من شبه جزيرة كريميا . الجمل الناتج عن عملية التهجين بين ناقة عربية وجمل تركمانى يطلق الناس عليه هنا اسم "كُفُرد" وهو جمل ضعيف لا يتحمل التعب والمشقة. والجمل التركمانى والناقة التركمانية إذا ما تكاثرا يعطيان جملا يسميه الناس "دالى" أو أن شئت فقل "المجنون"، وقد أطلق عليه هذا الاسم بسبب جنوحه وعناده . والناقة التركمانية هى والجمل التركمانى ذو السنامين إذا تكاثرا ينتجان سلالة يسميها الناس "طاوس". والطاوس هو جمل أنيق جدا لكنه صغير الحجم، وله سنامان صغيران أيضًا . ويقوم التركمان باجتثاث أحدهما بعد الولادة مباشرة ؛ لكى يصبح الجمل صالحا لنقل الأحمال. هذه السلالة من الإبل ينمو لها وبر كثيف وطويل أسفل أعناقها ، ويكاد ذلك الشعر أو الوبر يصل إلى الأرض . والجمل ذو السنامين إذا ما تكاثر مع ناقة عربية السلالة فإنهما ينجبان "مايا" أو "بَشرَك" ، وهو الجمل التركمانى العادى ، أو الجمل الأناضولى العادى أيضًا . يضاف إلى ذلك أن الجمال التى لها سنامان لا تستخدم فى النقل ، وإنما يجرى الاحتفاظ بها فقط لعملية التكاثر . والعرب ليس لديهم جمال لها سنامان ، ولم أسمع عن جمل ذى سنامين فى سوريا .

في بداية العام الثانى يزداد الطلب على الجمال الصغيرة ، ويجرى منع هذه الجمال الصغيرة من رضع ضروع أمهاتها ، لكن لا يجرى منع هذه الجمال من التغذى على أعشاب الصحراء ، ويجرى منع الجمل الصغير من امتصاص ضرع أمه عن طريق قطعه من الخشب، طولها حوالى أربع بوصات ومدببة الطرف يجرى إدخالها من أعلى باطن الحنك لتخرج من أنف الجمل . ومن أجل هذا الغرض نفسه يثبت التركمان عبر فتحتى أنف الجمل الصغير قطعةً من الخشب مدببة من الطرفين ؛ لتشك الأم فى ضرعها ، الأمر الذى يجعلها ترفس وتفر هاربة ، وبذلك يمكن التحكم فى إرضاع الإبل الصغيرة فى الأوقات المناسبة .

هذا الإرضاع المناسب يجرى من خلال وضع بعض أو كل حلمات ضرع الأم داخل كيس يصنعه العرب من وبر الإبل ويطلقون عليه اسم "شملة"، والخيط الذى يثبت هذه " الشملة " يمر من فوق جسم الناقة ، ويظل فى مكانه حتى بعد رفع الشملة . وقد لاحظت هذا الخيط فى السواد الأعظم من النياق فى الصحراء . بعض الناس يستخدمون بدلا من الشملة قطعةً صغيرةً مستديرة من الخشب فى تغطية حلمات ضرع الناقة . والإبل لا تتوالد فى سنوات القحط والجدب . والجمل الذى يبلغ من العمر عاما واحدا يقولون له " حُوار "، أما الجمل الذى يبلغ من العمر عامين فيقولون له " مفرود " أو " مخلول " أو " مخلال " ، أما الجمل الذى يبلغ من العمر ثلاث سنوات فيقولون له " حُج " ، والناقة التى عمرها أربع سنوات يسمونها " رباع " ، والجمل الذى عمره أربع سنوات يقولون له : "جذَع" .

والجمل يبدأ التناسل فى سن الرابعة، والجمل بعد المولود الأول يسمى "بكر"، وبعد المولود الثانى يسمى "ثنَّة" . معروف أن الإبل يصل عمر الواحد منها إلى أربعين عاما . والعرب يفضلون ركوب الجمل عن الناقة، على الرغم من أن الناقة تتحرك أسرع من الجمل . وإذا ما هاج الجمل وماج وتعذرت السيطرة عليه (وهذا غالبا ما يحدث فى موسم التكاثر) قاموا بإحداث ثقب فى إحدى فتحتى أنف الجمل، ومرروا من خلال ذلك الثقب خيطا يصنعونه من شعر ذيل الجمل . والعرب يطلقون على ذلك الخيط اسم "حُلب" ، ويربط العرب حبلا فى ذلك "الحُلب" ؛ وبذلك يستطيع راكب الجمل التحكم فيه والسيطرة عليه ، والجمل الذى يكون على هذا الحال يسمونه " دلول مخزوم " .

اللون البنى فى الإبل ليست له قيمة كبيرة ، أما الجمل الذى يميل إلى الاحمرار ، أو إلى اللون الرمادى الخفيف أو اللون الأحمر الضارب إلى اللون الرمادى ، فهو أكثر قيمة وأعلى قدرا . والعرب عندما ينوون نحر جمل يختارون ناقة عقيماً . والجمل عندما تنكسر رجله يبادر العرب بذبحه على الفور؛ نظرا لأنهم يعرفون أن هذا الكسر لا يمكن علاجه أو شفاؤه . إبل العرب تتغذى على أعشاب الصحراء ، والفلاحون السوريون شأنهم شأن التركمان، يقدمون لإبلهم فى المساء عليقة مكونة من معجون الشعير والماء، وهذه العليقة يطلقون عليها اسم " المعبوك " .

قبائل العنيز هى وقبائل أهل الشمال لا تصنع زبدا من حليب الإبل ؛ لأنهم يشربون ذلك الحليب ، ويقدمون بعضا منه لخيولهم . ووبر الإبل يستطيع الإنسان أن ينزعه عن جلد الجمل بمجرد لمسه باليد ، على أن يكون ذلك فى نهاية فصل الربيع ، ووبر الجمل يزن عادة أقل من رطلين. وسبق أن تحدثت عن الاستعمالات المختلفة لوبر الإبل. التركمان يصنعون من وبر الإبل نوعا من السجاد الخشن ، وهذا السجاد أقوى وأفضل من السجاد الذى يصنعه العرب.

إبل البدو كلها يجرى وسمها بميسم حار من الحديد ، وهذا الوسم بعلامات خاصة يُسهِّل التعرف على هذه الإبل إذا ما هربت ، أو حتى عندما تُسرق . كل قبيلة ، بل وكل طائفة ، أو بالأحرى عائلة ، لها علامتها الخاصة بها . والعرب يَسِمون الإبل على كتفها الأيسر ، أو على العنق . وفيما يلى بعض عينات من تلك العلامات :

1 2 3 4 5 6

7 8 9 10 11

١ – ابن ضوحى . ٢ – ابن إزمير . ٣ و ٤ – الطيار . ٥ – الحسين . ٦ و ٧ – البشر . ٨ و ٩ – بنو صخر . ١٠و ١١ – النايم .

إذا ما ضاع جمل من الجمال يروح صاحبه يقتفى أثره طوال ساعات عدة . والعرب يطلقون على اقتفاء الأثر هذا اسم " مسك الأثر " . والعرب يعرفون أيضًا من إفرازات الجمل على الطريق عدد الأيام التى أمضاها فى ذلك المكان ، ويمكنهم معرفة ذلك فى حدود خمسة أيام أو ستة . والمكان الذى يبرك فيه الجمل يسمونه " مبرّك " .

إبل الصحراء معرضة لأمراض كثيرة ، لكنها ليست عرضة للأوبئة . أخطر أمراض الإبل ثلاثة : أول هذه الأمراض تصلب وتيبس العنق ، والذى ينحرف فيه عنق الجمل إلى هذه الناحية أو تلك ، والجمل الذى يصاب بهذا المرض يسمونه "مطيور" ، هذا المرض يجعل الجمل يمتنع عن الطعام وينفُق خلال أيام قلائل . المرض الثانى اسمه "مهمور" ، وهو عبارة عن إسهال شديد يهاجم الإبل التى تبلغ من العمر عامين ، ويفضى دوما إلى النفوق . المرض الثالث يسمونه " مجعوم "، وهذا المرض ينتج من ابتلاع الجمل لعشب الصحراء الملوث بشىء من روث الأغنام والماعز من العام السابق ، وهذا يسبب للجمل مغصا عادة ما ينتهى بالنفوق ، هذا المرض لا يصيب الإبل كاملة النمو . والعرب لا يعرفون لهذا المرض دواء شأنه شأن المرضين السابقين ، لكن العرب يصدقون بأن اليهود لديهم فى ثقافتهم المقدسة دواء لتلك الأمراض ، لكنهم يحجبون تلك العلاجات من باب الحقد والكراهية . هناك بعض الأمراض الأقل خطورة مثل الجدرى ، الذى يظهر على شكل بثرات خفيفة حول جسم الجمل ، وبخاصة الإبل التى يكون عمرها عامين ، وهذا المرض لا يسبب كثيراً من المضايقات . هناك مرض آخر يسمونه "الأضبط"، وهو عبارة عن تورم شديد فى أقدام الجمل . و"الأقوة"، وهو عبارة عن تيبس فى حوافر الجمل . والعرب يقولون للجمل " أخرد " ، عندما يطرح رجليه ويشكل بهما دائرة كبيرة قبل أن يضعها على الأرض مرة ثانية.

الغنم والمَعْز : عرب أهل الشمال أغنى الناس من حيث المَعْز، أما العنيز فهم أغنى الناس من حيث الغنم . أغنام العرب ليس لها إليات سمان مثل التى للغنم فى البلاد الأخرى. وآذان أغنام العرب أكبر من آذان الأغنام الشائعة فى السلالة الإنجليزية.

والماعز فى معظمه أسود اللون ، وله آذان طويلة . والطَّلْى فى عامه الأول يسمونه "خاروقًا " ؛ وفى عامه الثانى يدعونه " قرقويا " ، وفى عامه الثالث يسمونه " كبشا " . والماعز فى عامها الأول يسمونها " سحلة " ، وفى عامها الثانى يدعونها " معزة " أو "ثنية". والحملان والجديان التى ترضع اللبن يسمونها " بَهَم "، والمعزة الأنثى عندما تفقد حليبها يسمونها " غرزة ". والغنم والماعز يجرى حلبها طوال أشهر الربيع الثلاثة فى الصباح وفى المساء . هذه الغنم والماعز يجرى دفعها للرعى قبل شروق الشمس ، فى حين يبقى الحملان والجديان بالقرب من المخيم . وعند الساعة العاشرة تقريبا يعود القطيع ؛ وهنا يسمح للصغار بإشباع أنفسهم ، وبعد ذلك يجرى ربط الماعز الإناث كلها فى حبل طويل ثم يجرى حلبها الواحدة بعد الأخرى . وعندما تكون هناك معزة معتلة الصحة أو ضعيفة يجرى ترك حليبها كله لصغيرها ، والعرب يطلقون على مثل هذه الماعز الأنثى اسم " مهجل " . الشيء نفسه يحدث عند غروب الشمس . العرب يحصلون من ألبان ثلاثمائة من الماعز (التى يجرى خلط ألبانها ببعضها البعض) حوالى ثمانية أرطال من الزبد يوميًا وذلك فى الأعوام المعتادة ، أو ما يعادل حوالى سبعمائة وزنة طوال شهور الربيع الثلاثة . الأسرة العربية تستهلك فى العام قنطارين من الزبد ، ويجرى بيع الباقى للفلاحين وللحضر . والعرب يبيعون الخراف والجديان أو يذبحونها ، اللهم إلا باستثناء اثنين أو ثلاثة منها يبقى البدو عليها من أجل التكاثر . فى سنوات القحط والجفاف لا تلد الأغنام أو الماعز . نياق الحليب والغنم والماعز فى الصحراء يطلق البدو على حليبها اسم " لبن "، وقد يسمونه فى بعض الأحيان "حليبًا" العنزيون يجزون أغنامهم مرة واحدة فى العام ، فى أواخر فصل الربيع ، وهم عادة ما يبيعون الصوف قبل أن يجزونه ، ويتقاضون مبلغا نظير صوف كل مائة من الغنم .

الأمراض الوبائية نادرة الحدوث ونادرة العنف والقسوة أيضًا بين قطعان العنيز ، لكن الأغنام الكردية التى تأتى من بلاد الرافدين على العكس من ذلك ، ويجرى توريدها إلى أسواق حلب ، والبعض منها إلى أسواق دمشق ، وإلى جبال الدروز كل هذه الأغنام معرضة للأمراض الوبائية . وفى ربيع العام ١٨١٠ الميلادى نفق من هذه الأغنام ما يزيد على ألف رأس فى مرعى من مراعى جبل ليبانوس، والعنزيون عندما

يكونون على وفاق مع الوهابيين يصبح من عادتهم الذهاب إلى نجد كل عام محملين بالدولارات والسلع لشراء الإبل والأغنام . هذه الأغنام النجدية يطلق عليها العنزيون اسم " الرخيمى " ، وهى فى معظمها أغنام سوداء اللون ، ولا يكون فيها من اللون الأبيض سوى العنق والرأس وأحيانا الجبهة وحدها . وهذه الأغنام لها ذيل طويل ولكنه غير سمين . العنزيون يأتون بتلك الأغنام من نجد فى فصل الشتاء ؛ على أمل أن يصلوا بها إلى سوريا فى مطلع الربيع ، لكى يبيعوها لقصابى دمشق ، ولقصابى جبل الدروز الذين يذبحون هذه الأغنام على وجه السرعة ، وذلك من واقع الخبرة التى استقوها ، والتى مفادها أن الأغنام التى يجرى تركها تسمن فى سوريا تنفق عقب وصولها بشهر تقريبا .

الخيول : كلامى هنا ينصب على خيول الصحراء ، لكن الخيول التركية يجرى التعامل معها على نحو مختلف تماما ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين من الناحية العلمية أعلى قيمة بكثير من البدو فيما يتعلق بالنواحى العلمية التفصيلية الخاصة بالخيول. سوريا فيها ثلاث سلالات من الخيول : السلالة العربية الأصيلة النقية ، والسلالة التركمانية ، ثم السلالة الكردية التى هى خليط من السلالتين السابقتين . والخيول العربية صغيرة الحجم بشكل عام ، وهى من حيث الارتفاع لا يزيد ارتفاعها على أربع عشرة قبضة ، لكن قلة قليلة من هذه الحيوانات هى التى لها أشكال دميمة ، ولكنها بصفة عامة لها خصائص جمالية مميزة، تميز سلالة هذه الحيوانات عن السلالات الأخرى . والبدو يحصون خمس سلالات أصيلة من الخيول ، ويرون أن هذه السلالات منحدرة ، على حد قولهم ، من أفراس النبى ﷺ الخمس : "طويسة" ، و"معنقية" ، "كحيل" ، و "سقلاوية" ، و "جلفة". هذه السلالات الخمس الأصيلة تنقسم إلى فروع وتشعبات لا حصر لها . كل فرس سريعة وجميلة من أية سلالة من هذه السلالات الخمس يمكن أن تكون أصلا لسلالة جديدة ، يمكن أن يطلق اسمها على كل الخيول التى تكون هى أمًا لها ؛ من هنا نجد أن أسماء السلالات العربية فى الصحراء لا تحصى ولا تعد . وعند مولد مهر من سلالة أصيلة فإنه قد جرت العادة أن يكون ذلك فى حضور بعض الشهود ، وأن تدون العلامات المميزة لذلك المهر الوليد ، على أن يدرج

ضمن هذا التدوين اسم الأب واسم الأم . هذه الجداول السلالية لا تأتى على ذكر الجدة الأصيلة مطلقا ، والسبب فى ذلك أن العرب يعرفون أو يفهمون أن كل عربى من عرب القبيلة يعرف بحكم الموروث نقاء وأصالة السلالة كلها . والعرب يطلقون على الجداول السلالية اسم "الحُجَّة"، والأمر لا يتطلب توفر هذه الشهادات السلالية ، والسبب فى ذلك أن كثيراً من الخيول والأفراس تكون واضحة السلالة على نحو يجعل آلاف البشر يشهدون على نقاء دم الفرس وأصالتها .

نسب الفرس يجرى وضعه فى قطعة صغيرة من الجلد ، مكسوَّة بقطعة من القماش المخلوط بالشمع ، ويجرى تعليقها فى رقبة الحصان أو الفرس . وفيما يلى نموذج من قطع الجلد التى تحمل نسب الفرس :

"بسم الله الرحمن الرحيم"، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وصحبه إلى يوم الدين ، والسلام على كل من يقرأ هذه الكتابة ويفهم معناها . العمل الحالى يتصل بالفرس رمادية اللون الضاربة إلى اللون البنى ، ذات الأقدام البيضاء الأربعة ، وعلامة بيضاء على الجبهة ، والتى من سلالة سقلاوية نقية ، واسمها "أوبيان" ، والتى جلدها ناصع وصاف مثل الحليب، والتى تشبه تلك الخيول التى قال عنها النبى ﷺ : "الثروة الحقيقية فى الخيول الأصيلة" ، والتى قال الله (جل جلاله) عنها: "رباط الخيل" هى تلك التى تندفع على العدو وأنوفها مفتوحة ، تلك التى تدخل المعركة فى الصباح الباكر . والله (جل جلاله)(*) لا يقول إلا حقا فى كتابه الكريم . الفرس السقلاوية الرمادية اشتراها خُشرٌ بن إمحيت ، من قبيلة زباع ، وهو من عرب العنيز . ووالد هذه الفرس (المهر) هو الحصان الممتاز المدعو "مرجان" ، الذى من سلالة الكحيلان ، وأمه هى الفرس السقلاوية البيضاء الشهيرة ، المعروفة باسم "جروة" ،

(*) لقد اختلط على المؤلف الفرق بين مأثورات العرب ومقولاتهم وبين القرآن الكريم والسنة النبوية، وما ورد فى القرآن الكريم عن الخيل :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة النحل آية ٨ ومن الأحاديث النبوية قول الرسول ﷺ : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة». (المراجع)

وفى ضوء ما شاهدناه ، نحن نشهد هنا على آمالنا فى السعادة ، ونشهد أيضًا على أحزمتنا يا شيوخ ، ويا مُلاَّك الخيول ! نشهد أن هذه الفرس الرمادية سالفة الذكر أصيلة مؤصلة أكثر من أبيها وأمها . ونحن نشهد على ذلك من واقع معرفتنا الممتازة ، ونقر أن هذا الشأن كامل وحقيقى . والشكر لله رب العالمين .

"تحرر فى اليوم السادس عشر من شهر صفر من العام ١٢٢٣ الهجرى.

الشهود : فلان ، وفلان"

هذه الشهادة جرت ترجمتها ترجمة أمينة من الشهادة السلالية العربية ، المكتوبة بخط يد البدو . العام الهجرى الذى دونت فيه هذه الشهادة وهو عام ١٢٢٣ ، المقابل للعام ١٨٠٨ الميلادى .

العرب بلا استثناء يركبون الأفراس ويبيعون الذكور للحضر أو الفلاحين ، ويتراوح سعر الحصان فى سوريا بين عشرة جنيهات ومائة وعشرين جنيها إنجليزيا ، هذا السعر الأخير هو أعلى ما سمعته هنا بل وفى حياتى كلها . ونظرا لأن الإنجليز فى كل مكان من بغداد والبصرة يشترون هذه الخيول العربية ويرسلونها إلى الهند ، فقد ارتفعت أسعارها ارتفاعًا كبيراً . وهذا هو المرحوم السيد ماسيك ، قنصل هولندا فى حلب ، يشترى فى العام ١٨٠٨ الميلادى عشرين رأسًا من هذه الخيول العربية لحساب بونابرت ويدفع ما بين ثمانين جنيهًا إلى تسعين ثمنا لكل واحد منها . والفرس العربية الأصيلة لا يمكن الحصول عليها بأقل من ستين جنيها إنجليزيا ، وحتى إن توفر مثل هذا الثمن يتعذر على أهل الحضر شراء فرس من هذه الأفراس . العرب أنفسهم يدفعون ما يصل إلى مائتى جنيه إنجليزى ثمنا للفرس الأصيلة المؤصلة ، وقد ارتفع هذا الثمن إلى ما يزيد على خمسمائة جنيه. الشيخ الحالى ، أو إن شئت فقل إزمير الموالى، لديه فرس نجدية دفع (على حد قول التعبير العربى) أربعمائة جنيه استرلينى ثمنا لنصف بطنها . والعنزى عندما تكون لديه فرس أصيلة لا يوافق على بيعها مطلقا ما لم يحتفظ لنفسه بالنصف أو الثُلثين . وإذا باع العربى نصف الفرس فقط يسمح للمشترى بأخذ الفرس ، شريطة أن يلتزم بأن يعطى للبائع المهر الذى

تلده الفرس ، أو يعيد الفرس للبائع ويحتفظ هو بوليدها . والعربى إذا باع الثلثين من الفرس أخذها المشترى إلى بيته ، لكن يتعين عليه إعطاء البائع وليديها فى عامين متتالين ، أو أن يعيد الفرس إلى البائع ومعها وليد واحد من هذين الوليدين . أما مولود العام الثالث وما بعده فتصبح كلها هى والفرس ملكا للمشترى هى والذكور ، سواء كانت تلك الذكور من مواليد العام الأول أو فى الأعوام التى تليه ، هذا العقد يطلق العرب عليه اسم "بيع نصف أو ثلث بطن الفرس". وبذلك يمكن القول إن ملكية السواد الأعظم من الأفراس العربية تعد ملكية مشتركة بين شخصين أو ثلاثة أشخاص ، أو حتى ستة أشخاص إذا كان ثمن الفرس مرتفعا جدا . أهل الشمال من عاداتهم أن يبيعوا نصف أفراسهم ، ويأخذوا نصف الإناث ونصف الذكور أيضًا . والفرس يباع أيضًا على أساس من اقتسام الغنائم التى يحصل عليها راكبها مع البائع مناصفة .

وليد الفرس يطلق العرب عليه حتى نهاية عامه الأول اسم "الطريح"، ويطلقون على هذا الوليد فى عامه الثانى اسم "حولية"، وفى العام الثالث يسمونه "جدع"، وعندما يدخل الوليد عامه الرابع يسمونه "ربعية" ، ثم يسمونه بعد ذلك "فرسًا" أو قد يواصلون العد ، كأن يقولوا "خامسة" و "سادسة" ... إلخ ، والوليد الذكر يسمونه "فلو" أو "مهر" .

عقب ولادة الفرس مباشرة يربط العرب أذنى الوليد إلى بعضهما البعض فوق رأسه، مستعملين فى ذلك خيطا، وذلك حتى يمكن أن يكون لهاتين الأذنين اتجاه مدبب لطيف، والعرب فى ذات الوقت يرفعون ذيل الوليد إلى أعلى ، ويلجأون إلى إجراءات أخرى تساعد على رفع الذيل إلى الأعلى. والرعاية الوحيدة التى تحظى الأم بها بعد أن تضع وليدها هى لف جسم هذه الفرس بقطعة من القماش أو الكتان ، يجرى لفها حول جسمها ، ويجرى رفع قطعة القماش هذه فى اليوم التالى.

وإذا كانت الفرس غير مملوكة كلية لواحد من العرب يصبح من مسئولية مقتنيها ، ويقوم فى اليوم التاسع بعد الوضع بإحضار بعض الشهود ، ويعلن أمامهم انتواءه إعطاء الوليد الجديد لبائع الفرس، أو الاحتفاظ به وإعادة الفرس إلى بائعها. والعرب يطلقون على هذه العملية اسم "قسم وشهد" . والمشترى بعد أن "يقسم ويشهد" يتحتم عليه

الالتزام بما قطعه على نفسه . وأبناء الفرس يبقون معها مدة ثلاثين يوما بعد الولادة، ثم يجرى فطم الأبناء بعد هذه المدة ويجرى إعطاؤهم لبائع الفرس، أو يقوم هو بتربيتهم على حليب الإبل . وعلى امتداد مئة يوم بعد فطام الصغار لا يجرى تغذيتهم إلا بألبان الإبل . الأكثر من ذلك أن الماء يمنع تماما عن هذه الصغار طوال هذه الفترة . بعدها يتلقى المهر الصغير عليقة يومية عبارة عن شيء من القمح المبلل بالماء ، في البداية تقدم للمهر الصغير مجرد حفنة واحدة ، ثم تزاد هذه الكمية بصورة متدرجة ، لكن يظل حليب النياق هو الطعام الرئيسى لذلك المهر الصغير ، وتستمر تغذية ذلك المهر الصغير بهذه الطريقة مدة مئة يوم أخرى . وخلال هذه الفترة يسمح لذلك المهر الصغير بالتغذى على الحشائش القريبة من الخيام ، كما يسمح له – أيضًا – بشرب الماء . بعد انقضاء المئة يوم الثانية يجرى تقديم الشعير للمهر الصغير ، وإذا كان حليب الإبل متوفرا قام العرب بتقديم دلو منه كل مساء إلى المهر الصغير مع وجبة الشعير .

العنزيون يربون الخيول الوليدة الصغيرة على النحو التالى :

العربى الذى يذهب إلى السوق فى سوريا بمهر عمره عامان أو ثلاثة أعوام يقسم على أن المهر لم يذق من الطعام شيئا سوى حليب الإبل . وهذا ليس صحيحا، نظرًا لأن الخيول العربية فى الصحراء السورية لا تتغذى على حليب الإبل وحده طوال الأشهر الأربعة الأولى .

عرب نجد – على العكس من ذلك – لا يقدمون الشعير أو القمح لخيولهم ، التى تتغذى على عشب الصحراء ، وتشرب كميات كبيرة من حليب الإبل ، كما تغذى الخيول أيضًا على عجينة من التمر والماء . والعربى النجدى ، وأحيانا العنزى يقدم للحصان المفضل لديه شيئًا من طعامه أو من بقايا هذا الطعام .

معروف أن العرب ليسوا على المستوى المطلوب مثل الأوروبيين فى اختيارهم للحصان ، والسبب فى ذلك أن العرب يعزون خصائص الحصان الوليد للأم أكثر منها للأب . ومع ذلك فقد سمعت عن بعض العرب الذين قاموا برحلات بأفراسهم استغرقت أياما عدة ، على أمل تلقيحها من حصان أصيل ، والعربى يدفع دولارا واحدًا أو خروفا واحدًا ثمنا لهذا النوع من التلقيح .

العرب يحتفظون بخيولهم طوال العام فى الهواء الطلق ، وأنا لم أر مطلقا واحداً من تلك الخيول مربوطا فى فصل الشتاء فى خيمة صاحبه ، وهذا على عكس ما نشاهده ونراه عند التركمان ، الحصان العربى شأنه شأن صاحبه ، معتاد على تقلبات فصول العام ، وعلى الرغم من ذلك الاهتمام القليل الذى يلقاه هذا الحصان فإنه لا يصيبه المرض إلا نادرا . والعرب لا ينظفون خيولهم أو يفرِّشونها مطلقا لكنهم يحرصون على تمشية هذه الخيول مشيا هينا بعد أن يركبوها . وسرج الحصان لا يرفع من على ظهره إلا نادرا بعد أن يبدأ العربى امتطاء صهوته (وغالبا ما يكون ذلك فى العام الثانى من عمر الجواد) . وفى فصل الشتاء يوضع فوق السرج كيس من القماش، وفى فصل الصيف يجرى تعريض جسم الجواد لحرارة الظهيرة . والعربى الذى ليس لديه سرج لجواده يركبه باستعمال جلد محشى من جلود الأغنام يطلقون عليه اسم: "مضقع" وبدون ركاب . والعرب كلهم يركبون الخيول بلا لُجُم يستعملونها فى التحكم فى الحصان ، ويستعملون " حَكَمة " بدلا من ذلك اللجام . وينبغى ألا يكون ذلك مدعاة لدهشة القارئ الأوروبى إذا ما عرف أن الحصان العربى عالى المزاج تماما ، وأنه خال تماما من الرذائل ، بل إن هذا الحصان البدوى صديق لصاحبه . العرب لا يمارسون لعبة "الجريد"، تلك اللعبة التى تحطم الخيول التركية قبل أن تكتمل قوتها . واقع الأمر أن العرب يجهلون طابع الفروسية التركية ، كما يجهلون أيضاً تلك المظاهر والأعمال التى يتباهى بها العثمانيون . ومع ذلك فإن من عادة العرب ركوب الخيل بلا سرج أو لجام ، وعادتهم أيضاً استعمال الحراب والحصان يجرى بأقصى سرعته، وعادتهم فى المحافظة على توازنهم فوق الحصان الراكض منذ الطفولة، هذا كله يعطى العربى جلسة أكثر ثباتا على ظهر الحصان من جلسة العثمانيين الذين يتباهون بها ومع ذلك يظل العثمانى رشيقا فى امتطائه لصهوة جواده .

العرب يجهلون أيضاً تلك الحيل التى يلجأ إليها تاجر الخيول الأوروبى لخداع المشترى . هذا يعنى أن الإنسان يمكن أن يشترى حصانا من العربى منذ الوهلة الأولى دون خوف من الغش أو الخداع ، لكن قلة قليلة من هؤلاء العرب هم الذين

يستطيعون معرفة عمر الجواد من أسنانه . حدث أن نظرت مرة إلى داخل فم فرس في وجود صاحبها وفي حضور كثير من العرب فظنوا فى البداية أنى أمارس عملا سحريا ، وعندما عرف صاحب الفرس أن عمرها يمكن تقديره بهذه الطريقة بدت عليه الدهشة ، وتمنى لو أنى قلت له عمره عن طريق فحص الأسنان .

العرب يؤمنون أن بعض الخيول مقدر عليها الوقوع في حوادث سيئة ، وهم مثل العثمانيين يظنون أن أصحاب الخيول لابد آجلا أو عاجلا من أن يمروا ببعض الأحداث السيئة ، التى لها علامات معينة على أجساد الخيول . من ذلك مثلا أن الفرس التى يكون لها نجمة على الجانب الأيمن من العنق لابد وأن تقتل بطعنة من حربة ، أما إذا كانت تلك النجمة على عظام الساق فذلك يعنى، حسب ظن العرب، أن زوجته ستخونه ، ومعروف أن العربى شكاك أو يتملكه الشك . هناك حوالى عشرين أو ما يزيد على ذلك من تلك العلاقات السيئة ، وهذه العلاقات تقلل كثيرا من ثمن الفرس التى تكون مصابة بواحدة من هذه العلامات ، وقد يقلل ذلك من ثمن الفرس بأكثر من الثلثين .

العرب لا يعلّمون خيولهم كما يتصور البعض ، لكن الميسم الحار الذى يستخدمونه دوما فى علاج الأمراض يترك أثرا على الجلد يبدو كما لو كان علامة مقصودة .

والعرب يطلقون على الحصان الأبيض " أشهب " أو " خاضر " ، ويقولون للحصان الرمادى اللون " أزرق " ، ويقولون للحصان الرمادى الداكن " صفر " ، ويقولون للحصان أسود اللون " أدهم " ، ويطلقون على المهر الكُميت " أحمر " ، والحصان الكميت الذى ليست به أية علامة بيضاء يسمونه " أحمر صحّة " ، ويقولون للفرس الأسمر الضارب إلى الحمرة " أشقر " ، ويقولون للحصان الكميت الغامق "أحمر محروق" ، ويقولون للحصان الكميت الذى له أربعة أقدام بيضاء "أحمر محجّل" ، والحصان الذى له ثلاثة أرجل بيضاء ، والذى لون رجله الرابعة اليسرى مثل لون جسمه يسمونه " مطلق اليمين " أو " محجّل الثلاث " .

فيما يلي أورد بعض الأسماء التي يطلقها البدو علي أمراض الخيول :

الغاص – السراجة : داء من أمراض الخيول ، والعرب يعدون هذا المرض واحداً من الأمراض التى يستعصى علاجها أو شفاؤها .

الحروق : هذا المرض يحرق لحم الحصان فى المنطقة المحيطة بالتورم .

عقر السُرَّا : ليس لديهم علاج لهذا المرض .

عُصَر الصُقْها : وهو ما يعرفه الناس بأنه الانتفاخ النبرى ، وهو عبارة عن انتفاخ تحت جلد ظهر الحيوان ناتج عن يرقة النَّبر . وهم يفتحون تلك الأورام ويضعون داخلها فتيلاً مصنوعًا من حبل غير مجدول ، يقومون بتغييره مرات عدة ، ثم يغسلون الجرح بعدئذ بالصابون والماء ، ثم يدعكونه بعد ذلك بالملح إلى أن يجف الدم الذى ينساب من الجرح ، ثم يغسلون الجرح مرة أخرى ، ويضعون عليه ضمادة جافة مصنوعة من قشر الرمان وأوراق الحناء .

المحمور : إذا كان ذلك المرض ناتجا عن إكثار الحصان من شرب الماء البارد بعد المجهود الشاق فإن العرب يفقدون الأمل فى علاج الجواد ، أما إذا كان مرض المحمور ناتجا عن الإفراط فى الغذاء فإن العرب يستنفدون شيئًا من الدم من أرجل الحصان ، ويلفون على جسم الحصان جلد خروف جرى ذبحه على الفور، كما يستعمل العرب البيض أيضًا (إذا ما تيسر لهم ذلك) ويدهنون بصفاره وبياضه المكان المصاب من جسم الفرس .

وهناك مرض آخر يسميه العرب "**مقطوع القلب**"، ومرض آخر يسمونه "**المصفور**".

السقاوة : فى علاج هذا المرض يقوم العرب بحرق قطعة من الكتان الأزرق ، الذى جرى صبغه بصبغ النيلة ، ويجعلون الدخان يتصاعد إلى أنف الفرس . وهذه العملية تصادف إحداث تفريغ للدُّمَّل ، ويقوم العرب بدعك الأورام بعجينة يصنعونها من قشر الشعير والزبد .

والعرب يعرفون مرضا آخر من أمراض الخيل يسمونه " **بجر** "، وثمة مرض آخر يطلقون عليه اسم " **الخنزير** " . والعرب يطلقون على صداع الرأس العنيف اسم "**نعورة**" ومرض البجر الذى يصيب ذيل الحصان من أسفله يسميه العرب "**حتوت**" ، كما يعرف العرب أيضًا مرضا أخر عبارة عن تورمات مائية فوق معدة الحصان ، ويطلقون عليه اسم " **الباش** ".

الكى عند العرب أشهر العلاجات التى يستعملونها لأمراض الخيول التى يتعاملون معها كما لو كانت مخلوقات بشرية . العرب لا يركبون خيولهم دون حديد السنابك ، وهم يطلقون على حديدة سُنْبُك الحصان اسم " حدوة" ، ومجموعة الحدوات الأربع يطلقون عليها اسم " طباقة حَدِو " ، والمجموعة المكونة من اثنتين يسمونها " صدر " ، والواحدة من هذه الحدوات يسمونها " وطية " والعرب يسمون اللجام " صروغ " ، واللجام الذى به لقمة يسمونه " عنان " ، وسير الجلد أو الحبل الذى تربط به الحَكَمة على رأس الحصان يسمونه " عذار " ، والعرب يطلقون على قماش السرج اسم "طُرَّاحة" . لكن هذه الكلمات كلها عبارة عن مصطلحات بدوية ، والسوريون يعبرون عن هذه الأشياء بمفردات مختلفة تماما .

والفرس عندما يكبر سنها وتصبح غير صالحة للحرب يبيعها صاحبها لشيخ القرية أو لواحد من الحضر ، على أن يحتفظ لنفسه بنصفها أو ثلثيها من تناسلها المستقبلى .

النعام : يعيش النعام فى الصحراء السورية الكبرى ، وبخاصة ذلك الوادى الذى يمتد من الحوران فى اتجاه جبل الشمر ونجد . هناك بعض النعام فى الحوران ، وبعض من هذا النعام يجرى اصطياده كل عام على بعد مسافة لا تزيد عن مسير يومين من دمشق . والعرب يطلقون على ذكر النعام " ضليم "، والنعامة يقولون لها "رَيدة". وريش الضليم (ذكر النعام) لونه أسود ، وطرفه أبيض اللون ، باستثناء ريش الذيل الذى يكون أبيض تماما . أما ريش النعامة فهو مرقط باللون الرمادى .

والنعام يتكاثر فى منتصف الشتاء ، وتضع النعامة عددا من البيض يتردد بين اثنتى عشرة بيضة وواحدة وعشرين بيضة . والعرب يطلقون على عش النعام اسم "مَدْحة" ، والنعامة تقيم مثل هذا العش عند سفح تل من التلال المعزولة . وتضع بيضها

على شكل دائرة شبه مدفون فى الرمل ؛ لكى تحميه من المطر . وتقوم النعامة بعمل خندق ضيق حول البيض كى يعمل على تصريف الماء من حولها . وعلى بعد مسافة تقدر بحوالى عشرة أو اثنى عشر قدما من هذه الدائرة – تقوم النعامة بوضع بيضتان أو ثلاثة أخرى لا ترقد عليها ، ولكنها تتركها ليتغذى عليها الصغار عقب خروجهم من البيض مباشرة . يتناوب الوالدان الرقود على البيض . وفى الوقت الذى يرقد فيه أحدهما يكون الأخر واقفا ومستعدا على قمة التل المجاور ، وهذا هو الظرف الذى يمكن العرب من اصطياد هذه الطيور . والعرب عندما يلمحون نعامة واقفة بهذه الطريقة فوق تل من التلال – يعرفون أن هناك بعضا من بيض النعام فى مكان قريب . وسرعان ما يعثرون على العش ، وهنا تهرب النعامة . ويحفر العرب حفرة فى الأرض حول بيض النعام وبالقرب منها ، ثم يقوم العربى بوضع بندقيته المحشوة بالبارود فى هذه الحفرة ، بعد أن يثبت فى القفل عود ثقاب طويل قابل للاشتعال ، وتكون البندقية موجهة ناحية البيوض ، ويغطى البندقية بالأحجار ويبتعد عنها . قبيل المساء يعود الوالدان ، وبعد أن يلاحظا عدم وجود الأعداء يستأنفا نومهما فى آن واحد فوق البيض، وتنطلق البندقية فى الوقت المناسب . وفى صباح اليوم الثانى يعثر العرب على نعامة واحدة ، ويحتمل اثنتين مقتولتين فى المكان نفسه . هذه هى الطريقة المعتادة لصيد هذه الطيور ؛ نظرا لأن صيد هذه الطيور لا يجرى فى شمال الصحراء العربية . هناك مقولة مفادها أن الشمس وحدها هى التى تساعد على تفريخ بيوض النعام ، لكن هذا الرأى ثبت خطؤه ؛ لأن العبارة السابقة توضح أن النعامة ترقد على بيضها أثناء فصل الشتاء، ويجرى تفريخ ذلك البيض فى فصل الربيع، أى فى الفترة التى لا ترتفع فيها درجة حرارة الشمس ارتفاعًا كبيرًا .

سكان منطقة الجوف يأكلون لحم النعام ، الذى يشترونه من عرب الشرارات . وهم يبيعون بيض النعام بواقع شلن واحد لكل بيضة . والعرب يقرون أن طعمه لذيذ . والحضر يستخدمون ريش النعام فى تزيين غرفهم . وريش النعام يجرى بيعه فى حلب وفى دمشق بصورة أساسية . أهل حلب يعودون إلى منازلهم فى بعض الأحيان ومعهم النعام الذى اصطادوه على بعد مسافة تقدر بمسير يومين فى اتجاه الشرق .

وعرب الشرارات غالبا ما يبيعون جلد النعام كله ومعه الريش؛ الجلد الذى من هذا القبيل كان يباع فى العام ١٨١٠ الميلادى فى دمشق بمبلغ عشرة دولارات إسبانية ، وهم يتخلصون من الجلد باعتباره شيئًا عديم القيمة. فى حلب (فى ربيع العام ١٨١١ الميلادى) كان سعر ريش النعام يتراوح بين ٢٥٠ و ٦٠٠ قرشًا للرتولو الواحد (أى ما يعادل حوالى ٢١ جنيها إنجليزيا وعشر شلنات). والريش الفخم يجرى بيعه بالواحدة ، ويتراوح سعر الريشة الواحدة بين شلن واحد وشلنين .

الغزال : يوجد الغزال بأعداد كبيرة فى الصحراء السورية . وهناك على الحدود السورية الشرقية أماكن متعددة لصيد الغزال . والعرب يطلقون على هذا المكان اسم: "مصيادة"، والمصيادة عبارة عن مكان مفتوح فى السهل ، عرضه حوالى ميل ونصف الميل ، ومحاط من ثلاثة جوانب بجدار من الأحجار السائبة ، التى تبلغ من الارتفاع حداً يصعب معه على الغزال القفز فوقها . هناك فى هذا الجدار بعض الفتحات التى تُركت عن عمد ، وبالقرب من كل فتحة من هذه الفتحات يجرى عمل حفرة من الخارج . هذا المكان المسور يقع بالقرب من نهير صغير أو ينبوع من ينابيع الماء التى يلجأ الغزال إليها فى فصل الصيف . وعند بدء عملية الصيد يجتمع الكثير من الفلاحين ويروحون يراقبون إلى أن يروا قطيعا من الغزال قادماً من مسافة بعيدة ومتجها صوب السور ، الذى يقومون بدفع الغزال خلاله ؛ وهنا يحاول الغزال الخائف من صياح البشر ، ومن طلقات الأسلحة النارية القفز فوق الجدار ، لكنه لا يستطيع ذلك إلا من خلال الفتحات أو الفجوات المتروكة فى الجدار ؛ الامر الذى يجعل الغزال يسقط فى الحفر التى أمام هذه الفجوات ، الامر الذى يُسهِّل الإمساك بمئات الغزلان فى بعض الأحيان . وقائد القطيع هو الذى يقفز فى البداية ، وتتبعه بقية الغزلان الواحدة بعد الأخرى. والغزال الذى يجرى اصطياده بهذه الطريقة يجرى ذبحه على الفور ، ويجرى بيع لحومه للعرب والفلاحين المجاورين .

وكل مصيدة من تلك المصايد تشارك فيها قرى عدة، وبالتالى فهى تشارك فى الأرباح الناتجة عن ذلك . وأشهر هذه المصايد توجد بالقرب من قرياتين : وحاسية ، وحمص . والعرب يصنعون من جلد الغزال نوعا من الأغطية الجلدية التى يغطون بها "الطبل"، الذى يجعل السوريون منه بعض الآلات الموسيقية، أو يجعلونه مصاحبا للصوت البشرى .

الحمر الوحشية : فى المنطقة المجاورة للجوف - أيضًا - فى المنطقة ما بين الطبيق، والسوعان، والهدروش، والى الجنوب من هذه الأماكن - توجد الحمر الوحشية بأعداد كبيرة . وعرب الشرارت يصطادون هذه الحمر، ويأكلون لحمها، لكنهم لا يفعلون ذلك أمام الغرباء . وهم يبيعون جلود هذه الحمر وحوافرها للباعة الجائلين الذين يأتون من دمشق ، كما يبيعونها - أيضًا - لأهل الحوران . حوافر هذه الحمر تستعمل فى عمل الخواتم التى يلبسها الفلاحون فى إبهاماتهم ، أو يثبتونها تحت إبطهم كنوع من التعاويذ والأحجبة المضادة لأمراض الروماتيزم .

الكلاب البرية : طبقا للأوصاف الواردة عند العرب هناك نوع من الكلاب البرية التى يطلق العرب عليها اسم: "الدربون" ؛ وهذا النوع من الكلاب أسود اللون ، ويوجد فى البلاد الريفية بالقرب من الجوف ، وفلاحو هذه المنطقة يأكلون لحوم هذه الكلاب .

السّحالى : هذه المخلوقات فيها نوع يسميه العرب : "الضب" ، وهو يوجد فى المنطقة نفسها ؛ ويصل طول الضب إلى ثمانى عشرة بوصة ، أما ذيله فيصل طوله إلى حوالى ست بوصات . وأنا لم أتردد فى تسميتى له بأنه نوع من السحالى ؛ وذلك فى ضوء الأوصاف التى وردت عنه لدى بعض الناس . والعرب يأكلون لحم الضب ، ويحفظون زبدهم فى جلود الضب التى تغطيها الحراشيف .

وهناك - أيضًا - إلى جانب الحيوانات السابقة بعض من : الضباع ، والنمور البيضاء، والذئاب، والثعالب، والقطط البرية، وهذه كلها تسكن الصحراء . وعرب عمور الذين يعيشون بالقرب من تدمر يشتهرون بصيد هذه الحيوانات بواسطة الحراب .

أما النسر الذى يسميه العرب: "رخم"، هو واللقلق، والأوز البرى، والحبارى، والقطا، وكذلك القبَّرة، كلها طيور يشيع وجودها فى الصحراء. وطيور القطا توجد بأعداد كبيرة على نحو تبدو معه هذه الطيور على شكل سحابة لمن يشاهدها من بعد ؛ وهى تتكاثر فى المناطق الصخرية من جبل الحوران ، والصافة ، والليجة ، وجبل البلقاع. وطائر القطا يضع ثلاث بيضات، حجم كل منها فى حجم بيضة الحمامة ، ويميل لونها الأسود إلى الاخضرار . والعرب يجمعون كميات كبيرة من هذا البيض ، ويأكلونها محمرة فى الزبد .

الحياة النباتية الصحراوية

الصحراء على بعد مسافة ما بين مسير أربعة أو خمسة أيام من الحدود السورية الشرقية – فى معظمها أرضا قابلة للزراعة ، ولا تزال تكشف إلى يومنا هذا عن علامات واضحة لحضارات زراعية سابقة . وإذا اتجهنا إلى الصحراء من الداخل نجد أن التربة تتحول إلى تربة رملية . وحتى فى هذه التربة الرملية يعثر العرب فى فصل الشتاء على تشكيلة نباتية من العشب الذى يسهم فى تغذية مواشى هؤلاء العرب . فى الصحراء يندر وجود أنواع مختلفة من العشب فى مكان واحد ، لكن يبدو أن كل منطقة لها عشبها المميز الذى ينمو فيها ولا نجد غيره فيها .

والعرب يطلقون على الحشائش بكل أنواعها كلمة "عُشب" ، وهم يسمون النباتات فى بداية نبتها اسم "ربيع" ، كما يطلق العرب على الأعشاب التى ذبلت وجفت بفضل الشمس والتى تعد الغذاء المفضل عند الإبل اسم : "شُمرى" . والنباتات التى تنمو إلى ارتفاع محدد يطلق العرب عليها اسم "أشجار"، وفيما يلى أورد بعض أسماء الأعشاب التى تجود بها الصحراء وذلك فى ضوء المعلومات التى وصلتنى عن تلك النباتات .

الروتة: نبات أو عشب يصل ارتفاعه إلى حوالى ثمانية أقدام ، وهو أفضل أعلاف الأبل . الفرْس الشيح: نبات الشيح لا تأكله الإبل إلا بعد أن يجف فى فصل الصيف ، ويستخدم العرب بذوره استخداما ناجحا لطرد الديدان . السوس، والأراك ، والعقول: وهى تنمو فى الصحراء بالقرب من دمشق ، كما يوجد العقول – أيضًا – فى العراق ، وفى بلاد الرافدين . السَّر : يشبه نبات الشيح إلى حد بعيد ، والعرب يأكلون ساقه فى فصل الربيع . الغاضة: (ويصح فيه أيضًا : "الغضى") وهى توجد فى منطقة ضاحى الهريك والقتف الذى ينمو دوما فى الأراضى المنخفضة . الشومار : والعرب يأكلون سيقانه. الأتل: الذى ينمو إلى أن يصل ارتفاع شجرته إلى ستة أقدام. المرار، والوسبة: والوسبة له ساق أصفر ، يلطخ أفواه الابل باللون الاسود . الناسى : لا يوجد إلا فى المناطق الرملية. الشورد: وهو يشبه البازيلسيق(*). والسلحقاة فى حال وفرة مياه المطر.

(*) زحّاف خرافى مهلك الأنفاس والنظرات . (المترجم).

الرياح

ريح الشمال سواء أكانت حارة أم باردة يعدها العرب دوما ضارة بصحة الإنسان والحيوان . والريح الغربية هى المعتادة – غالبا – فى فصل الصيف . والعرب يعدون الريح الجنوبية مفيدة للتربة ومفيدة – أيضًا – فى نمو العشب . والريح الشرقية هى أشد الرياح حرارة ، والعرب يطلقون على الريح الشرقية اسم: "القاسى" ، كما يطلق العرب على الرياح الحارة كلها اسم: "سموم". هذه الريح عندما تهب من الشرق تؤدى إلى جفاف الماء الموجود فى القراب ؛ ومن هنا يموت العرب الجائلون عطشى فى بعض الأحيان ، لكنهم لا يموتون بفعل التأثير المباشر للرياح الشرقية . والعرب ليس لديهم من الوسائل ما يمكنهم أو ينذرهم بالعلامات التى تشير إلى احتمال هبوب السموم، وإذا تصادف وجود جمل بارك على الأرض أثناء هبوب ريح السموم – فإنه يخفض رأسه إلى الأسفل للتقليل من الآثار الضارة لتلك الرياح . وإذا تصادف أن يكون الجمل ماشيا أثناء هبوب رياح السموم – فإنه يواصل مشيه بلا توقف . والعرب يغطون أنفسهم بعباءة ثانية أو بكيس من القماش؛ منعا للريح من تجفيف بشرتهم .

ملاحظات إضافية

طريقة التخييم

يخيم البدو طوال العام فى البلدان التى يسودها الأمن والسلام ؛ بحيث تكون كل مجموعة مكونة من خيمتين أو ثلاثة خيام ، والمجموعة التى تليها لا تقل عن مسير ساعات عدة . ولقد رأيت أمثلة لهؤلاء السكان المنعزلين من قبيلة الهُديل فى جبال شرقى مكة ، وبعضا من قبيلتى : الصوالحة والمزينة فى جبال سيناء .

ويتعين علينا هنا أن نذكر أن البدو الأثرياء لديهم نوعان من أغطية الخيام : أحدهما جديد وقوى يستخدم فى فصل الشتاء ، والثانى قديم وخفيف يستعمل فى فصل الصيف .

والبدو في السهول السورية وفي سهول الجزيرة العربية يخيمون في فصل الصيف (عندما لا يجدون الماء في البرك) بالقرب من الآبار ، حيث يبقون في تلك الأماكن مدة شهر كامل ، في حين تروح قطعان أغنامهم وماشيتهم ترعى في المنطقة المحيطة بالمخيم على بعد مسافة تقدر بساعات عدة ، وذلك في حراسة العبيد والرعاة الذين يحضرون هذه القطعان كل يومين أو ثلاثة أيام إلى البئر طلبا للسقيا ، وهذه هي المناسبات التي يقوم العرب خلالها بالهجوم على القبائل الأخرى ؛ والسبب في ذلك أن أهل فلان وعلان يخيمون بالقرب من البئر الفلانية أو العلانية ، ولذلك يسهل الهجوم عليهم . وإذا كان أهل مخيم من المخيمات يخشون مثل هذا الهجوم فإنهم يكونون دوما في وضع الاستعداد الدفاعي من ناحية، وإنقاذ ماشيتهم التي يحاول العدو الفرار بها . أما عرب الشرارات الذين يعيشون على طريق الحج السوري فهم الأكثر تعرضا للغزو ؛ ولذلك فهم يحتفظون بإبلهم مسرجة أمام خيامهم ، حتى يمكن أن ينفروا خفافا لتقديم يد العون والمساعدة للرعاة . السواد الأعظم من الآبار التي داخل الصحراء - وبخاصة في نجد - تدخل في نطاق الملكية الخاصة للقبيلة كلها، أو لأفراد قام أسلافهم بحفرها. أثناء الحكم الوهابي جرى حفر آبار كثيرة جديدة بناء على أوامر من رئيس (شيخ) الوهابيين . إذا كان بئر ما ملكا لقبيلة من القبائل فإن الخيام يجري نصبها بالقرب منه ، عندما تشح مياه الأمطار في الصحراء ؛ وهنا لا يسمح للعرب الآخرين بسقيا إبلهم من تلك البئر . لكن إذا كانت البئر مملوكة لفرد من الأفراد - فإنه يقوم بترميمها وتطهيرها في فصل الصيف بالتعاون مع قبيلته، ويحصل بعد ذلك على عطايا وهدايا من القبائل الغريبة كلها التي تمر على هذه البئر أو تخيم بجوارها ، أو تستعمل ماءها في إنعاش إبلهم . هذه الهدايا مطلوب تقديمها بصفة خاصة عند عودة الجماعة من غزو جرى التأكد من قيامها به . ملكية البئر التي تكون من هذا القبيل لا يمكن أن تسقط ، ويقول العرب: إن مالك هذه البئر محظوظ بحق ؛ نظرًا لأن كل من يشربون من هذه البئر يغدقون إحسانهم على صاحبه . في فصل الربيع والشتاء يصعب نقل الماشية إلى أماكن بعيدة ؛ والسبب في ذلك أن المرعى يوجد بالقرب من الخيام، مما يوفر الطعام للماشية ومن ثم تسهل مسألة حماية هذه الماشية .

هناك بعض القبائل التى تخيم فى فصل الربيع بعيداً عن ينابيع المياه والآبار ، وذلك فى السهول الخصبة التى تبقى فيها القبائل أسابيع عدة دون أن تشرب الماء ، معتمدين فى ذلك على الحليب وحده ، كما تستغنى ماشيتهم عن الماء فى وجود العشب الأخضر العامر بالعصير الذى يغذى هذه الماشية . هذا بطبيعة الحال ليس هو حال الخيول . هذا يعنى أن عددا كبيرا من بنى الشمر يخيمون فى كل فصل من فصول الربيع مدة تزيد على الشهر فى الصحراء الخالية من الماء فى المنطقة فيما بين الجوف وجبل الشمر .

أثناء الترحال نجد أن الجماعات القوية وحدها هى التى تجرؤ على التخييم أثناء الليل بالقرب من البئر ، حيث يمكن لها أن تتوقع حلول بعض الزوار عليها . والجماعات الضعيفة تسقى ماشيتها وتملأ قرابها ، وتخيِّم على مسافة بعيدة عن أى طريق من الطرق المؤدية إلى البئر .

الملبس

فى كل منطقة – بل وفى كل قبيلة – يمكن لنا أن نلاحظ الفرق فى ملبس البدو . هذه هى العباءة الصوفية المقلَّمة التى يسمونها "عبا" (وفى سوريا يسمونها: "المشلح")، ومنديل الرأس ، أو" الكوفيّة " ، التى فيها خطوط صفراء وخطوط خضراء ، ويرتديها الرجال ، وذلك هو الرداء الأزرق الذى تلبسه النساء ، ويشيع فى كل القبائل الموجودة فى شمالى مكة . الوهابيون فى نجد يحرصون على تعطير الكوفية بالزبَّاد (*) ، أو باستعمال نوع من التراب طيب الرائحة يطلقون عليه اسم: "عريس"، ويحضرونه من عدن، ويستخدم بكثرة بين أهل الصحراء . وبالقرب من مكة والطائف ، وخلف هاتين المدينتين وفى اتجاه الجنوب ناحية اليمن – يرتدى الرجال والنساء الملابس الجلدية : الرجال يلفون مريلة جلدية حول خصورهم وعوراتهم ، وهم أثناء الليل وفى الشتاء

(*) طيب يخرج من بعض غدد سنُّور الزبَّاد . (المترجم).

يغطون أنفسهم بعباءاتهم ، لكنهم فى الصيف يمشون عراة تماما . النساء لهن مريال مماثل لمريال الرجال ، لكنه أكبر من مريال الرجال إذ يتدلى إلى كواحلهن ، وهن يرتدين - أيضًا - عباءة علوية لها أكمام ضيقة ، تصنع - أيضًا - من الجلد ؛ هذه العباءة العلوية تكون مدبوغة دباغة جيدة ، وجيدة الصنعة والخياطة ، وتكون مزينة بكثير من الشراشيب التى تضفى على هذه العباءة شيئا من البهجة والمرح، وهن يدعكن هذه العباءة العلوية دائما بالزبد لكى يجعلنها ناعمة الملمس وطرية .

وفوق المريال يلبس الرجال والنساء أحزمة من الجلد، مكونة من شرائط جلدية رفيعة تربط على شكل عشر لفات أو أكثر حول الجسم. والنساء يلبسن شرائط مماثلة لشرائط الرجال يثبتنها فوق البشرة العارية من فوق المعدة وتحت المريال، وتلك عادة عامة فى سائر أنحاء الصحراء. والبدو يؤكدون أن محمد ﷺ لبس هذه الشرائط. ومن العار أن يلبس الرجل سروالا ؛ والسبب فى ذلك أن السراويل لا تشكل جزءاً من لباس الرجال فى سائر أنحاء الصحراء ، والسراويل لا تناسب سوى النساء . بدو مكة وكذلك بدو اليمن يضعون على رأسهم فوق الكوفيّة دائرة مصنوعة من الشمع والرفت والزبد المعجونة مع بعضها عجنا جيدا، بدلا من الحبل الصوفى الذى يستخدمه بدو الشمال فى ربط الكوفيّة . هذه الدائرة يجرى دفعها إلى منتصف الرأس ، وتشبه تاج قديس من القديسين . هذه الدائرة يصل سمكها إلى سمك إصبع من الأصابع ، وهم يخلعونها فى أحيان كثيرة لكى يضغطوها بين أيديهم ؛ حتى يمكن المحافظة على شكلها . والاسم العربى لهذه الأداة أو الدائرة غائب حاليا عن ذهنى . بدو الجنوب يلبسون على الكوع الأيمن حلقة معدنية صفراء اللون ، لا يمكن خلعها عن الكوع إلا بصعوبة بالغة . لقد شاهدت واحدة من تلك الحلقات مخبأة فى لحم الذراع .

البدويات كلهن متيمات بحلقات الأذن ، وحلقات الأنف (الخزام) والخواتم ، والخلاخيل والأساور . والفقيرات من البدويات لهن أدوات الزينة الخاصة بهن ، والتى تصنع من القرون الحيوانية . البعض منهن يلبسن عقودا من الزجاج ؛ لكن الثريات يلبسن أشياء من الفضة ، والكهرمان ، والمرجان ، الذى يسمونه: أم اللؤلؤ .

البدو الذكور لا يهتمون كثيرا بثيابهن ، لكنهم يحبون تزيين زوجاتهم ، وإلباسهن أحسن الملابس التى يظنون أنها تنعكس عليهن بمزيد من الشرف . هؤلاء البدويات لا يوفرن ملابسهن وأدوات زينتهن للأعياد أو الزيارات مثلما تفعل الحضريات ؛ فهن يلبسن أحلى ما عندهن كل يوم . والبدوية تلبس ما بين خمسة أو ستة أساور على الذراع الواحدة ، وحلقين أو ثلاثة حلقان فى أذنها . وهنا يجب أن نشير إلى أن البدويات فى المنطقة المحيطة بمكة يلبسن قمصانا زرقاء قصيرة وأكمامها ضيقة وقصيرة أيضا.

يختلف تصفيف شعر النساء من قبيلة لأخرى ؛ فى الحجاز وفى اليمن تصفف النساء شعورهن على شكل ضفائر وجدائل تشبه إلى حد بعيد جدائل شعر النساء النوبيات . أما نساء سيناء فيصففن شعورهن على شكل لفة كبيرة وكثيفة تبرز من فوق جبهة المرأة . والمرأة فى الجزيرة العربية تصفف شعرها وتعطره ، مثلما يعطر الرجال كوفياتهم . والبنات غير المتزوجات – من بين النساء فى سيناء – يسمح لهن بعد البلوغ بلبس زينة يطلقون عليها اسم : " الشبيكة " ؛ وهذه الشبيكة مكونة من قطع متباينة من المرجان، يصل طول الواحدة منها إلى ثلاث أو أربع بوصات، وعرضها حوالى ربع بوصة . هذه القطع يجرى ربطها بخيط ، ويجرى ربطها برأس البنت على نحو تتدلى معه هذه القطع على خد البنت وجبهتها ، كما يجرى تزيين الجبهة بقطعة مستديرة من المرجان ، عرضها حوالى بوصتين .

وفى ليلة الزواج يرفع العريس تلك الشبيكة عنوة ، والمرأة المتزوجة لا يمكن أن تلبس هذه الشبيكة مرة ثانية . نساء طور سيناء يزين أحزمتهن الجلدية بعدد كبير من أصداف البحر .

فى المناطق الداخلية من الصحراء، وأيضا فى الحجاز، واليمن – على حد علمى – تمشى المرأة البدوية بلا حجاب . يزاد على ذلك أن البدو الذين تضطرهم الظروف إلى التعامل مع مصر فإنهم يجبرون نسائهم على لبس الحجاب أمام الغرباء .

سبق أن قلت: إن كثيرا من العنزيين يطلقون شعرهم ، ويتركونه يتدلى على شكل خصل فوق خدودهم ، شأنهم فى ذلك شأن السواد الأعظم من بدو الحجاز . وقبيلتا:

صبح وعوف اللتين تنتميان إلى قبيلة حرب يصففون شعورهم على شكل جدائل كثيفة تتدلى على الصدر . الشيخ الوهابى حرّم على ناسه من العرب تصفيف شعورهم على هذا النحو ؛ الذى يرى أنه يحط من شأن الرجل ، وأنه لا يصلح إلا لأولئك الذين يودون أو يكون مظهرهم نسائيا . وبين عرب المعازى الذين يحتلون الجبال الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، وصولا إلى دائرة عرض القصير (الذين وفدوا على المنطقة خلال القرن الماضى من الجزيرة العربية ، أرضهم الأم) يسمح للشبان الصغار فقط بحلق شعر الرأس ؛ لأنهم عادوا بغنيمة من العدو . من هنا فإن مسألة أن يحلق أحد من الأبناء شعره أصبحت عيدا للأسرة ، وبخاصة عندما يحدث ذلك للمرة الأولى . هذا فى الوقت الذى يوجد بين هؤلاء الشباب أناس لا يزال شعرهم يغطى رؤوسهم .

السلاح

يندر وجود البنادق الفتيلية بين البدو السوريين ، ولكن البندقية طراز " أكباس " تشيع بين البدو السوريين فى الشمال . كل بدو نجد ، وبدو الحجاز ، وكذلك بدو اليمن مسلحون ببنادق فتيلية . والقوة الوهابية الرئيسة تتكون من هذا النوع من المشاة ، هذا يعنى أن الأسلحة النارية سيئة الصنعة . وهم يحصلون على هذه الأسلحة النارية من المدن المجاورة . فى الحجاز شاهدت كثيرا من البنادق الفارسية . والناس فى فارس يقيِّمون البندقية فى ضوء الحجم والوزن ، هذا يعنى أن قيمة البندقية تعلو عند هؤلاء الناس كلما ثقلت وكبرت . وأفضل البنادق يجرى تمييزها بأسماء خاصة ، وهذه البنادق تنتقل من الأب إلى الابن وذلك من باب الثروات الموروثة ؛ الأمر الذى يجعل حائز هذه البندقية لا يتنازل عنها أو يفرط فيها إلا للضرورة القصوى . البدو رماة مهرة ، وبخاصة بدو نجد وبدو جبال الحجاز . البنادق الفتيلية توجد بأعداد كبيرة فى الجبال . وفى السهول يتسلح الجمَّالة بالحراب . والأوروبى قد يخطر بباله مسألة استحالة التصويب باستعمال تلك البندقية الفتيلية العربية ، التى لا تساوى أكثر من دولار واحد. ومع ذلك وعن طريق هذه البنادق التى يجرى تعميرها بكرات الرصاص –

فقد شاهدت البدو وهم يستعملونها فى صيد الغربان والحبارى. وفى عديد من الجولات التى دارت بين الأتراك بقيادة محمد على باشا ، استطاع أولئك البدو إنزال الهزيمة بعدوهم عندما كانوا يخوضون القتال فى المناطق الصخرية ؛ بفضل تلك البندقية الفتيلية ، لكنهم كانوا ينهزمون شر الهزيمة فى الأماكن التى كان الخيالة الأتراك يقاتلونهم فيها . البدو فى كل مكان هم الذين يصنعون بارودهم . ملح البارود هو والفحم النباتى يتوفران فى كثير من الأماكن ، وملح البارود يبتاعه الناس من المدن . ويبدو أن البندقية الفتيلية أكثر أمانا ، على الرغم من أنها ليست كثيرة التداول مثل سلاحنا . والبندقية الفتيلية لا يمكن أن يحدث لها مانع يوقفها عن الانطلاق ؛ لذا فالبدو يفضلونها ، وهم عندما يحصلون على بندقية من بنادق المسكيت القديمة يحولونها إلى بندقية فتيلية .

فى صحارى الجزيرة العربية الجنوبية ، وفى جبال الحجاز تشيع الحراب القصيرة . والبدو يطلقون على هذا النوع من الحراب اسم: " المزراك " ؛ هذه الحراب القصيرة يجرى لفها بسلك أصغر مثل حراب عرب النوبة . والبدو عادة ما يستعملون هذه الحراب القصيرة فى القتال المتلاحم ، أو قد يرمونها إلى مسافات بعيدة مثل الرماح.

الدروع المزرودة تشيع فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، لكنها ليست بأعداد كبيرة ، وسعر هذا الدرع غالٍ تماما. كان المرحوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابن سعود – يلبسان دروعًا مزرودة تحت ثوبهما ، الوهابيون يقيِّمون الدرع المزرود تقييما عاليا . كان عند سعود درعا قديما قيما ، كان من قبل ملكا لعرار الدغيمى ، صاحب الحصان الشهير المدعو " مشهور " ، وأحد الأبطال الشهيرين فى تاريخ الجزيرة العربية . الدرع المزرود الفاخر (الذى يسمونه: "الداودى") يتكلف ما بين خمسمائة دولار إلى ألف دولار، الدروع التى تكون من هذا القبيل تحظى بمصنعية جيدة ، والأرجح أن تكون من بقايا دروع الفرسان الأوروبيين الذين شاركوا فى الحملات الصليبية .

الطعام والطهو

هناك تشابه كبير بين الأطباق البدوية فى سائر أنحاء الصحراء؛ والسبب فى ذلك أن هذه الأطباق تتكون أصلا من الدقيق والزبد . ومع ذلك نجد فى كل المناطق أسماء مختلفة للطبق الواحد . على سبيل المثال: الطبق الذى يسميه العنزيون: "فتيتة" يقول له عرب سيناء: " مجِلَّة " ، أو قد يسمونه : " مركيدة " عندما يجرى إضافة الحليب إليه . "الجريشة": طبق شائع فى المناطق الداخلية من الصحراء، والجريشة عبارة عن قمح مسلوق بعد جرشه ، ويصب فوقه شيءٌ من الزبد إذا أضيف إليها الحليب أسموه "نقاع".

عادة إبلاغ رب البيت بنقل اللحم إلى النساء شائعة بين عرب سيناء ، على الرغم من عدم معرفتها فى الحجاز . العرب يطلقون على عادة نقل اللحم إلى النساء اسم: "لحم القرش" . فى المناطق الصحراوية البعيدة عن المناطق الزراعية يكون استهلاك القمح أقل من المناطق الأخرى . من هنا نجد أن العرب على الساحل الشرقى من البحر الأحمر – وبخاصة فى المنطقة ما بين ينبع والعقبة – لا يستعملون سوى القليل جدا من الخبز المصنوع من الدقيق . افتقار البدو إلى القمح هو الذى يضطرهم إلى الاتصال بأولئك الذين يزرعون الأرض ، ومن الخطأ أن نتصور أن البدو يمكن أن يستقلوا عن الزراع. قرى الحدود السورية ، وقرى بلاد الرافدين ، وبلدان نجد ، وكذلك ينبع ، ومكة ، وجدة ، وكذلك وديان الحجاز واليمن الزراعية – يتردد البدو عليهم من مسافات بعيدة ، تقدر بمسير عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ؛ ليبيعوا فيها ماشيتهم ويشترون بأثمانها قمحا ، وشعيرا ، وملابس . والعرب لا يقتصرون على أكل الحليب واللحم فقط إلا إذا اضطرتهم الضرورة.

العرب لا يصنعون من لبن الإبل زبدا أو جبنا مطلقا ، ولبن الإبل يكثر عند العنزيين . الأغنام والماعز يجرى حلبها كل صباح بواسطة الناس قبل طلوع النهار ، ويجرى خض الحليب مدة ساعتين تقريبا فى القراب المخصصة لذلك ، ليتحول بعد ذلك إلى زبد ، ولبن الخض هو بمثابة المشروب الرئيس عند العرب ، ويستخدمونه بكثرة فى أطباقهم الغذائية . لبن الخض هذا يطلق العرب عليه اسم: " لبن " وليس " حليباً " ، وهذه الكلمة الأخيرة يطلقها العرب على " اللبن الطازج " .

العرب يشوون الخروف فى بعض الأحيان أو يطبخونه فى الأرض؛ وهم فى مثل هذا الحال يحفرون حفرة في الأرض، ويجرى تسخين هذه الحفرة وتغطيتها بالأحجار . بعض البدو معتادون على غلى بعض الأعشاب فى الزبد، الذى يجرى صبه بعد ذلك فى جلود الأنعام التى تحتوى على مؤنهم . هذا الزبد يصبح مشبعا برائحة تلك الأعشاب ؛ ولذا يستلطف العرب تلك الرائحة. العشب الذى يسمونه "الشيح" يستعمله العرب لهذا الغرض، أما عشب البيذران (وهو نوع من الزعتر) فيشيع استخدامه فى هذا الغرض فى نجد .

البدو طوال رحلاتهم يعيشون فى أغلب الأحيان على الخبز غير المخمور ، الذى يخبزونه على الجمر ، ويخلطونه بالزبد . وهذا النوع من الخبز يطلق البدو عليه اسم: "قرص" ، أو: " عيش " ، أو: " كاخه " .

سبق أن قلت: إن عرب كيرك يعدون مسألة بيع الزبد عارا وأى عار . والبدو الذين يعيشون حول مكة يعدون مسألة بيع الحليب أمراً يقلل من مكانة وقدر من يفعله ، وأفقر العرب لا يمكن أن يخاطر بسمعته ويجعل الناس يطلقون عليه اسم: " لبَّان "، أو: " بائع اللبن " ، وذلك على الرغم من ندرة الحليب الشديدة أثناء موسم الحج ، وهناك استثناء عجيب من هذه القاعدة ، مفاده أن بنى قريش الذين يعدون أنفسهم أفضل أعراق العرب يبيعون الحليب ، الذى تحصل عليه مكة من خيام هذه القبيلة ، التى تنصب خيامها حول جبل عرفات ووادى منى .

الطبق الرئيس فى الحجاز هو طبق الأرز الهندى المخلوط بالعدس، ويتناوله العرب بدون خبز. العرب يجدون أن هذا الطبق أرخص من القمح ، كما أنه مغذٍّ أيضا. لكن فى المناطق التى ينمو فيها التمر نجد أن هذه الثمرة الممتازة هى الطعام الرئيس للعرب والبدو. وهم يفرطون فى استعمال الزبد فى كل من نجد ، والحجاز ، واليمن . وكل من يستطيع الحصول على هذا الترف يشرب كل صباح كوبًا كبيرًا من الزبد قبل تناول الفطور ، كما يحتفظ – أيضًا – فى فتحتى أنفه بالكثير من بقايا تلك المادة (فتلك عادة محببة لدى أهل مكة) . كل أطعمة هذه الفئة من الناس تعوم فى

الزبد (السمن) . يضاف إلى ذلك أن حركة هؤلاء الناس المستمرة، وكذلك الأعمال التى يشغلون أنفسهم بها تقوى عندهم القدرة على الهضم ؛ وهذا السبب نفسه هو الذى يجعل العربى قادرا على الحياة أشهرا طويلة على أقل القليل ، وبعد ذلك إذا ما تهيأت له الفرصة فإنه يستطيع التهام نصف خروف دون أن تصاب صحته بأى أذى .

فى المناطق الداخلية من الصحراء نجد أن البدو لا يصنعون أى نوع من الأجبان، وهم يصنعون الزبد الذى يحولونه إلى سمن من ألبان الأغنام والماعز . وأنا لم أر مطلقا زبدا أو سمنا مصنوعا من ألبان الإبل ، على الرغم من فهمى أن ذلك كان بفعل الضرورة . يزاد على ذلك أن كثيرا من الأعراب الذين حاورتهم لم يتذوقوا طعم زبد الإبل أو سمنها .

فى سائر أنحاء الصحراء نجد أن الأشخاص الذين يحضرون ذبح شاة أو خروف يأكلون كبدها نيئا ، بعد أن يضيفوا إليه قليلا من الملح . يقال : إن بعض عرب اليمن لا يأكلون هذه الأجزاء وحدها نيئة، وإنما يأكلون – أيضًا – بقية شرائح اللحم نيئة أيضًا ؛ وبذلك يتشابه عرب اليمن مع الأحباش ، والدروز فى لبنان ، المتيمين بأكل اللحم نيئا ، وأنا على يقين تماما من أن دروز لبنان يأكلون اللحم نيئا . عرب عسير هم وعرب الجنوب فى اتجاه اليمن يأكلون لحوم الخيل ، لكن بدو الشمال لا يأكلون لحوم الخيل مطلقا .

الصناعة

أبرز مظاهر الصناعة عند البدو تتمثل فى: دبغ الجلود ، وتجهيز قراب الماء ، ونسج الخيام ، وعمل الجوالات والعباءات و البشوت . البدو يدبغون الجلود باستعمال عصير الرمان ، أو – وهذا هو الشائع فى أنحاء الصحراء – باستعمال "الغرد"، أو إن شئت فقل : باستعمال ثمرة شجرة السنط ، أو باستعمال لحاء أشجار السِّيال التى هى نوع من أنواع شجرة السنط، التى يطلق عليها اسم: الميموز. والنساء هن اللاتى يخطن قراب الماء التى دبغها الرجال. والنساء فى الحجاز يخطن حَكَمات (مقاود) الإبل

التى تصنع من الجلد ، وبخاصة تلك الإبل التى يركبها أزواجهن . هذه المقاود عبارة عن نوع من الشبك تزين النساء بالأصداف والشراريب الجلدية ، وهن يطلقن على هذه الشراريب اسم: " داويرة ". المغزل من الأشياء المعتادة جدا فى أيدى الرجال فى سائر أنحاء الحجاز، والغريب أن الرجال لا يرون فى ذلك إقلالاً أو نيلا من رجولتهم ، فى الوقت الذى يزدرون فيه الأعمال المنزلية الأخرى .

ثروات العرب

البدو الأثرياء هم أولئك الذين يرعون ماشيتهم فى السهول الواسعة التى تزداد خصوبتها بفعل أمطار الشتاء . هؤلاء البدو يمتلكون قطعانا لا حصر لها من الإبل ؛ أغنى البدو فى السهول الجنوبية هم القحطان الذين يعيشون على حدود اليمن . يقال: إن رب الأسرة يكون فى عداد الفقراء إذا كان يمتلك أربعين رأسًا فقط من الإبل. والملكية المعتادة فى أية أسرة من الأسر تتردد بين مئة رأس ومئتى رأس من الإبل. وقبائل البدو الفقراء هى تلك القبائل التى تحتل منطقة جبلية قليلة الغذاء وقليلة الخصب والنماء أيضًا . من هنا نجد أن السكان البدو الذين يعيشون فى هذه السلسلة من الجبال التى تمتد من دمشق عبر الجزيرة العربية وبطول ساحل البحر الأحمر ، إلى أن تصل إلى اليمن – كلهم من أصحاب ثروات الأنعام القليلة ، فى حين نجد أن قبائل السهول الشرقية كلها تمتلك أعدادا هائلة من الأنعام . من هنا فإن الرواية التى أوردتها عن المصروفات السنوية للفرد العربى يجب أن تفهم على أنها تخص رجلا من أفراد الطبقة التى تعلو عامة الشعب ؛ يزاد على ذلك أن كثيرا من العائلات المحترمة تنفق نصف هذا المبلغ . ومن يرد الوقوف على نوعية الوسائل التى يستعين بها العربى الفقير على كسب عيشه وتوفير المؤن المطلوبة لعائلته – يمكنه الرجوع إلى مقالى الذى كتبتُه حول هذا الموضوع.

البدو الفقراء يأتون من هذه المناطق إلى القاهرة وإبلهم محملة بالفحم النباتى ، هذه الحمولة من الفحم النباتى تحتاج من الرجل زمنا يتردد بين عشرة وخمسة عشر يوما

يقضيها الرجل فى جمع هذه الحمولة ؛ ليبيعها فى القاهرة بحوالى ثلاثة دولارات ، بعد رحلة تستغرق من هذا الرجل عشرة أو اثنى عشر يوما . ثم يشترى هذا الرجل نصف حمل من القمح نظير هذه الدولارات الثلاثة ، مع شيء من التبغ لاستعماله الشخصى ، كما يشترى - أيضًا - حذاء لزوجته ، أو منديلا ، ويقطع المسافة نفسها عائدا إلى خيمته بعد أن يمضى ما يزيد على خمسة أسابيع هو وجمله ، فى الحصول على هذا التموين الهزيل لأسرته . والبدوى فى مثل هذه المناسبة يضحى عن طيب خاطر بكل المتع الحسية التى يمكن أن يتمتع بها على الطريق (كشرب السمن وتدخين التبغ) بدلا من أن يعود إلى بيته دون أن يكون معه هدية ولو صغيرة لأسرته، يمكن أن تجعله يضحى فى حال الضرورة ، بقربه السمن ، وكيس التبغ .

بعض الأسر العربية تتباهى بأن قطعانها من الإبل فقط وليس من بينها أغنام أو ماعز ، لكنى لم أسمع مطلقا عن وجود قبائل كاملة خالية من الغنم والماعز . هؤلاء الذين يمتلكون إبلا فقط هم فى معظمهم من عائلات شيخ القبيلة . العرب فى بعض المخيمات لا يسمحون لشيخهم بذبح خروف فى أية مناسبة من المناسبات ، لكنهم يقدمون بالتناوب اللحم إلى خيمة شيخ القبيلة . الأسر التى تمتلك إبلا فقط يسمونها: "أهل بل " ، وذلك على العكس من " أهل غنم " .

على الرغم من أشد الظروف قسوة، وفى ظل عدم وجود الإبل أو الغنم ، نجد البدوى يتفاخر على نحو لا يكشف عن استيائه ، أو ما يجعله يشتكى مر الشكوى . والبدوى يستحيل عليه طلب المساعدة ، لكنه يبذل قصارى جهده - كحادٍ للإبل ، أو راع للغنم، أو لص - لاستعادة ثروته الضائعة.

قلب العربى عامر بفضل الله (سبحانه وتعالى) ورحمته وإرادته . لكن هذا الخلود إلى فضل الله وإرادته لا يقلل من جهود هذا البدوى وعرقه وكده ، وذلك على العكس من الأتراك . لقد سمعت العرب وهم يوبخون الأتراك لاتكالهم وغبائهم ، عندما يعزون إلى إرادة الله (سبحانه وتعالى) النتائج التى ترتبت على أخطاء ارتكبوها بفعل حماقتهم ، وعندما يروحون يرددون واحدا من الأمثال الشعبية مفاده " كشف ظهره للبعوض ،

ثم تعجب وقال : إن الله (سبحانه وتعالى) كتب عليه عض البعوض"(*). قدرة البدو على تحمل الأخطار والصعاب يضرب بها المثل، والعرب فى هذا الصدد يتفوقون علينا مثلما نتفوق نحن عليهم فى سعينا الحثيث إلى البحث عن المباهج الحسية والمتع الجيدة . العقلاء من الناس يحسبون دوما أن مقدار الحزن فى هذه الدنيا أكثر من الفرح ؛ من هنا يمكن القول: إن من يسخر من الشر ، رغم معرفته بقلة متاع الدنيا، هو فليسوف بحق ، وذلك على عكس مَنْ ينوء كاهله تحت التناقضات ويمضى أسعد لحظاته فى الجرى وراء متع خيالية لا وجود لها.

معروف أن آمال البدوى وتوقعاته السرية أكثر محدودية من آمال وتوقعات العربى الذى يعيش فى المدينة. رغبة البدوى الرئيسة - فى حال فقره الشديد - تتمثل فى أن يصبح غنيا على نحو يمكنه من ذبح خروف عندما يفد إلى خيمته ضيف محترم ، وأن يتنافس فى هذا الكرم - إن لم يتفوق - على العرب الآخرين فى قبيلته ، وإذا أسعد الحظ العربى فى تحقيق هذه الرغبة فإنه يبدأ فى التطلع إلى امتلاك فرس أصيلة أو ذلول، وملابس طيبة لإناثه. والبدوى عندما يحقق هذه الأهداف لا يفكر فى أى شىء سوى المحافظة على سمعته وذيوع صيته وصيت شجاعته وكرمه. هذا السبب هو الذى يجعلنا نؤكد على أنَّ هناك أعداداً كبيرةً من البدو راضون وقانعون بنصيبهم من الدنيا، وذلك على العكس من الأسيويين الذين تتسم سعادتهم بالجشع، والطموح إلى العلو عن أندادهم .

المؤكد أن البدوى يحس بالتعاسة عندما يجد نفسه غير قادر على الاحتفاء بضيفه على النحو الذى يريده ؛ من هنا فهو ينظر بعين الحسد إلى جيرانه الأوفر حظا . والبدوى يخاف ويخشى أن يسخر منه أصدقاؤه أو أعداؤه ، الذين ينظرون إليه بمنظار عدم القدرة على إكرام الغريب . لكن إذا تيسرت أحوال البدوى على نحو يمكنه من استعراض كرمه - فإنه يستشعر فى داخله المساواة بأغنى الشيوخ ، لا يضمر لهم حسداً أو غلا لأنهم يمتلكون قطعانا من الأنعام أكبر من قطعانه ؛ لأن هذه القطعان لا تزيد من مناقب الشيخ أو متعه ومباهجه .

(*) هذا المثل قريب جدا من المثل العامى الذى يقول : " ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى " . (المترجم).

بدو الجزيرة العربية فى مجملهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة. وقد تكبد شيوخ الوهابيين المشاق فى سبيل تعليم هؤلاء البدو ؛ فقد أوفدوا الأئمة إلى مختلف القبائل كى يعلموا الأطفال . لكن هذه الجهود لم تثمر تماما . وبذلك يظل البدو أمّيين إلى حد بعيد . فى جبال الحجاز وجبال اليمن التى امتهن الزراعة فيها كثير من البدو – نجد من بين هؤلاء البدو أناسا كثيرين يعرفون القراءة ، ويعرفون شيئا ما عن قوانينهم ولغتهم الفصيحة ، وذلك على العكس من البدو الذين يخيمون فى السهول . هذا هو – أيضًا – الحال فى نجد التى أنشأ الوهابيون فيها المدارس فى القرى، وراحوا يلزمون الآباء بالإشراف على تعليم أبنائهم . فى الدرعية قام كثير من المتعلمين من أبناء الطبقة الأولى بين أدباء الشرق بتشكيل مكتبات قيمة، جمعوا كتبها من أجزاء مختلفة فى الجزيرة العربية ، بل إن بعض العلماء من هذه الطبقة ألفوا كتبا عن موضوعات دينية وقضائية. والمؤلفات التاريخية المتعددة والكثيرة تبرز من بين مؤلفات هؤلاء العلماء ، ويبدو أن هناك فى الدرعية طلبا خاصا على تلك الكتب التاريخية . والمعروف أن المخطوطات التى من هذا القبيل والتى جرى العثور عليها فى كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) وفى بلدان اليمن – جرى شراؤها ونقلها بواسطة هؤلاء العلماء . والذى لا شك فيه أن مكتبة ابن سعود هى أثرى المكتبات وأغناها فى هذا الصدد فى الوقت الراهن ؛ من حيث المخطوطات العربية الخاصة بالموضوعات التاريخية .

لقد لاحظت فعلا مدى اهتمام البدو بالفصاحة وإعجابهم بطلاقة اللسان . وشيخ القبيلة مهما ذاع صيت شجاعته ، أو مهاراته فى الحرب لا يمكن أن يكون له تأثير على العرب دون أن يكون متمتعا بموهبة الخطابة . البدوى لا يمكن أن ينصاع لأى أمر من الأوامر، ولكنه يرضى بالإقناع طواعية واختيارا .

الشعر يجرى تذوقه فى سائر أنحاء الجزيرة العربية . هناك كثير من الناس الذين يؤلفون أشعارا منظومة نظما جيدا ، على الرغم من أنهم لا يقرأون أو يكتبون؛ ومع ذلك ونظرا لأن هؤلاء الناس يستعملون – فى مثل هذه المناسبات – عبارات منتقاة فقط ،

ونظرا – أيضًا – لسلامة لغتهم العامية فإن ذلك يحول بينهم و بين الوقوع فى الأخطاء النحوية . هذه الأشعار بعد أن تنتقل من فم إلى آخر يجرى تدوينها فى النهاية على الورق ، وفى أغلب الأحيان تكون سليمة وصحيحة . وأنا أسلم أن القسم الأكبر من الشعر العربى القديم الذى وصل إلينا مستقى من مؤلفات من هذا القبيل . لقد استقطب ابن سعود أفضل الشعراء الموجودين فى الجزيرة العربية ، وأخذهم إلى الدرعية . كان ابن سعود متيما بالشعر ، ولذلك كان يجزل العطاء لمن يتفوق فى قرضه الشعر . وطبقا للعادات العربية فإن الشاعر الشهير إذا قال شعرا فى شيخ من الشيوخ ، أو محارب من المحاربين البارزين – يحصل على جمل أو بعض الأغنام على سبيل الهدية . والبدو لا يزالون يتحدثون عن العطايا الكبيرة التى كانت تنزل من قبل شيوخ العرب فى الأزمان القديمة على الشعراء ، لكن الناس لا يميلون الآن إلى محاكاة الكرم القديم ، وأهل الإحساء بالقرب من الخليج الفارسى ، مشهورون بعبقريتهم الشعرية التى تفوق عبقرية عرب نجد وعرب الحجاز فى هذا الصدد .

الربابة (تلك الآلة الوترية) آلة شائعة فى سائر أنحاء الصحراء، على الرغم من اختلاف شكلها من مكان إلى آخر . فى نجد – وكما هو الحال بين عرب سيناء – تعد مسألة العزف على الربابة أمام جمع من الناس أمرا مشينا . العبيد فقط هم الذين يعزفون على الربابة على هذا النحو ، والعربى الحر إذا أراد أن يتقن اللعب على هذه الآلة تعين عليه أن يفعل ذلك فى منزله ، وفى نطاق أسرته . لكنى على العكس من ذلك شاهدتُ بدو الحجاز وهم يعزفون على الربابة أمام جمع من الناس.

الأغانى التى يطلق الناس هنا عليها اسم: "الأزامر" تحتاج إلى شرح مفصل. هذه "الأزامر" – ويصح فيها أيضًا "الأسامر" – تشيع فى سائر أنحاء الصحراء، لكن هذه الأغنيات تتباين من قبيلة لأخرى. أثناء مقامى فى جبال سيناء تهيأت لى مرارا فرصة سماع هذه الأغنيات، ومشاهدة العروض التى كانت تجرى أثناء سكون الليل البهيم .

بعد غروب الشمس بساعتين أو ثلاث ساعات تتجمع البنات الصغيرات والشابات، أو يتجمع الشبان فى مكان واسع أمام الخيام أو خلفها ، ويبدأون فى الغناء على شكل جوقات، إلى أن تنضم إليهم الجماعات الأخرى . وهنا تضع البنات أنفسهن على

شكل جماعة بين الرجال الذين يقفون على شكل صف من الجانبين . أما إذا كان عدد الإناث صغيرا فإنهن يقفن على شكل صف واحد فقط مقابل لصف الشبان ، ويبعد عن صف الشبان بمسافة ثلاثين خطوة . وهنا يبدأ واحد من الشباب بأغنية (والعرب يسمون هذه الأغنية: " قصيدة ") لا يتكرر منها سوى بيت واحد فقط فى كل مرة ، ويلحن واحد دون تغيير . وهنا تشارك جماعة الرجال هى الأخرى فى الكورس ، مرددة البيت نفسه مصحوبا بالتصفيق بالأيدى ، وبحركات جسدية مختلفة . هذا الصف المرصوص يتمايل بكامله فى بعض الأحيان ناحية جانب من الأجناب ، وفى أحيان أخرى ناحية الجانب الآخر ، وقد يميل إلى الأمام أو إلى الخلف وفى بعض الأحيان يركز الصف على ركبة واحدة . كل ذلك مع المحافظة على إيقاع الحركة طبقا لوزن القصيدة . وأثناء قيام الشباب بهذه الحركات تتقدم اثنتان أو ثلاثة من البنات إلى الأمام، ويرحن يتقدمن ببطء فى اتجاه الشبان . هؤلاء البنات محجبات تماما ، ويلبسن عباءات أو ملايات زرقاء اللون واسعة حول أذرعهن المفرودة . وهن يتقدمن بخطوات خفيفة وانحناءات طفيفة ، تتفق مع إيقاع الأغنية . وسرعان ما تتزايد تحركات البنات حيوية ، عندما يصبحن على بعد خطوتين من الرجال ، لكنهن يستمررن فى الرقص (على حد تعبيرهن) ، مع مواصلة تحفظهن وأدبهن وخجلهن. وهنا يحاول الشبان زيادة حماس البنات عن طريق التعبير بصوت عال عن إعجابهم بهن ، وهذه التعبيرات يقاطع الشباب بها القصيدة بين الحين والآخر .

والبدو يفيدون من هذه التعبيرات التعجبية والأصوات الضوضائية عندما يصدرون أوامرهم لإبلهم بالتوقف ، أو المسير ، والعدو ، والشرب ، والأكل والوقوف ، وعندما يأمرونها – أيضًا – بالبراك. والشباب ينادون البنت باسمها، وإلا كان ذلك إساءة للأدب من منظور السلوكيات البدوية ، لكن الشاب قد ينادى الفتاة قائلا : "يا جمل"، مفترضا أنها ربما تتقدم ناحيتهم بحثا عن الطعام أو الماء . وتستمر طوال الرقصة العبارات التى من قبيل "انهض يا جمل، أسرع ، الجمل المسكين عطشان ، تعال ، وتناول وجبة المساء" ، وهنالك تعبيرات أخرى مماثلة يجرى استعمالها فى مثل هذه المناسبة ، بالإضافة إلى التعبيرات الأخرى التى قد يستعملها الجمّالة فى الحديث مع

جمالهم. ولإحداث المزيد من الإثارة عند الراقصات يقوم بعض الشبان بوضع عمائمهم أمامهن على الأرض ، أو قد يضعون أغطية رؤوسهم بدلا من عمائمهم ؛ لكي تمثل الطعام المطلوب للجمل . وإذا ما اقتربت الفتاة الراقصة على نحو تكون فيه قريبة جدا من الشباب وتتمكن معه من اختطاف أى جزء من الملابس - فإنها تلقى بذلك الجزء خلف ظهرها لرفاقها. وعندما تنتهى من الرقصة تعين على صاحب الجزء الحصول عليه نظير دفع أتعاب صغيرة للبنت التى خطفت ذلك الجزء . (ذات مرة استطعت الحصول على غطاء الرأس (غترة)؛ بأن أعطيت البنت التى خطفته عقدا مصنوعا من المرجان، ملاحظا أن ذلك العقد يستعمل حكمة (مقوداً) للإبل، وقد انشرح صدر البنت لهذه الهدية ، وعلقت العقد حول عنقها). وبعد استمرار الرقص مدة خمس أو عشر دقائق تجلس البنت أرضا ، وتستأنف غيرها الرقص من جديد ، وتبدأ مثلما بدأت من جاءت قبلها، وتتزايد سرعتها حسب مدى اهتمامها هى بالرقص. وإذا أحست بالانفعال وتقدمت بالقرب من صف الرجال فرد الرجال أذرعهم وكأنهم يودون استقبالها . هذه الرقصة التى تستمر مدة تتراوح بين خمس ساعات أو ست ساعات ، وإلى ما بعد منتصف الليل بفترة طويلة ، وكذلك الأغانى العاطفية التى تصاحبها ، تتلاعب تلاعباً كبيراً بخيال العرب ومشاعرهم؛ الأمر الذى يجعلهم يتكلمون عن المسامر بشوق شديد . هذا يعنى أن مشاعر المحب لابد وأن تصل إلى الذروة فى مثل هذه المناسبات. هذا هو الشكل المحبب لحبيبته، يتقدم فى الظلام أو فى ضوء القمر مثل الشبح، متجها نحو أحضانها. وتلك هى خطواتها الرشيقة الرزينة، وهذا هو انفعالها المتزايد، وهذا هو التصفيق المتزايد الذى تلقاه هذه البنت ، وتلك هى كلمات القصيدة أو الأغنية التى تمتدح الجمال . كل ذلك لابد أن يخلق أشد العواطف ويؤججها فى صدر المحب ، الذى يروح ينفس عن تلك المشاعر عن طريق الصوت والحركات والإيماءات، دون أن يعرض نفسه للملامة (*).

(*) الطابع الرومانسى المؤدب لهذه الرقصة يجعلها على النقيض تماما من الرقص الهمجى والحركات والتقصعات التى تقوم بها الراقصات المصريات ؛ هذه الرقصة الرومانسية المؤدبة منفصلة إلى حد بعيد عن رقص البنات السوريات أو المصريات .

إذا كان هناك ما يدعو بنات المخيم إلى الغضب من الشبان قام الشبان بالمداومة على الحضور ليالى عدة ، دون أن تظهر البنات ليغنين المسامر . من ناحية أخرى لقد سمعت البنات وهن يغنين دون مجيء أحد من الشبان من الخيام . والأغنية فى مثل هذا الحال تكون مرتجلة، وتكون متعلقة بجمال وصفات الفتاة القائمة بالرقص. لو قدر وكان الشبان فى منازلهم فى المخيم فإنهم يواصلون المسامر طوال أشهر عده أثناء الليل . قد يشارك المتزوجون والمتزوجات فى هذه المسامر فى بعض الأحيان . والشبان الصغار قد يقطعون أثناء الليل مسافات طويلة تستغرق ساعات عدة ؛ على أمل التمتع بسامر مخيم من المخيمات المجاورة، ثم يعودون إلى خيامهم بعد ذلك. وأنا هنا لابد أن أشير إلى عدم الخلط بين المسامر و"المزامر" التى تعنى فى العربية: "كتاب المزامير". (*)

أنشودة حادى الإبل

سمعت فى كل من الحجاز ومصر الكلمات التالية، التى هى بمثابة محتوى هذه الأغنية:

"لا أحد يستطيع القيام برحلات طويلة سوى الجمل القوى المتين"

الولائم والأفراح

من المتفق عليه بين أرباب الأسر والعائلات التى تقيم فى مخيم واحد أن تجرى عملية ختان الذكور فى يوم واحد . وفى مثل هذه المناسبة يذبح كل أب من آباء هؤلاء الأطفال خروفا واحدا فى أضعف الأحوال من باب تكريم ولده ، وقد يذبح ثلاثة أو أربعة خرفان ، وهنا يقوم كل أفراد المخيم وأفراد القبيلة ، وكذلك الغرباء الذين يأتون خصيصا لهذه المناسبة – يقوم الجميع بتناول الطعام طوال اليوم .

(*) نساء قبيلة العليقات فى جبال سيناء يغنين أغانيهن على النحو التالى :

"نساء العليقات ! لا مثيل لنا ، باستثناء السماء ؛ (لكن) الرجال هم الأرض (التى تدوس عليها أرجلنا)"

سمعت بدو المغربين وهم يغنون المسامر . وهو نوع من الشعر الغريب.

الحبيب وهو يخاطب محبوبه اسمها غالية يقول متعجبا :

" يا غالية ، لو كان والدى حمارا ، لبعته ، أملا فى شراء غالية".

فى رمضان وفى عيد الضحية نجد العرب الذين لا يمتلكون خيولا يشاركون فى سباق الإبل ، فى حين ترحن النساء يغنين بصوت عال . وبين عرب سيناء نجد أن البنات يسمح لهن فى تلك المناسبات بكشف وجوههن أمام شبان القبيلة ، الذين يمرون عليهن سراعا وهم راكبين الإبل ، وهنا يقمن البنات بكشف الحجب عن وجوههن ؛ حتى ينظر الشباب إليهن نظرة خاطفة . وقد لاحظت أن البنات عقب هذه الاحتفالات يجرى طلب أيديهن للزواج . أما البنات الخجولات اللاتى لا يشاركن فى مثل هذا الكشف فيبقون داخل خيامهن .

سمعت بدو المغربين وهم يغنون المسامر ، وهو نوع من الشعر الغريب . فالحبيب وهو يخاطب محبوبة اسمها غالية (*) يقول متعجبا : "يا غالية، لو كان والدى حمارا لبعته ؛ أملا فى شراء غالية " .

قلة قليلة من القبائل البدوية هى التى لا توجد داخل المنطقة التى تخيم فيها ، أو على الأقل على بعد مسافة قصيرة منها قبر لشيخ أو ولى من الأولياء ؛ هذا الشيخ أو الولى يوجه إليه أفراد القبائل المحيطة كل نذورهم . هذه القبور تجرى زيارتها مرة واحدة على الأقل كل عام من قبل أعداد كبيرة من العرب ، الذين يوفون بنذورهم التى نذروها فى العام السابق ، وذلك عن طريق نحر الذبائح . والعرب ينذرون هذه النذور أملا فى الحصول على فرس ، أو عدد كبير من سلالات الخيول أو الإبل(**)

وبذلك يتحول يوم زيارة قبر ذلك الشيخ أو الولى إلى مناسبة من مناسبات القبيلة كلها ، والجيران المحيطين بها . فى هذه المناسبة تبدو النساء مهندمات فى أحسن

(*) ليس بالضرورة أن يكون اسماً ، وإنما هو كناية عن كل فتاة "غالية" ذات حسب ونسب . (المراجع)

(**) يصل توقير العرب لهؤلاء الشيوخ وهؤلاء الأولياء إلى حد عبادة الأصنام ؛ العرب يوقنون أن هذا الشيخ أو الولى قادر على التأثير على قوة السماء لصالحهم ، سواء أكان فى الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة . والوهابيون يناهضون خرافة نحر الذبائح تكريما للشيوخ والأولياء ، وهم يناهضون ذلك من خلال خطبهم ومواعظهم الدينية . قبور هؤلاء الشيوخ والأولياء تكون دوما فوق قمم الجبال .

ثيابهن ، ويركبن الإبل التى يحرص أزواجهن على تزيينها وسرجها بأبهى الزينات . وفى كل مناسبة من المناسبات يحرص البدوى على أن تبدو زوجته فى أحلى مظهر من مظاهرها ، ويبدو أن البدوى يرغب فى مثل هذه المناسبات أن تكون زوجته أبهى النساء بين كل معارفها ؛ من حيث الملبس والخواتم والحلقان ، فى الوقت الذى لا يلبس فيه هو إلا ما هو ضرورى لحمايته من حرارة الصيف أو برد الشتاء .

الأمراض

يعانى كثير من بدو الحجاز - وبخاصة هؤلاء الذين يعيشون فى المناطق المجاورة لكل من مكة والمدينة - يعانون من حين لآخر من اتصال البعض بالنساء الفقيرات اللاتى يشاهد بعض من البدو فى بيوتهن طول الوقت ، وهذا لا يحدث فى حلب أو دمشق . وفى الحجاز يجرى استبعاد النساء الفقيرات من المخيمات العربية . هؤلاء البدو يزورون - أيضًا - القاهرة ، ولديهم الكثير من الأسباب التى تجعلهم يندمون على المعرفة التى تربطهم بنساء تلك المدينة .

التطعيم

بعد المحاولات المتعددة التى بذلت لإدخال التطعيم إلى مصر - تمكن طبيب سورى فى شتاء العام ١٨١٦ الميلادى فقط من جعل التطعيم أمرًا عامًا بين المسيحيين. ليس هناك بلد فى الشرق فى مسيس الحاجة إلى التطعيم أكثر من مصر ، وبخاصة الوجه القبلى الذى ينتشر فيه مرض الجدرى انتشارًا وبائيًا كما لو كان طاعونا ، ومما يضاعف من الخوف تكرار انتشار هذا المرض . التطعيم بين بدو الحجاز أمر جد نادر. وقد يقدم محمد على باشا على إصدار أمر لرعاياه فى طول البلاد وعرضها، بالإقبال على التطعيم . لكن محمد على - شأنه شأن الحكام الأتراك الآخرين - لا ينصتون إلى المشروعات المفيدة إلا إذا كانت مرتبطة بمصالحهم الشخصية . يضاف

إلى ذلك أن العلاجات التى يلجأ الأسيويون إليها ويثقون فى فاعليتها وفائدتها هى أمور تدعو إلى الاستهزاء والاستغراب . لقد شاهدت عربيا بعد استيقاظه من النوم مباشرة يشرب جرعات من بول الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن طبيبا (أى: حلاَّقا) مكيا وصف له هذه الوصفة علاجا لضيق الصدر وآلامه . عربى آخر كان يعانى من مرحلة متأخرة من السل الرئوى ، طلبوا منه أن يأكل طوال أسبوعين شيئا من كبد الجمل نيئا . ونظرا لأن الوقت كان صيفا ، وبالتالى لم يكن الكبد الطازج متيسرا فى كل يوم - أصر الرجل على تناول ذلك الكبد المخزون طوال أيام عدة ، وقد ثبت عدم جدوى هذه الوصفة حين توفى المرضى .

العادات المتصلة بالزواج

سوف ينصب ما أقوله هنا على بدو جبل سيناء بصفة خاصة؛ ذلك لأنى عشت مع هؤلاء البدو قرابة شهرين فى ربيع عام ١٨١٦ ، فى الوقت الذى كان الطاعون على أشده فى القاهرة .

بعد أن يتم الاتفاق بين والد الفتاة مع الرجل الذى يرغب فى الزواج منها - يقوم والد الفتاة بإعطاء الرجل غصن من أغصان الشجر ، أو شجيرة صغيرة ، أو شيئًا أخضر ، يقوم بتعليقه فى عمامة الخطيب ، ويبقى فيها طيلة ثلاثة أيام ؛ إثباتا لزواجه من عذراء . أما إذا تزوج الرجل من أرملة تنتفى هذه الأمور . يندر إبلاغ البنت أو تعريفها بالتغيير الذى سيطرأ على حالها ، لأن الجميع هنا يرون أن الوقوف على رغبة الفتاة أو رأيها يعد أمرا غير ضرورى ، وحتى إذا لم تكن الفتاة راغبة فى العريس فيتعين عليها الخضوع أو الاستسلام حتى ولو لليلة الأولى فقط لأحضان الرجل وقبلاته ، لكنها فى اليوم التالى تصبح حرة ويحق لها الانسحاب من خيمته . لكن العرب الأثرياء الذين يقيمون فى السهل الشرقى ، وبخاصة العنزة والمطير فى نجد ، وكذلك العتيبة فى الحجاز - نجد أن والد العروس لا يقبل للعروس مهرا مطلقا ؛ ومن هنا نجد هؤلاء الأعراب يعتدون برأى الفتاة .

نجد عند عرب سيناء أن الفتاة الصغيرة تعود إلى المنزل بالماشية فى المساء . وعلى بعد مسافة قصيرة من المخيم يلقاها زوجها المستقبلى، ومعه اثنان من أصدقائه ، ويحملونها عنوة إلى خيمة والدها. وإذا تشككت الفتاة فى نوايا الشبان - راحت تدافع عن نفسها باستعمال الحجارة ، وغالبا ما تصيب الشبان الصغار بجراح ، على الرغم من أنها لا تكره الحبيب ؛ والسبب فى ذلك أن العرف والعادات هنا تقضى بأنه إذا ما زادت مقاومة الفتاة ، وإذا ما زاد عضها ورفسها وصياحها وضرباتها زاد تقدير رفاقها لها فيما بعد . ويجرى أخذ هذه الفتاة عنوة بواسطة هذين الشابين إلى خيمة والدها ، ووضعها فى قسم النساء . ويقوم على الفور واحد من أقارب العريس بإلقاء عباءة على الفتاة ، بحيث تغطى رأسها وهو يقول متعجبا : "لن يغطيك أحد سوى هذا الرجل" ، وهنا يذكر اسم العريس . حتى هذه اللحظة تظل العروس جاهلة باسم ذلك الشخص الذى سوف يزفونها إليه . بعد هذا الاحتفال تقوم والدة العروس وأقاربها بإلباسها الملابس الجديدة التى أحضرها العريس ، ثم يجرى بعد ذلك إحضار جمل أمام الخيمة ، ويكون مزينا بالشراشيب وقصاصات القماش ، حسب ثراء الزوج . ويجرى إركاب العروس فوق هذا الجمل ، على الرغم من استمرار مقاومتها بطريقة شرسة ، فى الوقت الذى يمسك بها أصدقاء العريس من الجانبين ؛ وبذلك تجبر العروس على الدوران ثلاث مرات حول خيمة العريس ، بينما مرافقاتها يصحن ويهللن . وبعد برهة يجرى إدخالها إلى مكان خاص سبق أن أعده العريس لها فى خيمته ، وعليه بعض الستائر فى مؤخرة قسم النساء .

إذا كان العريس بعيدا جرى وضع العروس على الجمل مباشرة عقب إلقاء العباءة عليها، ويجرى - أيضًا - أخذها إلى مخيم الزوج بصحبة رفيقاتها من النساء . طوال هذه الرحلة وفى هذا الموكب تضطر العروس من باب اللياقة والأدب إلى الصياح والبكاء بكاء مرًا . وبعد أن يتركوها بصحبة امرأة واحدة فى خيمة العريس ، تكون النساء الأخريات متجمعات أمام الخيمة يغنين ويرددن شيم العروسين. يجرى فى

ذات الوقت نحر العديد من الخراف (*) ، وهنا يأكل الضيوف الذين يتوافدون على الوليمة خبزا (لأن هذا التقليد يعد أمرا ضروريا فى هذا النوع من الاحتفالات الليلية) ولحما .

فى ساعة متأخرة من الليل ، وعندما يتمكن العريس من الهرب فى كياسة وأدب من زملائه وأصدقائه الذين اجتمعوا لتحيته - يدخل العريس إلى المنطقة التى فيها العروس ؛ وبذلك تكتمل عملية الزواج ، وهنا تواصل العروس صراخها بصوت عال(**). ويتعين على الزوج قبل الدخول إلى مخدع الزواج أن يترك حذاءه أمام الباب ؛ دلالة على أنه موجود فى الداخل .

إذا تزوجت البنت على غير رغبة منها ، فإنها يسمح لها فى صبيحة اليوم التالى بالالتجاء إلى خيمة والدها ، الذى لا يصح له أو لغيره أن يمنعها من ذلك . الشيوخ الأثرياء يندر أن يرفضوا زواج بناتهم من رجال فقراء ، شريطة أن يكون ذلك الفقير قادرا على دفع المهر المطلوب للفتاة ، وأن يكون قادرا على حمايتها من الجوع .

زواج الأرملة والمطلقة لا يكون محفوفا بمثل هذه الاحتفالات ؛ إذ لا يجرى لف المرأة بالعباءة ، كما أنها لا تبدى أية مقاومة عندما يقتادها الأصدقاء إلى غرفة الزوج ، وإذا كان الزوج متزوجا من امرأة أخرى فإن هذه الاحتفالات لا تحدث مطلقا ، أما إذا كان الزوج لم يسبق له الزواج فإن العروس يجرى نقلها من خيمتها إلى خيمته فى أبهة. وهنا لا يسمح لأى ضيف من الضيوف بالأكل من خبز العرس

(*) مسألة إسالة دماء الخراف على الأرض يعدها بنو حرب فى الحجاز أمرًا ضروريًا لإكمال الزواج ، لكن البدو كلهم لا يعتدون بهذا الرأى . فى مصر ينحر الأقباط خروفا عقب دخول العروس إلى منزل العريس، ويجبرون العروس على المشى فوق الدم الذى يكون على عتبة المنزل ، أى عند مدخل المنزل .

(**) يحدث فى بعض الأحيان - وكما تأكد لى - أن يقوم الزوج بربط العروس بل وفى بعض الأحيان بضربها قبل أن تنصاع إلى رغباته . الافتقار إلى التحضر يظهر بشكل واضح فى العلاقة بين الإناث والذكور ، أكثر من أى شىء آخر . هناك عادة خاصة بين سكان الوجه القبلى : فى ليلة الزفاف يقترب العريس من عروسه ومعه امرأتان ، تخرجان من غرفة الزواج ومعهما شهادة على بكارة الفتاة ، ويتعين على الزوج أن لا يقترب من عروسه عقب هذه العملية إلا فى الليلة الثالثة .

الذى لا يوزع إلا بمناسبة زواج العذراء ؛ والسبب فى ذلك أن العرب ينظرون إلى الأمور المتصلة بزواج الأرملة كأنها علامات شؤم ، وأنها لا تستحق أن يشارك فيها الرجال الكرماء أو الشرفاء . طوال ثلاثين يوما ، أو بالأحرى طوال شهر كامل ، يمتنع الزوج عن أكل أى شىء من مؤن العروس أو استعمال أى إناء من أوانيها فى تناول الطعام . طوال هذه المدة يجرى اعتبار كل ما يتصل بالزوجة على أنه "قران" ، والعرب يعتقدون أن المساس بتلك العادة على أى نحو من الأنحاء هو بمثابة الاقتراب من طريق الهلاك والخراب . وإذا قام الزوج بعمل قهوة للعرب فذلك يحتم على كل واحد منهم أن يحضر معه كوبه الخاص به ؛ حتى يتمكن من عدم الشرب فى كوب مملوك لتلك الأرملة التى تزوجت من جديد .

الناس هنا يعتقدون أن الآداب تحتم على العذراوات عندما يتزوجن أن يبقين مدة أسبوعين على الأقل داخل خيامهن وألا يغادرن الخيام إلا ليلا . ولو قدر لزوجها الغياب عنها فى رحلة قبل انتهاء هذين الأسبوعين جاز للعروس اختصار مدة التزامها الخيمة. حفلات الزواج عند البدو تجرى غالبا فى مساء يوم الجمعة .

يتباين مهر البنت بتباين الظروف ، ولا يحدد مطلقا فى أى قبيلة من القبائل . والمهر عند عرب سيناء يتردد بين خمسة وعشرة دولارات ، وقد يصل إلى ثلاثين دولارا فى بعض الأحوال إذا كانت الفتاة جميلة ومؤصلة . يدفع جزء مقدما من المهر ، فى حين يتبقى المبلغ المتبقى من المهر على شكل دين . والأب هو الذى يتسلم المهر ؛ وإذا كان الأب متوفيا يقوم الأخ أو أقرب أقارب الفتاة باستلام المهر . ومن يتسلم هذا المبلغ يطلق عليه وكيل الفتاة . ومهر العزباء أو الأرملة لا يزيد مطلقا على نصف ما يدفع للعذراء ، وقد جرت العادة ألا يزيد مهر الأرملة أو العزباء عن ثلث مهر العذراء . وهذا المهر أو الصداق يدفع – أيضًا – لولى الأرملة أو العزباء .

هناك عادة فريدة تقتصر على قبيلة المزينة ، داخل حدود شبه جزيرة سيناء ، لكنها لا تنتشر بين القبائل الأخرى الموجودة فى المنطقة ؛ فالفتاة بعد أن يجرى لفها بالعباءة أثناء الليل يسمح لها بالهروب من الخيمة أثناء الليل ، وتفر هاربة إلى الجبال المجاورة . ويقوم العريس بالبحث عنها فى صباح اليوم التالى ، ويستمر على هذا

النحو أياماً عدة قبل العثور عليها. فى حين تكون صديقاتها على علم بمكان اختبائها ؛ حتى يقدمن لها الطعام المطلوب . وإذا عثر عليها الزوج فى نهاية المطاف (وهذا يحدث إن آجلا أم عاجلا ، فى ضوء الانطباع الذى تركه على قلبها) فذلك يضطره إلى استكمال الزواج فى العراء ، وأن يمضى الليل معها فى الجبال . وفى صباح اليوم التالى تعود العروس إلى خيمتها لنيل شىء من الطعام ، لكنها تهرب ثانية فى المساء ، وتكرر ذلك الهرب مرات عدة إلى أن تعود إلى خيمتها فى نهاية المطاف . وتواصل بقائها فى الخيمة ، وتمتنع عن دخول خيمة زوجها إلا بعد أن تتقدم فى شهور الحمل . وهنا قبل هذا الموعد تذهب العروس لتعيش مع الزوج . وإذا لم تحمل فيتحتم عليها البقاء عاماً كاملاً فى خيمة أسرتها (محبوسة منذ ليلة الزفاف) ، تلتحق بعده بزوجها . بلغنى - أيضاً - أن هذه العادة نفسها سائدة بين عرب المزينة ، الذين يرتبطون بصلة قرابة بالعرب الذين يعيشون فى جزء آخر من الحجاز ، وفى المنطقة المجاورة لنجد عند أهل الجبالية ، وهى قبيلة صغيرة حديثة العهد فى سيناء ، تبقى العروس بعد زواجها مع زوجها ثلاثة أيام كاملة ، ثم تهرب بعد ذلك إلى الجبال ، ولا تعود ثانية إلا بعد أن يعثر عليها زوجها .

الطلاق

سبق أن قلت : إن الطلاق أمر دائم الحدوث عند البدو ، وبين بدو سيناء أيضاً . وإذا طلق بدوى زوجته دون أن يبدى سببا حقيقيا أو مقنعا لذلك الطلاق ، أو دون أن يقدم دليلاً على سوء سلوكها - تعين عليه أن يعطيها عندما تبرئه ستة أو ثمانية دولارات ، وعنزة ، وغلاية نحاسية ، ورحاة ، وأشياء أخرى من أدوات المطبخ وأوانى الطهى . ويقوم فى ذات الوقت بإعطائها مؤخر الصداق المتبقى لديه . أما إذا تركته الزوجة بمحض إرادتها فإنها لا تحصل على أى شىء منه، ويتعين على وليها التنازل عن مؤخر الصداق، لكن الولى يحتفظ بمقدم الصداق. وعلى حد قول العرب : من العدل أن تكون هناك تعويضات للولى نظير وجود أرملة فى الخيمة بدلا من العذراء .

بين عرب سيناء يندر أن يعطى الزوج المهجور زوجته الهاربة حكم الطلاق ، الذى يمكنها من الزواج مرة ثانية . لكن هذا الزوج المهجور يجبر صديقات الزوجة فى بعض الأحيان على العثور له على زوجة أخرى ، وأن يدفعن مهر هذه العروس قبل أن ينطق بالكلمتين المطلوبتين: "أنتِ طالقة". بعض عرب الوجه القبلى يلتزمون بعرف مفاده أن الزوجة إذا ما اضطرت زوجها إلى إيقاع الطلاق فإن ذلك يؤدى إلى ضياع مهرها، ويجرى – أيضًا – أخذ ملابسها كلها منها، ويقوم الزوج بحلق شعرها كله قبل أن يُسَرِّحها .

بدو الجزيرة العربية كلهم يقرون بحق ابن العم فى الزواج من بنات الأخ ، ووالد البنت فى مثل هذا الحال لا يمكن أن يرفض تزويج ابنته لابن أخيه إذا دفع مهرا معقولا، وهذا المهر بطبيعة الحال يكون أقل من المهر الذى يطلب من الغريب. ومع ذلك نجد أن عرب سيناء يزوجون بناتهم فى بعض الأحيان للغرباء فى حال عدم وجود أبناء الأعمام . وقد حدث ذلك مع مرشد أخذته معى من السويس ؛ عندما وصلنا إلى مخيمه الذى يبعد مسير يوم واحد عن دير سيناء ، وكان يتوقع الزواج من ابنة عمه . وطوال الرحلة كلها راح يحكى لى عن عدد الاحتفالات التى يتعين أن أشهدها بهذه المناسبة . كان المرشد قد أحضر معه لهذه المناسبة بعض الملابس الجديدة لعروسه المنتظرة، لكنه خاب أمله وحزن حزنا عميقا بعد وصوله عندما علم أن الفتاة قد تزوجت قبل ثلاثة أيام من رجل آخر . وقد ظهر أن والدة الفتاة كانت عدوة لذلك المرشد فى الخفاء ، وكانت قد رتبت الأمور على نحو يجعل منه سخرية فى أعين رفاقه. ومع ذلك تحمل الرجل حظه العاثر تحمل الرجال ؛ وبدلا من أن يكشف عن أية علامة من علامات الاستياء والغضب ، تحول على الفور إلى الاستهزاء بالأم نفسها هى وزوج ابنتها . وابن العم ، من باب منع حدوث مثل هذا الشىء ، عندما يكون عاقدا العزم على الزواج من ابنة عمه فإنه يقوم بدفع المهر مقدما لشخصية من الشخصيات المحترمة فى المخيم ، ثم يضع البنت بعد ذلك فى حراسة أربعة رجال ينتمون إلى قبيلته . فى مثل هذا الحال يتعذر على الفتاة الزواج من أى شخص آخر دون موافقة منه ، سواء أكان غائبا أم حاضرا ، ويكون من حقه الزواج منها عندما تسمح ظروفه بذلك ، وفى الوقت الذى يحدده هو . ومع ذلك إذا فك أو تحلل هو من هذا الارتباط قام الشخص الذى

وضع المهر عنده على سبيل الأمانة بتسليم المهر لولى العروس . هذا النوع من الزواج يحدث فى بعض الأحيان قبل أن تبلغ البنت سن البلوغ .

ربما كان البدو هم الوحيدين من بين أهل الشرق الذين يمكن أن نطلق عليهم بحق اسم المحبين المخلصين . الواقع ، إنَّ عاطفة الحب يتحدث عنها أهل الحضر حديثا طويلا ، لكنى أشك فى أن هذا الكلام يعنى شيئا غير الرغبة الحيوانية . وأنا فى أضعف الأحوال لم أشهد بين البدو أى مثل من أمثلة المحافظة على الود والحب وسط الأنواء والكوارث، فى حين هناك ، على العكس من ذلك ، أشخاص كثيرون تظهر عليهم اللا مبالاة والتناسى الكامل عقب الحصول على المتعة مباشرة . يضاف إلى ذلك أن عزلة النساء هى التى تحول بينهن وبين شخصية المحب ؛ نظرا لأن اللقاء الأول مع المرأة يفضى إلى التملك بلا أدنى شك ، والعقول إذا لم تفهم بعضهما بعضا استحال معها وصول مشاعر الصداقة إلى مرحلة التسامى ، التى أتصور أنها تمثل الفارق بين الحب الحيوانى والحب العقلانى . ويمكن تمييز ذلك النوع من الحب المتدنى فى شعر الحب الذى يقوله المحب الحضرى فى محبوبته ؛ هذا المحب بدلا من أن يعلى سمات عقلها وقلبها يركز فقط على جماليات شخصها، أو على رغبته المتأججة فى تملكها. يزاد على ذلك أن شعر الحب العربى الحديث لا ينطوى على كثير من الأشعار التى لا يرفضها الذهن الأوروبى الراقى . ومع ذلك تتهيأ للبدو فرص كثيرة يتعرفون من خلالها على بنات الجيران، هذا يعنى أن حبهم فى شبابهم فى معظم الأحيان يكبر ويترعرع خلال سنين . والفتاة البدوية تحرص أيضًا – أيا كانت مشاعرها تجاه حبيبها – على عدم التنازل إلى حد يجعل المحب يقف على مثل هذه المشاعر ، إضافة إلى عدم تمكنها من التمتع بكثير من الحريات الشخصية، حتى وإن اقتنعت بذلك الحب وتبادليته . تمسك هذه الفتاة تمسكا شديداً بشرفها وعفتها لابد وأن يؤثر على المحب تأثيراً كبيراً ، ولما كان ذهن البدوى وخياله قويّين بصفة دائم، وليسا مدللين بفضل المشاعر المريضة ، أو محرومين من الخيال مثل ذهن الحضرى وخياله – فإن ذلك يجعلنا نسلم بأن انطباعات الفضيلة بعد أن تتشكل تتملك البدوى تملكا شديدا .

وهنا يجب أن نقر أن عرف الطلاق لا يمثل شيئًا كبيراً في أعراف البدو ، لكني أعزو أسباب الطلاق إلى المزاج الحاد الذي يتمتع به أبناء الصحراء ، وليس إلى نقص في المشاعر أو الأحاسيس الشخصية عند هؤلاء البدو(*) .

عندما تحدث مشادة بين رجل وزوجته ، ونظرا لعدم حدوث ما يغضب بين البدو ، يبادر الجيران إلى معرفة طبيعة المشادة ، ويقفون إلى جانب هذا أو ذاك . وإذا تفاقمت الأمور نجد أن طلاقة الزوجة وبلاغتها (وهذا أمر لا تعرفه المرأة الأوروبية ولا يتيسر لها) تنتصر على قضية الزوج العادلة ، لكن الزوج لا يطيق أن يرى نفسه محتقرا أو مزدريً بين رفاقه ، أو مغلوبا على أمره بفعل لسانها ؛ هنا وفي لحظة من لحظات الغضب يجد البدوي نفسه ينطق بكلمتي "أنت طالق" ، الأمر الذي يوقع الطلاق ولا يمنعه . في مثل هذه الظروف نجد أن الحاضرين يقولون : "خيرا فعلت ! نحن ندرك الآن أنك رجل !" وهنا نجد أن هذا النوع من التحية المساندة تطرد من ذهن الرجل البقية الباقية من الحكم الهادئ الرزين في ذهن الرجل . وهنا نجد أن البدو بدلا من توجيه اللوم إلى هذا الرجل بسبب اندفاعه ، يروحون يقرظون هذا العمل، وهم يقولون : إن الإنسان يتعين عليه نسيان مشاعره الخاصة عندما يثأر أو ينتقم لخطأ وقع عليه أمام ملأ من الناس . نوبات الغضب التي تكون من هذا القبيل تكون سبباً للطلاق .

في بعض الأحيان قد يتزوج البدوي امرأة أخرى لمجرد تمضية بضعة أسابيع قليلة معها ، على أن يقوم بتطليقها بعد إشباع رغبته التي لا تعرف للحب الحقيقي معنى ، لكن هناك حالات لا تحصى أو تعد لأناس – أو بالأحرى أزواج وزوجات – ظلوا مخلصين لبعضهم طوال حياتهم .

(*) في العام الماضي (١٨١٥) فتح بدوي سيناوي النار على نفسه عندما تزوجت المرأة التي طلقها من رجل آخر . وعندما دخل الزوج الجديد إلى مخدع زوجته قام الزوج السابق بوضع حد لحياته عندما كان جالسا بين أصحابه ورفاقه . هناك دليل آخر على مشاعر البدو حدث قبل ما يزيد على عشرين عاما بالقرب من وادي فيران في صحراء سيناء ، حيث جبل القتا حينما أقدمت فتاتان صغيرتان على إلقاء نفسيهما من فوق الجبل ، بعد أن ربطتا خصل شعرهما ببعضهما ؛ وبذلك حطمتا نفسيهما نظرا لأنهما كانتا ستتزوجان في تلك الليلة ، من رجلين غير مقبولين لدى الفتاتين . ولا تزال تلك القمة التي ألقت الفتاتان بنفسيهما من فوقها تسمى "حجر البنات" .

من المعتاد فى المدن والصحارى الشرقية أنْ يستعمل الناس التعبير الذى يقول : "علىّ الطلاق" من باب تأكيد القول تأكيداً شديداً . لو حدث وكان من يستعمل هذا التعبير مخطئا ، ومصراً على هذا اليمين فى وجود شهود عدة – فإن العرف يحتم عليه تطليق زوجته على الفور . وقد استعمل الشيخ الوهابى كل سلطاته للتقليل من وقوع الطلاق بين العرب ، وهو لا يثنى على الرجل الذى طلق زوجته وإنما يعنفه . يضاف إلى ذلك أن الشيخ الوهابى يعاقب عقاباً شديداً أولئك الذين يسمعهم يستعملون تعبير "علىّ الطلاق " .

يحدث أحيانا – وليس عادة – أن يقوم العربى برد زوجته التى سبق أن طلقها ، والتى يمكن أن تكون قد تزوجت مرات عدة خلال هذه الفترة .

التعدد أمر جد نادر بين البدو ، ولا أحد يستطيع الزواج من أكثر من واحدة سوى الشيوخ الأثرياء . والنتيجة الحتمية لتعدد الزوجات هى أن المرأتين اللتين تزوجتا من رجل واحد يصعب عليهما أن تعيشا فى خيمة واحدة .

فى مصر يمكن القول: إن بنات الفلاحين يقوم آباؤهن بتزويجهن لمن يدفع أكثر ؛ مما ينجم عنه كثيرٌ من المعاملات الوضيعة التى لا تراعى المشاعر .

فى الحجاز ، وكما هو الحال بين عرب البحر الأحمر ، تعد مسألة هرب زوجة مع رجل آخر أمرا نادر الحدوث ، وتنطوى على عقاب شديد . وعند عرب البحر الأحمر ، إذا هربت فتاة غير متزوجة مع حبيبها – قام أهلها بقتل ذلك الذى أغواها فى يوم الهرب نفسه، دون أن يعرضهم ذلك لعقوبة الثأر. لكنهم إذا قتلوه فى يوم غير هذا اليوم جاز الثأر والانتقام منهم .

هرب واحد من عرب التياهة مع امرأة متزوجة من نفس القبيلة ، وجرت محاولة قتل الرجل أثناء هربه بواسطة شقيق الزوج المضار ، وأصيب بجرح خطير . وشفى الرجل من جرحه وجرى تسوية الأمر عن طريق التحكيم بين الأطراف المتنازعة ، وتقرر أن يدفع المذنب ستين جملا ، وعبدا وعبدة ، وفتاة حرة بدلا من تلك التى هرب معها . على أن يقوم الزوج المضار بالزواج منها بلا صداق ، كما حُكم عليه – أيضًا – بتقديم

خنجر فاخر ، وتقديم الذلول الذى هربا عليه . هذه الأشياء التى يجرى دفعها تحت اسم الأضرار يطلق العرب عليها: " الغُرَّة " ، وهى لا تشتمل على النقود . هذا الهارب هو وأقاربه يتضامنون في سداد هذه الأضرار؛ الأمر الذى يفضى إلى الدمار الكامل . وهذا بدوره يجعل عقوبة الفرار الجنائى مع زوجة رجل آخر أمرا غير معروف فى الصحراء . وإذا قام زوج مضار بقتل ذلك الذى أغوى زوجته فإن قوانين البدو تعفيه من الثأر ، أو الانتقام الذى يمكن أن يطاله من أقارب القتيل .

المدافن

عرب الحجاز ، وعرب ساحل البحر الأحمر ، وكذلك المناطق المجاورة لهما من جنوبى سوريا وكذلك أهل مصر – لهم مدافن داخل المناطق التى يعيشون فيها ، وهم ينقلون إلى هذه المقابر أجسام الموتى من أصدقائهم من سائر أنحاء المنطقة كلها ، ويبدو أن هذه عادة قديمة. هذه المدافن غالبا ما تكون على قمم الجبال أو بالقرب منها . ويدو النوبة لديهم هذه العادة – أيضًا – .

لقد شاهدت بين القبائل العربية القديمة فى الوجه القبلى فى مصر ، أن النساء قريبات المتوفى يرقصن أمام منزله بالعصى والحراب فى أيديهن ، ويتصرفن كما لو كن جنودًا غاضبين أو ثائرين . وكمظهر من مظاهر الحداد فإن المثل الوحيد الذى يحضرنى هنا أن بعض أعراب مصر من قبيلة الرواجة وقبيلة الجعافر الذين يعيشون فى المنطقة المحيطة بإسنا – إذا مات أحد من أفراد هاتين القبيلتين قامت النساء بتلطيخ أيديهن وأقدامهن باللون الأزرق النيلى(*) ؛ وذلك دليل على الحزن الذى يعانينه ، ويستمر ذلك طوال ثمانية أيام ، ويمتنعن طوال هذه الفترة عن شرب الحليب ، ولا يسمحن لأى أناء من أوانى نقل الحليب بالدخول إلى المنزل ؛ حيث يعتقدون أن بياض الحليب يتناقض مع الحزن الذى يمتلك عقولهن .

(*) حيث تقدم النسوة – فى مبالغة الحزن – بتلطيخ وجوههن وأيديهن بالطين، وهى عادة مصرية قديمة. (المراجع)

بعض بدو الشرقية ، أو بالأحرى: عرب المناطق الشرقية من الدلتا ، يدفنون مع الميت سيفه وعمامته وحزامه .

ونظرا لندرة الكتان فإن البدو يجرى دفنهم فى بعض الأحيان بعد لف الجثمان فى عباءة فقط . أنا أعرف شيخا من عرب العمران ، على الضفة الشرقية للبحر الأحمر ، تراوده المخاوف من أن يدفنه الناس بهذه الطريقة ؛ الأمر الذى يدفعه إلى أن يحمل معه بصفة مستمرة أثناء رحلاته كفنه المجهز تماما .

التَّعبُّد الدينى

البدو فى سائر أنحاء الجزيرة العربية كلها لديهم أفكار دقيقة ومضبوطة جداً عن الله (عز وجل) ، لكن هذه المفاهيم مرتبطة بسوابق دينهم . يحاول الوهابيون – دون جدوى – إضفاء المزيد من التشدد على هذه الأفكار . وربما كان الخوف من العقاب هو الذى يجعل بعض القبائل الخاضعة لسيطرة الوهابيين بصورة مباشرة – يتبعون قواعد مذهبهم اتباعا حرفيا ، لكن بعد أن بدأت سلطة الوهابيين تتناقص ، فى إثر الهجمات التى شنها عليهم محمد على باشا ، عاد البدو كلهم إلى غيهم الدينى السابق ، وفى الوقت الذى كان فيه كثير من المستوطنين العرب فى نجد وفى اليمن يتحمسون لاتباع المذهب الوهابى فإنَ كثيراً من العرب لم يؤيدوا ذلك المذهب ، وذلك على الرغم من التزام البعض منهم بنظام الحكم الذى أسسه المذهب الجديد ؛ الأمر الذى اضطرهم إلى التحمس الشكلى لهذا المذهب ، والمبالغة إلى حد التشدد ؛ مستهدفين بذلك تحقيق مصالحهم السياسية الخاصة . والآن ، وفى الحجاز على أقل تقدير ، ونظرا للدمار الذى لحق بالنفوذ الوهابى – فإن تأثير البدو أصبح أقوى من ذى قبل، وقد وصل الأمر بهم إلى حد عدم أداء الصلاة على الإطلاق؛ لكى يثبتوا تخليهم عن المفاهيم والمبادئ الوهابية تخليا تاما . والبدو هم أكثر الأمم الشرقية تسامحا ، ومع ذلك فنحن نخطئ إذا ما قلنا : إنَّ المسيحى الخالص يمكن أن يلقى منهم معاملة طيبة ، فى غياب وسيلة

قوية تستطيع التحكم فى أهوائهم . والبدو يصنفون المسيحيين مع العرق التركى الأجنبى ، ومعروف أن البدو يكرهون الأتراك كراهية شديدة ، والمسيحيون والأتراك يعاملون معاملة قاسية ؛ لأن بشرتهم شقراء ولحاهم طويلة ، ولأن عاداتهم تبدو شاذة وغير عادية عند البدو الذين ينظرون إليهم على أنهم مخنثون، وأقل قوة وعزم من البدو .

تهيأت لى فى بعض الأماكن الأخرى فرصة ملاحظة أن المسيحيين حيثما وجدوا كانوا يعتنقون سلوكيات ، هى فى أضعف الأحوال شبيهة بالسلوكيات الإسلامية ، كما هو الحال عند أهل السلط وسكان الكرك، وكذلك سكان وادى موسى ، علاوة - أيضًا - على البائعين الجائلين المسيحيين الذين يزورون العنيز فى الصحراء السورية ، كل هؤلاء يحظون بمعاملة طيبة من البدو ؛ فى حين أن حالهم تكون مزرية بين العثمانيين المتعالين المتشددين .

لاحظتُ - أيضًا - أن شيوخ البدو الذين تربطهم علاقة بالمدن الحكومية القريبة منهم - يداومون على الصلاة عندما يجيئون إلى المدينة، كما يحظون بالاحترام فى هذه المدن . لكن عرب المناطق الداخلية لا يكلفون أنفسهم هذه المشقة ، ونادرًا ما يصلون داخل المدن أو خارجها .

الحُكْم

الملاحظات السابقة التى أتينا على ذكرها وتختص بالحكم البدوى ، تنطبق انطباقا تاما على كل قبيلة من القبائل التى أتيحت لى فرصة رؤيتها أو مشاهدتها . هذا يعنى أن شيخ القبيلة ليست له سلطة محددة ، لكنه يحاول تثبيت نفوذه عن طريق وسائل لا تتحقق إلا عن طريق الثروة ، والموهبة ، والشجاعة ، وعراقه المولد. يضاف إلى ذلك أن العشائر الأسرية التى تنقسم إليها قبيلة الشيخ تكون مستقلة بعضها عن بعض ، وشيوخ هذه العشائر هم الذين يشكلون مجلس القبيلة الفاعل . وإذا كان الشيخ الكبير يأخذ على عاتقه مسألة تحديد المسائل قليلة الأهمية - فإن رَأْىَ كل رجل من كبار

رجال القبيلة لابد من تأكيده ، ولابد من الحصول على موافقته عند مناقشة أى أمر من الأمور المتعلقة بالمصلحة العامة ، أو الأمور ذات الأهمية العامة . والمؤكد أن هؤلاء الشيوخ الذين تربطهم علاقة بحكام المدن فى كل من: سوريا ومصر أو الحجاز، والذين يحصلون على مكاسب كثيرة من وراء هـذه العـلاقة ، إلى حـد أنهم أصبحـوا أتباعا أو خاضعين لتلك الحكومات ، أو معتمدين عليها - قد أصبحت لديهم الوسائل التى تمكنهم من فرض سلطتهم ونفوذهم على قبائلهم ؛ الأمر الذى جعل العربى غير مستعد لمعاداة شيخ القبيلة ، لأن مثل هذا العداء يمكن أن يحرمه من الأرباح التى يمكن أن يجنيها من أهل الحضر ، وعن طريق النقل بصفة خاصة . ومع ذلك فإن الشيخ يظل فى وضع لا يستطيع معه تنفيذ أوامره بالقوة . يضاف إلى ذلك أن خبرة الشيخ اليومية تعلمه احترام الاستقلال الفردى لأفراد قبيلته . وأنا أعرف أن هناك بعض القبائل العربية التى تحولت إلى حضر لكنها ما تزال تعيش فى خيام فى مصر ، وأن الشيخ مخول بين هذه القبائل بتوقيع العقاب البدنى على الأفراد ، هذه القبائل لا يمكن تصنيفها ضمن القبائل البدوية الأصيلة التى ينصب عليها حديثنا فى هذا الكتاب ، يزاد على ذلك أن هناك عرفًا بين البدو يقضى عندما تقوم جماعة من البدو بصحبة شيخها بزيارة مدينة من المدن المجاورة بأن يعبر أفراد الجماعة عن تقديرهم الكبير للشيخ ؛ بأن يظهروا أنفسهم أنهم يخضعون لإمرته وسيطرته خضوعا تاما . والعرب يفعلون ذلك على أمل الإيحاء لحاكم المدينة الذى سيتعاملون معه بمدى قوة الشيخ الكبير وسلطته ونفوذه العظيم . ومثل هذا يترك انطباعًا يكون سببًا فى الحصول على صلاحيات أفضل وأحسن من المكاسب التى يمكن أن يحصل البدو عليها بغير هذا الطريق . هذا النوع من الخداع تجرى ممارسته بسهولة ويسر ؛ نظرا لأن حكام المدن هم من العثمانيين الجهلاء أو من الأتراك الذين لا يتصورون وجود شيخ أو رئيس فى غير وجود قوة إقطاعية أو مستبدة . لكن ما إن تعود الجماعة إلى خيامها فى الصحراء حتى يخلعون ذلك القناع ، ويعود الشيخ إلى الاختلاط من جديد مع أهل قبيلته ، ولا يجرؤ على توبيخ أحد منهم دون تعريض نفسه لردود مقذعة و مؤذيه أحيانًا .

تعلم محمد على باشا من خلال خبرته الشخصية ذلك الذى سبق أن تحدثت عنه . وعندما أنشأ محمد على مركز رئاسته فى الطائف (شرقى مكة) ظل مشغولا طوال ستة أشهر بتجميع الإبل اللازمة لنقل المؤن من جدة ، ومحاولة كسب شيوخ القبائل المجاورة إلى جانبه ، وراح يوزع على هؤلاء الشيوخ مبالغ نقدية كبيرة ، لكنه اندهش عندما اكتشف أن شيوخ البدو ليست لهم السلطة على البلاد ، ولم يستطع هؤلاء الشيوخ التصرف فى أى جمل من الجمال دون موافقة صاحبه . لم يستطع هؤلاء الشيوخ إجبار أحد من العرب على الانضمام تحت لواء أو بيرق شيخ أو رئيس أجنبى يحتقره البدو أو يكرهونه . وهنا ثبتت عدم جدوى جهود محمد على ، على الرغم من شرائه ولاء شيوخ عدة عن طريق الرشوة ، وبحكم استعدادهم لخدمته لكن أمثال هؤلاء يمكن تجميعهم ومعهم إبلهم نظرا لأن وسائل قربهم من مكة والطائف تجعلهم معرضين لهجوم خيالة الباشا عليهم ، ونظرا – أيضًا – لأن وسائل إعاشتهم كانوا يحصلون عليها من مخازن حبوب الباشا فى كل من جدة ومكة .

لما كان منصب الشيخ بين البدو ينتقل بين أفراد الأسرة نفسها ، على الرغم من عدم توريثه – فقد مكن ذلك لأسرة الشيخ من قديم الأزل من اكتساب نفوذ وسلطة كبيرة ؛ فقد وجد الوهابيون أن الضرورة تحتم تغيير شيوخ القبائل كلها التى أخضعوها لسيطرتهم ، وكان الوهابيون مقتنعين تماما أن ترك النفوذ الرئيس فى أيدى الأسرة الحاكمة سوف يؤدى إلى عدم ارتباط القبيلة ارتباطا وثيقا بالسيادة الجديدة ؛ من هنا راح الوهابيون ينقلون شياخة القبيلة إلى أحد أفراد الأسر الكبيرة ، الذى يفترض أنه يحمل أحقادا للشيخ السابق، وأنه من منطلق الدوافع الشخصية سوف يميل إلى زيادة المصالح الوهابية وتقويتها. ونجح هذا الخط السياسى بشكل عام، وأجمع الوهابيون على السير عليه والاهتداء به. وعندما غزا محمد على الحجاز استبدل شيوخ العائلات القديمة مخالفا بذلك حقوقهم العرفية القديمة ؛ الأمر الذى أدى إلى خلق معارضة قوية فى وجه الوهابيين .

كان للبدوى من قبل قضاة فى سائر أنحاء الصحراء، ونظرا لأن ابن سعود كان على علم بظلم قرارات وأحكام هؤلاء القضاة، ونظرا لأنه كان على علم – أيضًا –

باستعداد هؤلاء القضاة لقبول الرشاوى - فقد حدا ذلك بالرجل إلى عزل كل هؤلاء القضاة من ممتلكاته ، وأرسل إلى البدو قضاة من الدرعية ليحلوا محل هؤلاء القضاة السابقين. كان هؤلاء القضاة الجدد من أصحاب العلم، ويحصلون على أجورهم من الخزانة العامة، وشهد أعداؤهم بأنهم أصحاب عدل وقسطاس. أما تلك القبائل التى لم تخضع للوهابيين فقد ظلت تحتفظ بقضاتها من هنا كان لدى عرب سيناء قاضيان أو ثلاثة قضاة فى كل قبيلة . وإذا حدث نزاع بين الأفراد يجرى أخذ قرار القضاة الثلاثة الواحد بعد الآخر ، لكن رأى القاضى الثالث لا يمكن إلغاؤه أو نقضه، ويتعين على طرفى النزاع الالتزام به إذا لم يريدا للنزاع أن يحتكم إلى السلاح ، الذى غالبًا ما يعول عليه فى حسم المشاكل فى نهاية المطاف . على الرغم من اعترافنا بأن هذه المحاكم لا يجرى اللجوء إليها فى معظم الأحيان ، طالما أن الشئون المدنية يجرى حلها عن طريق الحوار والنقاش .

إذا مثل متنازعان أمام قاض من القضاة تعين عليهما أن يودعا لديه الأسلحة التى يحملانها أيا كان نوعها ؛ ليكون ذلك دليلا على رغبتهما فى تعليق تسوية النزاع عن طريق القتال الشخصى .

وظيفة القاضى من الوظائف المتوارثة والكامنة فى أسر بعينها ، وهى وراثية فى بعض القبائل وغير وراثية فى البعض الآخر . لكنه إذا تصادف وكان القاضى إنسانا غبيا أو بليدا فإن الشخص الذى يتمتع بالمهارة والفصاحة والطلاقة فى القبيلة يصبح قاضيا من قضاتها ، ويجرى اختيار مثل هذا الشخص اختيارا عرفيا فى حال الاختلاف على منصب القاضى .

يبدو أن المحاكمة أمام المبشعة (*) عرف من أعراف قبيلة العنيز ؛ وأنا أعلم أن هذه الوسيلة أو هذا العرف غير موجود بين البدو الذين قمت بزيارتهم. ومع ذلك فقد قيل: إن المطير الذين يعيشون بين المدينة المنورة ونجد كانوا يعرفون ذلك العرف فى الزمن

(*) هو ما يسمى : المحاكمة بالتعذيب ، وهى وسيلة بدائية كانت تصطنع لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مذنبًا ؛ وذلك بإخضاعه لضروب من الامتحان الخطير أو المؤلم . وكان الناس يحسبونها خاضعة لسيطرة قوى خارقة للطبيعة . (المترجم)

القديم، لكنهم اضطروا إلى التخلى عنه بناء على أوامر وردت إليهم من الأمير الوهابى. والحجاز لا يعرف هذه الوسيلة من وسائل المحاكمة .

مسألة حلف اليمين تعد أمرا بالغ الأهمية بين البدو ، ويبدو أن البدو يعلقون على حلف اليمين نتائج لها طابع خارق للطبيعة، وهم يعتقدون أن الخالق (عز وجل) يرفض تسخير اسمه (عز وجل) لخدمة الأغراض الدنيوية فى حال أداء اليمين بالطريقة الصحيحة . والبدوى وهو يدافع عن حقه يندر أن يقبل حلف اليمين أمام القاضى ، أو أمام قبر شيخ أو ولى من الأولياء عندما يطلب منه في بعض الأحيان(*) ؛ ولذلك نرى البدوى يضحى بمبلغ صغير بدلا من تعريض نفسه للنتائج المخيفة التى تترتب على حلف اليمين . والعرب فى تعاملاتهم مع بعضهم يذكرون اسم الله مئات المرات فى اليوم الواحد لتوكيد أقوالهم الزائفة ، لكن طالما أن اليمين لا يجرى حلفه بالطريقة الصحيحة فهم لا يخشون النتائج المترتبة عليه .

يزاد على ذلك أن مسألة الوصى ليست عامة فى سائر أنحاء الصحراء ، لكن عرب نجد كلهم يرعونها ويعملون بها .

العمليات الحربية البدوية

الإبل والخيل لدى البدو الذين يعيشون فى المناطق الجبلية أقل من تلك التى لدى البدو الذين يعيشون فى السهول ؛ من هنا نجد أن البدو الذين يعيشون فى المناطق الجبلية يعجزون عن القيام بالكثير من عمليات السلب والنهب فى المناطق النائية ، وبالتالى فهم ليسوا محاربين بالدرجة نفسها التى عليها بدو السهول . يضاف إلى ذلك أن العمليات الحربية الجبلية تعترضها مصاعب كثيرة وأخطار مجهولة تواجهها فى الأرض المفتوحة ؛ من هنا يصعب القيام بالغزو ، أو إن شئت فقل : السلب والنهب . يضاف إلى ذلك أن أغوار الجبال يندر أن يعرفها أحد غير أولئك الذين يعيشون فيها .

(*) هو إعمال للمبدأ الفقهى : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . (المراجع)

لا تزال هناك قلة من القبائل التى ليست على وئام كامل مع جيرانها ، وواقع الأمر أنى لا أستطيع فى الوقت الحالى القطع بأن ذلك هو الحال مع ذلك العدد الكبير من القبائل التى تعرفت عليها أو عشت معها . كانت قبائل سيناء كلها فى عام ١٨١٦ الميلادى على وئام مع العرب فى المناطق المجاورة لها ، باستثناء عرب السواركة ؛ تلك القبيلة التى تعيش بالقرب من غزة وحبرون (الخليل).

يتعين علينا هنا تأكيد ما قيل عن الروح العسكرية عند البدو، وهم جبناء فقط عندما يقومون بالسلب والنهب ، أو إن شئت فقل : عندما يقومون بما يسمونه الغزو . وتتجلى شجاعتهم عندما يصدون عدوا مشتركا . وقد ضرب البدو أمثلة كثيرة على ذلك، فى حروبهم مع الأتراك فى الحجاز . لقد هزم البدو الأتراك فى كل المواجهات والمعارك التى دارت بينهما ، أما معركة (بيسل) الشهيرة التى دارت فى شهر يناير من عام ١٨١٥ الميلادى فلم ينتصر محمد على باشا فيها إلا عن طريق التحايل والخداع ؛ فى هذه المعركة عثر على صفوف كاملة من البدو الذين كبلت أيديهم بالحبال التى ربطت فى أرجلهم ، هؤلاء البدو وُجِدُوا مذبوحين ، بعد أن أقسموا أمام زوجاتهم بأنهم لن يفروا أمام الأتراك . ويسهل علينا هنا أن نورد كثيرا من الأمثلة التى تدل على شجاعة البدو ، لكن هذه الأمثلة لا تنسحب على شخصية الأمة كلها . وهؤلاء الذين عرفوا البدو حق المعرفة فى صحراواتهم لابد أن يكونوا قد اقتنعوا تمامًا أنهم قادرون على القيام بأعمال تكشف عن شجاعتهم الكبيرة التى تتسم بالثبات ، كما تكشف – أيضًا – عن قدرتهم العالية فى التحمل والصبر على الأخطار ، على نحو يتفوق على شجاعة وصبر أعدائهم الأتراك .

كان شاهر أشهر محاربى القسم الجنوبى من الجزيرة العربية ، أثناء إقامتى فى الجزيرة ، وهو من قبيلة قحطان ، وقد استطاع هذا المحارب وحده الإطاحة بجماعة مكونة من ثلاثين خيالا من خيالة الشريف غالب الذى قام بغزو أراضى قبيلته . وقد قال غالب الذى كان هو نفسه صاحب شجاعة عظيمة فى تلك المناسبة : " منذ زمن سيف الله (هذا اسم من أسماء على بن أبى طالب) لم تعرف الجزيرة العربية

ذراعا أقوى من ذراع شاهر . في مرة أخرى قام شاهر وحده بصد الشريف حمود حاكم اليمن ، ومعه ثمانون رجلا من الراكبين .

شيخ بني الشمر في بلاد الرافدين ، والمدعو: "الجربة" ، أو "البيني" كما ينعتونه – ذاع صيته وعمت شهرته – أيضاً – الآفاق لشجاعته من ناحية وأعماله الجسورة التي قام بها من ناحية أخرى. وعندما جرى إنزال الهزيمة بقوات باشا بغداد في عام ١٨٠٩ الميلادي بأيدي عرب الروالة قام بيني هو وابن عمه أبو فارس بتغطية انسحاب الروالة ، وراح هذان الخيالان يحاربان جمعا كبيرا من خيالة العدو .

والشجاعة في الصحراء لا يمكن البحث عنها إلا بين الشيوخ وحدهم ؛ لأنهم هم الذين يتمتعون بالشجاعة والنفوذ .

هناك مثل واحد يوضح تفوق قائد أجنبي على البدو(*) في المعارك . هؤلاء البدو ليسوا معتادين على المعارك كثيفة الخسائر . وعندما يتردد عدد القتلى بين عشر وخمسة عشر قتيلا في معركة من المعارك – تظل ذكرى مثل هذه المعركة في أذهان أطرافها ردحا طويلا من الزمن . وإذا قُتل واحد من رجالهم المهمين تخور عزيمة البدو إلى الحد الذي يجعلهم لا يلقون أي بال لعملية المقاومة ؛ في حين أن الخسارة الأكبر من هذا على جانب عدوهم لا تترك مثل هذا الانطباع لدى الجنود المرتزقة . العرب يتكون لديهم مثل هذا الانطباع مع بداية المعارك الشرسة ، وهنا وبلا أدنى شك سرعان ما يعتادون على تحمل الخسائر الأكثر من ذلك في سبيل استقلالهم ، وذلك على عكس ما يمكن أن يتحملوه في العمليات الحربية الصغيرة التي تدور بينهم حول الآبار ومناطق الرعي . وخير مثال على ذلك هي تلك المعركة التي تسمى معركة (بيسل)

(*) يجب أن يكون هذا المثل حافزا على تصور إمكانية إخضاع البدو إخضاعا تاما ؛ وإذا سأل سائل عن الأسباب التي يمكن أن تغري رئيسا أجنبيا بمحاولة القيام بمثل هذا الغزو ، فإننا نجد الرد على لسان عبد الله بن سعود عندما يقول:

" الحسد يطال – أيضاً – أولئك الذين يسكنون في أكواخ بائسة في الصحراء ، وأولئك الذين يعيشون في التلال القاحلة الجرداء" .

التى دارت بين محمد على والعرب الذين كانوا يعارضونه ويقفون فى وجهه. بعد أن خسر عرب عسير فى هذه المعركة ألفا وخمسمائة قتيل (وبعد هروب شيخهم تامى من المعركة ، ومعه خمسة رجال فقط) استعاد عرب عسير قوتهم وتماسكوا من جديد ، وصمدوا طوال أربعين يوما ، وهم يقاتلون الجنود الأتراك فى موقعة جديدة داخل أراضيهم . كانت تلك الموقعة أقل خسائرا من المعركة الأولى ، لكنهم أبلوا فيها بلاء حسنًا أكثر من المعركة السابقة. لكن هذه المعركة استمرت يومين ، وانتهت بالهزيمة وأسر تامى .

القبيلة عندما تشتبك فى معركة من المعارك تكون قواتها تحت قيادة شخص يسمونه العقيد ، وأنا لا أعرف شيئا عن رتبة أو سلطة ذلك العقيد ؛ ولذلك أغفلت الحديث عن هذه الرتبة عندما كنت أكتب كتابى عن البدو .

من المعروف فى تاريخ البدو وفى سياستهم أن القبيلة عندما تكون مشتبكة فى معركة من المعارك فإنها تتخلى تماما عن سلطة شيخ القبيلة تخليا تاما ؛ وبذلك يصبح الجنود كلهم تحت قيادة وإمرة العقيد. وكل قبيلة من القبائل لها عقيد ، علاوة على الشيخ ، ويندر أن تتحد الوظيفتان فى وظيفة واحدة أو شخص واحد ، وأنا لا أعرف مثالا من هذا القبيل ؛ ومع ذلك حكى لى بعض العرب أنهم شاهدوا بين عرب البصرة رجلا كان يجمع بين منصب شيخ القبيلة والعقيد. منصب العقيد هذا وراثى فى عائلة بعينها ، وينتقل من الأب إلى الابن . والعرب يفضلون الخضوع لأوامر العقيد ، الذى يعرفون أنه يفتقر إلى الشجاعة والحكمة ، على أن يستسلموا لأوامر شيخ القبيلة أثناء القتال الفعلى ؛ والسبب فى ذلك أن العرب يقولون : إن المعارك التى يقودها شيخ القبيلة تنتهى دائما بالفشل .

وإذا التحق شيخ القبيلة بالقوات فإنه يصبح تحت قيادة العقيد ، الذى يتوقف دوره بعد عودة الجنود من المعركة، وهنا يستأنف شيخ القبيلة سلطته. كل قبيلة من القبائل – وبلا استثناء – لها عقيدها الخاص بها ، هذا الشخص نفسه يعمل فى بعض المناسبات عقيدا لقبيلتين أخرتين مجاورتين ، إذا كانتا قبيلتين من القبائل الصغيرة الموالية لقبيلته الأصلية. من هنا نجد أن أسرة أولاد سيد هى التى تتولى مناصب العقيد

فى سائر قبائل شبه الجزيرة العربية . يزاد على ذلك أن من يحمل رتبة العقيد يحترمه الناس ويوقرونه هو ومنصبه . العرب ينظرون إلى ذلك العقيد وكأنه ولى من الأولياء ، وهو الذى يحدد فى معظم الأحيان العمليات الحربية عن طريق أحلامه ، وعن طريق رؤاه أو توقعاته . وهو - أيضًا - المسئول عن تحديد الأيام حسنة الطالع التى تناسب الهجوم ، وهو - أيضًا - الذى يحدد الأيام الأخرى سيئة الطالع .

عندما يتشكك العقيد فى الإجراءات التى يجب اتخاذها ضد العدو فإنه يلجأ إلى التشاور مع كبار رجال جيشه، إذا وجد أن الأمر يستدعى ذلك. لكن العرب لا يرفضون مطلقا اتباعه ، حتى وإن كان يتصرف بدافع من حكمه وتقديره الشخصى .

البدو يعتقدون أن مجرد طفل من سلالة العقيد القديم يمكن أن يكون قائدا سليما؛ لأنهم يسلمون بأن الرجل يتصرف بناء على وحى سماوى . هناك رواية تقول: إنَّ قبيلة بنى لام فى نجد لم يبق منها مَن يشغل منصب العقيد سوى يتيم صغير واحد ، كان يعيش مع أخته التى كانت تكبره سنا، وأن القبيلة بسبب افتقارها إلى عقيد حقيقى كانت تخوض عملياتها الحربية بقيادة شيخ القبيلة . أجمع العرب رأيهم على أنهم فى غياب العقيد الحقيقى لن يكونوا محظوظين مطلقا ؛ وهنا تقرر أنهم لابد أن يتأكدوا من قدرة ذلك الطفل الذى سينتقل إليه المنصب - بطريق الوراثة - فى قيادة القبيلة أثناء العمليات الحربية . وهنا وجه العرب أخت ذلك الطفل بتجهيز جمل ، وأن تركب هى ذلك الجمل بنفسها ، طالبة من أخيها أن يركب خلفها على الجمل ؛ وبذلك يمكن له أن يشارك القوات التى كانت على وشك أن تبدأ مسيرها ، لو كان الطفل قد وافق على الركوب خلف أخته لما فكر العرب فى كفاءته ورجولته فى تولى القيادة . وعندما رغبت أخته فى أن يركب فى المكان الذى سبق تحديده نهرها وحاول أن يضربها ، وهو يتعجب مستاءً منها : " هل أنا عبد ؟ هل يتعين علىّ الجلوس خلف امرأة ؟ أبدا ، يجب أن تركبى خلفى". قبل العرب ذلك الاندهاش والتعجب باعتباره فألا حسنا . وتبعه العرب فى المعركة ، والبنت توجه الجمل وهى راكبة خلف أخيها ، وكللت المعركة بالنجاح .

نصـيب العـقـيـد من السلب والنهب – أو بالأحـرى من الغـزو – ليس واحـدا فى القبائل كلها ؛ فى بعض الأحيان قـد يحصل العقيد عـلى نصيبين أو ثلاثة أنصبة . لكن إذا شارك شيخ القبيلة فى الغزو يصبح نصيب العقيد مثل نصيب أى فرد آخر من العرب . العقيد كما سبق أن قلت موجود فى القبائل العربية كلها فى الجزيرة العربية . وحتى فى النوبة نجد أن العبابدة هم والجعالين ما زلوا يحتفظون بذلك المبدأ الذى أرساه أسلافهم . من هنا نجد أن قبيلة الفضعان العنزية الكبيرة فيها شيخ كبير اسمه ضويحى بن غوبين ، وفيها عقيد اسمه هجرس بن غاسل ، الذى تحتفظ عائلته بتوارث منصب العقيد بصورة دائمة . وعند وِلد على (وهى قبيلة أخرى من العنزة) نجد أن إزمير هو شيخ القبيلة ، أما الطيار فهو عقيد هذه القبيلة .

عندما يكون العقيد صاحب شجاعة وحكمة يصبح صاحب نفوذ وكلمة فى شئون قبيلته ، حتى فى وقت السلم . صحيح أن صوته لا يتساوى مع صوت شيخ القبيلة ، لكنه يُستشار فى المسائل المعقدة وفى الظروف الصعبة ، ويلقى رأيه اهتماماً كبيراً . لكن الرجل فى هذا الصدد لا يتمتع بميزة على العرب الآخرين من قبيلته ، الذين يجمعون – أيضاً – بين فضيلتى الشجاعة والحكمة .

إذا نجح عربى وهو فى صحبة أقاربه فى قيادة الغزو مرات عدة على الأعداء – سارع أصدقاء آخرون بالانضمام إليه ، وإذا تواصل نجاح مثل هذا الشخص ذاع صيته بأنه "حظيظ" ؛ وبذلك يرسى أصول منصب عقيد من الدرجة الثانية فى القبيلة ، وبذلك يمكن الاستفادة من مثل هذا العقيد فى الحملات الصغيرة . لكن عندما تكون القبيلة فى اشتباك حربى حقيقى فإن العقيد الأصلى هو الذى يتولى الأمور .

ليس للعقيد سلطة ملزمة على العرب أكثر من شيخ القبيلة . هذا يعنى أن أفراد القبيلة كلهم لهم مطلق الحرية فى اتباع العقيد أو الاعتماد عـلى أنفسهم ، لكنهم إذا قرروا الانضمام إليه أو اتباعه فذلك يعنى حتمية الالتزام بأوامره ، وإلا حق له التخلى عنهم باعتبار أنهم لا يستحقوا أن يكونوا جزءا من فيلقه. فى مثل هذا الحال يضحى أمثال هؤلاء الناس بنصيبهم فى الغنيمة التى يستولى عليها الجيش كله .

عُرْف العقيد هذا يرجع بلا أدنى شك إلى السياسة الحكيمة التى رسمها ذلك المشرع الذى أرسى قواعد الرعاة فى الجزيرة العربية . قصد المشرع بذلك العرف الحدَّ من زيادة السلطة المخولة لشخص شيخ القبيلة . هذا العرف الذى يمنع شيخ القبيلة من قيادة أعرابه فى زمن الحرب – يجعل من الصعب على هذا الشيخ الدخول فى حروب من منطلق دوافع خاصة ليس إلا ، كما يمنعه ذلك العرف – أيضًا – من أن يكون له نفوذ فى تقسيم الغنيمة ؛ الأمر الذى كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الشيخ – بصفته قائدًا عسكريًا – تهيأت له فرصة زيادة ثروته الخاصة ، بشكل لا يتناسب مع ما يحصل عليه العرب ، وأن هذه الثروة بمرور الزمن يمكن أن تغريه وتمكنه من أن تكون له سلطة أو قوة عرفية .

ونحن بدورنا قد تعلمنا من تواريخ مختلف أمم الغرب أن الملوك عندما يضعون أنفسهم على رؤوس جيوشهم – فإن رعاياهم تصبح لديهم المبررات التى تجعلهم يرثون بطولة ملوكهم عندما يتكبدون خسائر جسيمة. هذه الأفكار السياسية السليمة لا تخطر ببال البدوى الأمى . هذا البدوى الأمى ليست لديه فكرة أن منصب العقيد يحدث نوعا ما من التوازن مع سلطة شيخ القبيلة ؛ والسبب فى ذلك أن شيخ القبيلة لا يمكن أن يخطر بباله أنه طالما كانت فرسه قادرة على حمله ، أو طالما أن ذراعه قادر على استعمال الحربة – فذلك يعنى أن جميع المحاولات التى ستبذل من أجل استبعاده ، أو النيل من أصغر حق من حقوقه سوف تبوء كلها بالفشل الذريع . العرب يحترمون العقيد ويوقرونه باعتباره زعيما موحى به من قبل السماء لقيادة حروبهم . وهم فى وقت السلم ينضمون تحت لواء شيخ القبيلة من منطلق اللا مبالاة الخالصة ووعيهم بالاستقلال الذى استشعره الرومان عندما عهدوا فى أحلى فترات تاريخهم بثروتهم العامة إلى رعاية القناصل ، أو عندما وضعوها فى أحيان أخرى تحت تصرف الدكتاتور وإرادته .

أعمل الأمير الوهابى هذا العرف كاملا فى سائر أنحاء ممتلكاته ، بل إنه استخدم ذلك العرف – أيضًا – فى تنفيذ مشروعاته، بعد أن قام بتجميع كثير من عقداء القبائل حوله

فى الدرعية ، وبخاصة تلك القبائل التى لا يثق فى ولائها ؛ فيكون قد أصاب بالشلل من ناحية كلَّ الجهود التى ربما تبذل من أجل التخلص من نفوذه، وزاد من ناحية أخرى التخوف من سلطته وقدرته الخاصة ؛ نظرا لأن تجمع مثل هذا العدد الكبير من العقداء وتوحيدهم يضمن نجاح العمليات الحربية بصورة دائمة .

إلى جانب العقيد نجد أن بعض القبائل التى تتسرع فى القيام بغزو أو بحملة من الحملات – تقوم باختيار واحد من رجال القبيلة المحترمين ، ويطلقون عليه اسم: "الكفيل". هذا الكفيل تتمثل مهمته فى تسوية المنازعات التى تنشأ بين العرب حول تقسيم الغنيمة ، ومراقبة مسألة عدم حجب أى جزء من أجزاء الغنيمة عن المشاركين فيها . ودائما ما يشارك الكفيل فى الغنيمة ، ويكون له نصيب مثل نصيب العقيد . هذا الكفيل لا يوجد فى كثير من القبائل ، وهناك شخص مماثل للكفيل فى الحجاز .

الهجوم الليلى على المخيمات أمر شائع فى منطقة الحجاز ، على الرغم من نظرة العنيز إلى ذلك الهجوم باعتباره شيئا مشينا . عندما يستهدف العدو الهجوم المفاجئ على قبيلة من القبائل فهو يدبر لذلك الهجوم على نحو يفاجأ به الطرف الذى يجرى الهجوم عليه ، وغالبا ما يكون ذلك قبل ساعة واحدة من طلوع الفجر الأول ، أو فى الوقت الذى يكون فيه العدو متأكدا أن الكل نيام . والبدو ليست لديهم أية أفكار عن الخفارة الليلية ، وما زال البدو يفتقرون إلى الحرَّاس ، على الرغم من أهمية هذه الاحتياطات لأسلوب حياتهم وعملياتهم الحربية. والبدو إذا تخوفوا من هجوم وشيك أدى ذلك إلى بقاء رجال المخيم كلهم ، أو جنود أية حملة من حملات الغزو إلى جوار بعضهم البعض، وهم يراقبون ويترقبون متحفزين بنيرانهم طوال الليل . الشيوخ الوهابيون بحكم تبصرهم المعتاد، وبحكم الحكمة التى تنطوى عليها قواعدهم وأوامرهم التنظيمية – يعينون حراسا لحراسة قواتهم أثناء تقدمها. وقد أبلغنى الشخص الذى أوفده طوسون باشا فى عام ١٨١٥ الميلادى للتفاوض مع عبد الله بن سعود أنه شاهد حراسا منفردين وأنه رأى بعد ذلك مجموعات من الحراس ، ثم مفارز صغيرة على مسافة ميلين من مخيم عبد الله . يضاف إلى ذلك أن المرافق الوهابى الذى كان

مصاحبا لذلك الموفد كان يقول كلمة " السر " لكل حارس من الحراس الذين كان يمر عليهم ، كانت كلمة السر فى تلك الليلة هى " نصر " . وكان المخيم التركى ، المقام على مسافة مسير ست ساعات فقط ، مكشوفا ومعرضا للهجوم المفاجئ ؛ والسبب فى ذلك – وعلى الرغم من حروب العثمانيين المتكررة مع الأوروبيين – عدم تنبه هؤلاء العثمانيين إلى ذلك التحوط الضرورى والمهم لذلك العدو النشط المراوغ .

النساء يحظين باحترام كبير سواء جرى غزو المخيم ليلا أم نهارا ؛ ويجرى ذلك من قبيل عدم الاعتداء على شرفهن مطلقا . ولم أقرأ أو أسمع أو أرَ أيًا من تلك الأحداث المؤلمة أو المشينة . وعلى الرغم من ذلك يحدث فى بعض الأحيان – ومن باب العداء – أن تجرد النسوة من زينتهن التى يجبرهن الغزاة على خلعها ، هذه القاعدة يراعيها الوهابيون تماما عندما يغزون مخيما من مخيمات العدو ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الوهابيين يأمرون النساء بخلع ملابسهن القيمة ، والحلى الصغيرة القيمة التى يلبسنها أو يتحلين بها . وأثناء الخلع يبتعد الوهابى عن المرأة بمسافة كبيرة ويعطيها ظهره . فى إحدى المعارك التى دارت بين عرب المعازى وعرب سيناء فى عام ١٨١٣ الميلادى أصاب عرب المعازى – بطريق الخطأ – امرأة من عرب سيناء بجرح ، لكنها سرعان ما تماثلت بعد ذلك للشفاء . وفى العام التالى – أى : فى عام ١٨١٤ الميلادى – قام عرب سيناء بغزو على منطقة المعازى ، وداهموا مخيما بالقرب من القصير ، وقتلوا منهم ثمانية أو عشرة رجال ، وكانوا على وشك الانسحاب . وعندما تذكر واحد منهم ذلك الجرح الذى أصاب واحدة من إناثهم فى العام السابق قام بالتحول ناحية نساء المعازى اللاتى كن جالسات يبكين أمام خيامهن ، واستخدم خنجره المعقوف فى جرح واحدة منهن؛ وذلك من باب الثار للمرأة التى أصيبت فى العام السابق. لكن أصدقاءه ، على الرغم من إعجابهم بما قام به، أقروا بأنهم ينبغى ألا يحذوا حذوه أو يقلدوه فيما يفعل . وهذه هى الحادثة الوحيدة التى جرى ذكرها لى .

بدو سيناء لديهم عرف خاص بهم يتعلق بمسألة القيام بحملة أو غزو ضد العدو ؛ فمن عادتهم الالتقاء فى مكان التجمع الأول وعلى رأسهم العقيد ، ثم يقومون بتجميع

مجموعة من الأحجار السائبة على شكل كومة صغيرة ، يهيئونها على شكل جمل بارك، وبناء على أمر من العقيد يندفعون مرة واحدة متسارعين نحو إبلهم التى يركبونها على وجه السرعة ، ويبدأون الجرى دون النظر إلى الوراء إلا بعد أن يقطعوا مسافة كبيرة . وقد عجزت عن معرفة المعنى الدقيق لهذه الممارسة التى ينظر العرب إليها باعتبارها نوعا من التعاويذ الصوفية .

عندما تلتقى مجموعتان بدويتان متعاديتان من الخيالة ، وعندما تدرك كل منهما أنهما متساويتان من حيث العدد – فإنهما تتوقفان أمام بعضهما بعيدا عن مرمى طلقات البنادق ، وتبدأ المعركة عن طريق مبارزة بين رجلين . فيقوم أحد الخيالة بالابتعاد عن جماعته وهو يجرى بحصانه فى اتجاه العدو ، وهو يصيح مناديا : " أيها الخيالة أيها الخيالة ، فليخرج واحد منكم للقائى ! " وعندما يكون الخصم الذى يناديه حاضرا ، وليس خائفا من الدخول فى القتال – فإنه يتقدم إلى الأمام ، ويجرى بحصانه فى اتجاه العدو وإذا كان ذلك الشخص غير موجود ينادى أصدقاؤه قائلين: إنه غير موجود بينهم . وهنا ينادى الخيال المتحدى بدوره قائلا : " وأنت يا من تركب الفرس الرمادية ، من تكون ؟ " ويرد عليه الآخر قائلا : " أنا ولد " . وبعد أن يتعرفا على بعضهما ، يبدآن القتال ، وهنا لا يشترك أى أحد من الحاضرين فى القتال ، وإذا حدث ذلك اعتبره البدو من أعمال الخيانة . لكن إذا استدار أحد المقاتلين إلى الخلف ، وفر هاربا نحو أصدقائه – سارع أصدقاؤه إلى مساعدته ، ودفعوا عنه من يلاحقه ، والذى يحميه هو الآخر أصدقاؤه فى ذات الوقت . بعد العديد من هذه الاشتباكات الفردية بين أفضل عناصر الجماعتين تبدأ الجماعة كلها فى الدخول إلى ساحة القتال والمشاركة فيه . والعربى عندما يقابل صديقا شخصيا له بين صفوف العدو يحوّل فرسه نحو اتجاه آخر بعيداً عنه ، ويصيح قائلاً : " ابتعد ! لا تجعلنى سببا فى إهدار دمك ! " .

إذا لم يكن الخيال راغبا فى قبول تحدى الخصم ، لكنه يؤثر البقاء فى صفوف أصدقائه – راح المُتَحدى يسخر منه ويعنفه ويؤنبه ، ويعلن ذلك على الملأ باعتباره نوعا

من التفاخر الذى يتباهى به بقية حياته، وأن فلانًا ولد فلانٍ لم يجرؤ على مقابلة علان بن ترتان فى المعركة .

إذا كان القتال يدور على أرض منبسطة يروح المنتصر يطارد المنهزم الفار لمسافة تقدر بأربع أو خمس ساعات من الركض بالخيل وبأقصى سرعة ، وهناك بعض الحالات التى كانت المطاردة فيها تستغرق يوما كاملا . ومسألة المطاردة طوال يوم كامل هذه لا تتأتى إلا للخيول البدوية السلالة ؛ من هنا نجد أن البدوى يمتدح فرسه من هذا المنطلق ، أى من منطلق التحمل والصمود وليس من منطلق السرعة .

هناك عرف عام بين العرب مفاده أنه فى زمن الحرب وفى الأحياء والمناطق التى تدور من حولها الشكوك ، إذا ما التقت جماعة بجماعة أخرى فى الصحراء دون أن تعرف إن كانت تلك الجماعة عدوّة أو صديقة – فإن أولئك الذين يحسبون أنفسهم الأقوى يتعين عليهم مبادأة الجماعة الأخرى بالهجوم ، وفى بعض الأحيان قد تهدر الدماء قبل أن تتيقن المجوعتان من أنهما أصدقاء . لكن هذا الحال لا وجود له فى الممتلكات الوهابية ؛ حيث تتجاوز المجموعة القوية المجموعة الضعيفة دون مضايقة أو إزعاج .

أسلوب البدو القتالى أسلوب عتيق تماما . والمعارك التى جرى وصفها ضمن حكايات البطولة (سيرة عنترة ، وسيرة بنى هلال) تتمثل فى معارك منفردة ، من قبيل المعارك التى سبقت الإشارة إليها . وهذا يتفق مع ميول البدو ، الذين يتشوقون دوما لمعرفة مَنْ قَتَلَ مَنْ ، وهذا ظرف يصعب التأكد منه أو الجزم به فى الهجوم المشوش .

إذا دخلت قبيلتان من البدو فى حرب مع بعضهما ، ثم جاءت قبيلة ثالثة فى ذات الوقت للاستيلاء على الأرض أو المسقى الخاص بقبيلة من القبيلتين المتحاربتين – سارعت القبيلة المعتدى على أرضها أو مسقاها بإبرام صلح عاجل ، واتحدت مع القبيلة الأخرى ليقفا سويا فى وجه الغازى الأجنبى . وهنا تتقدم القبيلة التى جرى الهجوم عليها بطلب إلى بعض جيرانها تقول فيه : " نحن نطلب منكم قرضًا مدته يومٌ واحدٌ (بمعنى مساعدة يوم واحد لنا فى القتال) ، على أن نسدد لكم ذلك القرض عندما

تطلبون منا مساعدة مماثلة " . وقد حدث هذا الأمر فى ربيع وصيف ١٨١٢ الميلادى ؛ عندما وقع صراع عنيف فى الصحراء السورية ، شرقى مدينة حمص ، بين قبائل أهسين من ناحية والفيدان والسباع من الناحية الأخرى . كانت قبيلة الفيدان هى وقبيلة السباع قد حاولتا طوال سنوات عدة الاستيلاء على مراعى تلك السهول ، وتحصيل الإتاوة التى كانت تدفعها القرى التى كانت على الحدود السورية للبدو . وهنا قام ملهانا الملكم شيخ الأهسين ، بعد أن تأكد من تفوق أعدائه عليه تفوقًا كبيرًا من حيث العدد – بطلب العون والمساعدة من قبيلة الجلاى (واحدة من قبائل نجد ، التى كانت إلى زمن قريب جدًا غير معروفة فى الصحراء السورية) ، وعرض عليهم نصيبا من الفدية (الإتاوة) ، شريطة التعاون معه فى مواجهة الفيدان . وهناك راحت الجيوش المتحدة تقاتل طوال عشرين يوما متتالية قتالا مستمرا ؛ نظرا لتخييم تلك القبائل على بعد مسافة تقدر ببضع ساعات تعد على أصابع اليد الواحدة . يضاف إلى ذلك أن سهَّان ولد ديراى ، أحد كبار شيوخ قبيلة الجلاَّى ، كان فى الحجاز يقاتل تحت لواء عبد الله بن سعود قوات محمد على باشا . وعاد سهَّان إلى نجد ، ولما كانت تلك الحملات مصدرًا للسعادة والسرور عند البدو فقد عاد الرجل إلى سوريا مع قوته المكونة من أربعين خيالاً فى الوقت المناسب ؛ ليشارك فى المعارك التى سبقت الإشارة إليها .

هؤلاء هم الفيدان، يتخوفون من أن يغلبوا على أمرهم ؛ ولذلك طلبوا من الجربة – أى: شيخ بنى الشمر فى بلاد الرافدين – أن يقدم لهم يد العون والمساعدة . عرضوا عليه شروطا للسلام، ورجوه أن ينضم إليهم فى مواجهتهم للجلاَّى، تلك القبيلة الأجنبية (على الرغم من أنها تعد واحدة من أمة العنيز) التى يقولون إنها ليست صاحبة حق يجعلها ترعى ماشيتها على الحدود السورية . قبل الجربة على الفور شروط السلام ، وتقدم بعد ذلك بصحبة ألف وخمسمائة خيال ليدعم الفيدان ، لكن الجلاَّى صدوه ، واضطر الفيدان بعد ذلك مباشرة إلى التخلى عن سوريا ، والانسحاب فى اتجاه نجد . وبدو الشمر يقولون حاليا للفيدان : " أنتم مدينون لنا بيوم" .

بيارق القتال التى يطلق عليها البدو عليها اسم : " مركب عتفة " غير معروفة فى منطقة الحجاز ، وأنا أرى أنها مستخدمة فقط بين العنزيين . عند إبرام اتفاق السلام لا يكون للعقيد سوى صوت واحد شأنه شأن بقية أفراد القبيلة . وشرط "الحفر والدفن" شرط شائع فى سائر أنحاء الصحراء، وهو من الأمور التى يجرى النص عليها بصورة دائمة إذا أرادت القبيلة الدخول فى اتفاق سلام حقيقى . والعرب الذين لا يوافقون على هذا الشرط (ربما لقتل عدد كبير من أقاربهم وذويهم فى المعارك) يتخلون عن قبيلتهم ، ويقيمون مع قبيلة أخرى فترة من الوقت ؛ الأمر الذى يجعلهم فى حل من هذا الشرط ويصبح من حقهم الثأر لقتلاهم ، لكنهم يعجزون عن ذلك إذا ألغت قبيلتهم المطالبات الثأرية . وأنا بشكل عام لم أعثر سوى على قلة قليلة من القبائل التى ليس لها مثيل من هؤلاء الأعداء، الذين يظل معهم تعطشهم للثأر إلى ما بعد إعلان السلام ، الذى يرسى أواصر الصداقة بين الأعضاء الآخرين.

الثأر

أعراف الثأر واحدة وشائعة فى سائر أنحاء صحراء الجزيرة العربية ، والحق فى الثأر موجود فى كل مكان ضمن "الخمس". وقد حملت القبائل العربية هذا العرف معها إلى الأماكن التى انتقلت إليها ، وأصبحنا نجد الثأر بين بدو القبائل الليبية ، كما نجده - أيضًا - على ضفاف النيل ، إلى أن نصل إلى مدينة سنَّار. أى إننا نجده فى الأماكن التى تقيم فيها القبائل الأصيلة ، وهناك عرف يقول : إن الدم بالدم، أو بدفع غرامة باهظة ، وذلك فى حال موافقة أسرة القتيل أو الجريح على قبول مثل هذه الغرامة . جعل العرب هذه الغرامة مستقلة عن الحق العام ، ووضعوا حق الثأر بين أيدى أصدقاء القتيل أو المصاب أو من أصدقائه ؛ وذلك من منطلق أن العقاب القانونى لا يمكن أن يرضى إنسان أصيب بمثل هذا الأذى ، أو جرت إهانته على انفراد ، والذى خولته الطبيعة حق الثأر . يضاف إلى ذلك أن منظومة مؤسسة العرب السياسية تحول دون نشوء الاضطرابات التى تنتج عن ممارسة عملية الثأر بين الأفراد ؛

هذا يعنى أن كل عشيرة من العشائر يمكن أن تهب لحماية أى عضو من أعضائها يجرى اضطهاده أو ملاحقته بطريقة غير شرعية . ويبدو أنه فى حال المجتمع البدائى الذى ينعدم فيه الأمن الجماعى يصبح لكل فرد من أفراده كامل الحق فى الانتقام للجار الذى يقع على جاره .

والعربى ينظر إلى حق الثأر هذا باعتباره واحدا من الحقوق المقدسة ، والواجبات المقدسة أيضًا ، وهو يرى أن الاعتبارات الدنيوية كلها لا يمكن أن تثنيه عن الأخذ بالثأر . وحتى بين أعراف الفلاحين المصريين المحتقرين والمستبعدين – الذين يرتعدون من قبضة محمد على باشا الحديدية – نجد أن الفلاح المصرى يغمد خنجره فى صدر الرجل الذى يقتل شقيقه ، على الرغم من علمه بأن قيامه بمثل هذا العمل يجعله يدفع حياته ثمنا له ؛ ومن أجل هذا السبب راح الباشا يبذل قصارى جهده ، مستخدما فى ذلك كل الوسائل المتاحة لقمع الشرارة المتبقية من الإحساس بالاستقلال بين رعاياه .

كلما زادت قوة القبيلة ، وكلما زاد استقلالها وثراء أفرادها ، وبعدها عن المناطق الزراعية – قل رضاها عن تحويل الثأر إلى غرامة (دية) . كبار شيوخ القبائل فى سائر أنحاء الصحراء يعدون مسألة الوصول إلى حل وسط فيما يتصل بدماء أقاربهم أمرا مشينا وفاضحا لكن القبيلة عندما تكون ضعيفة ومصابة بعدوى الروح الخسيسة التى يتسم بها مواطنو المناطق المنزرعة المحيطة بالقبيلة – زادت مسألة قبول الغرامة (الدية). إنَّ مسألة التنازل عن الحق الشخصى فى الثأر والدّية ليستا من الأمور التى تخطر ببال العرب أو البدو ، وهناك مثل عربى يقول ك " النار ولا الثأر " بمعنى: " إنه لو كتب علىّ دخول جهنم فلن يثنينى ذلك عن الأخذ بالثأر " .

مسألة الدية تختلف من قبيلة لأخرى ؛ الدية عند بنى حرب فى الحجاز تقدر بثمانمائة دولار . هذا المبلغ نفسه حدده الأمير الوهابى ؛ متبعا فى ذلك القاعدة التى أرساها محمد ﷺ فى زمانه عندما أعلن أبو بكر أن دية الرجل الحر تقدر بمائة ناقة. وقد بذل الشيخ الوهابى كل ما فى وسعه لإقناع العرب فى سائر أنحاء ممتلكاته بالعدول عن مسألة الثأر المتأصلة بينهم ، وأن يقبلوا الدية عوضا عن الثأر ، لكن الرجل

لم يستطع التغلب على تلك الإساءات المتأصلة فى هؤلاء العرب . يضاف إلى ذلك أن البدو يستاءون من ابن سعود لمحاولته محو قانون هم يعدونه من القوانين المقدسة .

والعربى عندما يدخل فى مسألة الحل الوسط مع العائلة التى يكون مدينا لها بالثأر - يطلب من أقاربه وأصدقائه راجيا إياهم أن يعطوه بعض المساهمات على شكل غنم أو جمال ؛ حتى يتمكن من دفع الدية المطلوبة .

هناك عرف بين العرب مفاده أن المساهمات تحدد على أساس نسبى ، يشارك فيه كل الأفراد الداخلين فى مسألة الخمس ، والذين يكونون معرضين لتحمل الآثار الناتجة عن دين الثأر فى حال عدم قبول الدية بأى شكل من الأشكال . لكن هذه ليست قاعدة عامة ؛ وأن القاتل فى كثير من القبائل هو الذى يتعين عليه دفع الدية بنفسه ، بالتعاون مع إخوته ووالده فقط .

لكن فى تلك القبائل التى تسمح بالمساهمة فى جمع الدية نجد أن العرب يكشفون عن سخاء وكرم كبير ، عندما يكون القاتل الذى يطلب المساعدة محبوبا من الناس . وهنا نجد عطايا الناس وهباتهم تتزايد من سائر أنحاء القبيلة ، إلى الحد الذى لا يكفى فقط لسداد الدية المطلوبة، وإنما يؤدى إلى فائض يجعل مثل هذا الرجل من أثرياء القبيلة . هذا الفائض الذى يتبقى بعد سداد الدية يصبح ملكا لذلك القاتل . العرب فى مثل هذه الظروف يتجولون - أيضًا - بين أصدقائهم فى القبائل الغريبة؛ طلبا لتقديم العون والمساعدة لذلك القاتل ، ويندر أن يرفض الأصدقاء تقديم مثل هذه المساعدة ، هذا النوع من الشفقة والحنو نجده - أيضًا - فى حال الطوارئ ، يزداد على ذلك أنه ليست هناك مناسبة أو ظرف يدلل البدو فيه بحق على حبهم لبعضهم البعض باعتبارهم أعضاء فى أمة واحدة - غير تلك المناسبة التى يُطْلبُ فيها من العرب تقديم يد العون والمساعدة . العرب فى مثل هذه المناسبات يمكن النظر إليهم باعتبارهم شركاء فى شركة ضخمة ، يكون كل عضو فيها معنيا بمسألة الأرباح والخسائر .

مطلب التكافل هذا يحدث - أيضًا - عندما يسطو أحد من الناس على ماشية عربى من الأعراب . وهنا نجد أن أصدقاء مثل هذا الأعرابى لا يترددون فى المساهمة

فى تعويض ذلك الرجل عن خسارته، على الرغم من أن هذه المسألة لا تكون سخية على النحو الذى سبقت الإشارة إليه ؛ يضاف إلى ذلك أن هناك إحساسا وطنياً يجول داخل هؤلاء الناس ويجبرهم على تقديم هذه المساعدة ؛ والسبب فى ذلك أن القبيلة يعلو قدرها ويزداد شرفها كلما زاد عدد أفرادها الذين قتلوا الأعداء ، باعتبار أن هؤلاء الأفراد هم من الشجعان . لو حدث وخسر شيخ من شيوخ القبائل ثروته بفعل هجوم من العدو فإن أعرابه كلهم يهبون ويسارعون إلى نجدته وغوثه ، وإذا كان هذا الشيخ من أصحاب الحظوة عند أفراد قبيلته فإنهم سرعان ما يعيدونه إلى حالته التى كان عليها قبل سرقة ماشيته .

عند تسوية مسائل الثأر بين عرب سيناء يقوم أقارب القاتل بتحديد مكان يلتقون فيه مع أسرة القتيل ؛ حتى يمكن التوصل إلى اتفاق ، شريطة موافقة أصدقاء القتيل على حضور اللقاء . فى الوقت المحدد يحضر الطرفان إلى المكان المحدد ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وبقية أقاربهم ، ويمضون أياما على شكل احتفال يجرى فيه إكرام الضيوف الذين يفدون على المكان . وهنا يقوم أهل القتيل بعرض مطالبهم، ونظرا لعدم وجود غرامة (دية) محددة بين عرب سيناء (أو حتى بين العرب الآخرين) فإن الدية فى البداية تكون باهظة ، لكن الأشخاص المرافقين للقاتل يروحون يتوسلون طلبا لتخفيض قيمة الدية ، وعلى سبيل المثال: تقوم امرأة بالمثول أمام أقرب أقارب القتيل وتروح تسترحمه ، وهى تستحلفه برأس طفله الصغير أن يجبر خاطرها بتخفيض دولارين أو ثلاثة دولارات ، وهذا شيخ كبير من شيوخ القبائل يقسم بأنه لن يتناول الطعام إلا بعد أن يخصموا من الدية ناقة جبرا لخاطره . وبهذه الطريقة يتجمع الحاضرون حول المُطَالِب بالدية ، والذى يتشدد فى البداية ، لكنه يميل فى نهاية المطاف لاستعراض كرمه؛ مخفضا بذلك قيمة الدية بمعدل دولار بعد الآخر، إلى أن يتم الوصول إلى مبلغ ترى الأطراف كلها أنه مبلغ معقول . ويجرى دفع هذا المبلغ على أقساط شهرية، يجرى الانتظام فى سدادها . عرب سيناء يكفيهم دفع عشرين أو ثلاثين ناقة سدادا للدية ، وهم – أيضًا – يقدمون لأهل القتيل فى مثل هذه المناسبة بعض النخيل الذى يجود فى الوديان التى يعيشون فيها .

بالإمكان الاتفاق على قبول دية صغيرة نسبيا ، لكن فى مثل هذه الحال يتعين على المدين (أى القاتل) الاعتراف هو وأسرته أنهم " حوَّاسون" (*) (بمعنى: أناس محتاجون) لدى ممثلى الطرف الآخر . هذا الإقرار إذا حدث على الملأ يكون بمثابة إرضاء لمهابة الطرف الآخر ، لكنه يعد سُبَّة للطرف الآخر ؛ وبالتالى يصبح الإقبال عليه أو قبوله أمراً نادر الحدوث ، على الرغم من أنه لا تترتب عليه أية نتائج أخرى . واقع الأمر أن المسألة ليست سوى مجرد التزام اسمى فقط ، وإذا ما جرى إعلان ذلك الاعتراف فإنه يبقى إلى الأبد فى العائلتين ، وعرب العمران هم وعرب الهيوات يلتزمون بهذا العرف .

أولاد على ؛ تلك القبيلة البدوية الليبية القوية التى تعيش فى الصحراء الواقعة بين الفيوم والإسكندرية ، لديهم عرف يقضى بعدم قبول الدية مطلقا ، إلا إذا قام القاتل أو واحد من أقرب أقربائه بتحمل أخطار تقديم نفسه داخل خيمة القتيل ، ويقول للحاضرين من أقارب القتيل : " ها أنذا أمامكم ، اقتلونى أو اقبلوا الدية " . وهنا يتصرف أقرب الأقارب على النحو الذى يراه ، دون أن يلقى عليه اللوم ؛ والسبب فى ذلك أن الغريب أنكر حق " الدخيل " وتخلى عنه ، وحق الدخيل هذا مقدس عند القبائل الليبية مثل قبائل الجزيرة العربية تماما . والرجل الذى يتصرف على هذا النحو يسمونه: " مستذنب " أمَّا إذا التقى العدو ذلك المستذنب قبل أن يدخل خيمته أدى ذلك إلى الهجوم على المستذنب . وإذا ما دخل الخيمة فإن العرف يقضى بقبول الدية ، لكن فى بعض الأحيان قد يحدث العكس .

قبيلتا: العمران والهيوات يتبعان عرفا يعد استثناءً عامًا من منظومة الثأر القبلية الداخلة فى موضوع " الخمس "؛ إذا ما قُتِل أحد من أفراد هاتين القبيلتين بأيد مجهولة أو بواسطة قبيلة معروفة – فإن أهل هاتين القبيلتين يرون أن من حقهم الثأر من أى فرد من أفراد هذه القبيلة ؛ سواء أكان بريئا أم مذنبا . وإذا أمكن الوصول

(*) الحوَّاس : الذى ينادى فى الحرب مستجيرا: يا فلان يا فلان. (المترجم).

إلى حل وسط فإن القبيلة كلها تسهم فى سداد الدية ، طبقا لظروف كل عضو من أعضائها ؛ ولهذا السبب نجد العرب يقولون : " العمران والهيوات يَشُطُّون " ، الأمر الذى يجعل جيرانهم يخشونهم ويخافونهم .

كثير من القبائل الأخرى تطلب دم أولئك الذين يُقتلون بأيد مجهولة من قبائل معروفة - من شيخ القبيلة نفسه ، الذى يقوم بدفع الدية التى يشارك أعرابه فيها . هذا العرف لا يعد عرفا بأى حال من الأحوال؛ وذلك على الرغم من قول العرب : إنَّ أى قبيلتين لا يمكن أن تكونا على وفاق ووئام طالما عرفتا أن مسألة الثار بينهما لم يَجْرِ تسويتها.

العرب لهم موقف قيِّم فيما يتعلق بخطورة وقداسة حلف اليمين ، إلى حد أنه إذا ما دارت الشكوك حول قيام إنسان بقتل إنسان آخر ، وطلب أهل القتيل من المتهم حلف اليمين فإنه يعد بريئا بعد حلف اليمين . وأيا كانت النتائج المترتبة على حلف اليمين فإنه يظل وصمة على جبين العربى الذى يقدم على فعل مثل هذا العمل . وسوف أورد هنا اليمين التى يؤديها من ينكر القتل:

"والله إنى ما شجيتو جلده، وما يتمت ولده"، هذا اليمين يعنى: والله ! أنا لم أخرق جلداً ولم أُيتم ولداً .

إذا جرح رجل فى شجار أو عراك وقام بعد ذلك بقتل غريمه - فليس هناك تعويض عن ذلك الجرح ، لكن دية القتل تفرض حتى وإن كان القتيل هو المعتدى . ولو لم يقتل القتيل لحصل الجريح على غرامة كبيرة ؛ تعويضًا له على الجرح الذى أصابه .

إذا وقع حادث قتل عند عرب سيناء ، فإن القاتل يهرب أو يحاول الوصول إلى حل وسط عن طريق دفع الدية؛ وهنا يتعين على القاتل أن يضع نفسه تحت حماية رجل محترم من رجال القبيلة . أهل القتيل وأصدقاؤه يولون هذا الرجل احترامهم طوال فترة

زمنية مدتها ثلاثين يوما . إذا لم يتمكن القاتل قبل انقضاء هذه المهلة من الوصول إلى حل تعين عليه الهرب ، وإلا أصبحت حياته معرضه لخطر الانتقام والثأر بأيدى أعدائه.

ما سبق أن قلته عن " الذبح " ينطبق على قبائل البدو كلها . والبدو فى حروبهم مع بعضهم البعض يفرقون بين "الثأر" و"الذبح" الذى يلجأ البدو إليه فى أحوال الغيظ والاستياء الشديد . يحدث فى كثير من الأحيان ، وبخاصة بين عرب الجبال الذين تكون حروبهم الأكثر دموية والأكثر فظاعة عن الحروب التى تدور بين السهول ، والتى نادرا ما تحدث – أن تقوم قبيلة من القبائل بقتل كل أعدائها الذكور الذين يستطيعون أَسْرهم أو الإمساك بهم ، دون أن يتساءلوا أو يعرفوا عدد أفراد قبيلتهم الذين قتلهم الخصوم . هؤلاء يثأرون لأنفسهم بطبيعة الحال ، كلما تهيأت لهم فرصة الثأر .

مسألة الذبح العام أو المجزرة التى لا يراعى أحد فيها التقصى أو معرفة الأسباب – لا تزال سارية بين عرب البحر الأحمر ، أى هؤلاء العرب الذين يسكنون جنوبى سوريا ، وكذلك عرب سيناء . لكن السلام سرعان ما يعود من جديد ، الأمر الذى يؤدى إلى توقف إهدار الدم . العربى يمكن أن يتعرض لانتقاد قبيلته إذا لم يلتزم بالعرف المتبع ، أو عندما يسمح لنفسه بالتأثر بمتطلبات الإنسانية إذا قرر رفاقه القيام بعملية من عمليات الذبح . وأنا أرى أن المذبحة الإسرائيلية التى حدثت للملوك الأسرى (أى: شيوخ البدو ؛ نظرًا لأن الترجمة الصحيحة لكلمه " أمير " أو " ملك " هى: " شيخ بدوى ") يمكن ردها إلى عرف مشابه كان سائدا فى الأزمان السابقة . وربما يكون الشيوخ قد أصروا على التمسك التام بالاستعمال القديم ؛ وذلك من باب التخوف من أن يؤدى التغاضى عن ذلك العرف إلى ضعف الروح العسكرية والحربية فى أمتهم أو شعبهم ، الأمر الذى يقلل من احترام جيرانهم لهم . وإلى يومنا هذا نجد أن البدو فى بعض الأحيان يُوَبخون لإبقائهم على حياة أفراد ينتمون إلى قبيلة لم ترحمهم .

اللصوصية والسرقة

من السهل علينا تصور أن هؤلاء البدو الذين يتحلون بأكبر قدر من روح المغامرة هم أكثر الناس تعرضا للهجوم ، وهم - أيضًا - الذين يجرى استخدامهم فى الحرب فى معظم الأحيان . وهذا هو حال البدو الذين يسكنون السهول الغنية بالمراعى ، فى حين أن أولئك البدو الذين تكون أراضيهم بين الجبال ، أو الذين تحميهم الظروف المحلية من احتمال غزوهم فى كثير من الأحيان ، أو أولئك الذين يكونون بعيدين وفى مأمن من القبائل المحبة للحرب - يعدون أقل شجاعة وجسارة وجرأة . ونحن فى ضوء هذه المعلومات نجد أن مهنة الحرامى يذيع صيتها بين القبائل الشرقية ، فى حين نجد بين هؤلاء البدو الذين يعيشون فى مناطق محددة ، فى الأراضى القريبة من مصر ، وفى اتجاه مكة - أن السرقة لا تمارس على نطاق واسع أو فى كثير من الأحيان؛ ومن ثم فإن من يحاول السرقة من خيام قبيلته يعيش بقية حياته محتقرا من أهله وأصدقائه.

مسألة اللصوصية والسرقات غير معروفة تمامًا بين عرب سيناء ؛ هذا يعنى أن الملابس أو الأثاث يمكن أن يتركها الناس على الصخور دون أن يسطو عليها أو يأخذها أى أحد من الناس . منذ سنوات قلائل قام عربى من عرب الصوالحة بالإمساك بولده ، وحمله مقيداً إلى قمة جبل من الجبال ، وألقى به من فوق القمة ؛ بعد أن اتهم بسرقة شيء من القمح من صديق له . لقد شهدت بنفسى أن كل جزء من أجزاء الصحراء كان فى مأمن كامل من اللصوص ، كما هو الحال فى جبال سويسرا على حد قول الناس ، وذلك باستثناء الجزء الشمالى من شبة الجزيرة العربية ، الذى يعد مكمنا للخطر فيما يتعلق باللصوصية والسرقة .

عرب الصحراء الشرقية كلهم يستفيدون من عرف الربيط ، يزاد على ذلك أن هؤلاء الذين يسكنون مدن نجد والقصيم من عادتهم - أيضًا - أن يحبسوا الحرامى الذى يداهمونه حبسا انفراديا، لكن هذا العرف غير معروف لعرب الحجاز. قبيلة بنى حرب

التى تعيش فى المنطقة الواقعة بين المدينة المنورة ونجد يسرى بينها عرف الربيط ، لكن القبائل الأخرى من بنى حرب ترفض هذا العرف ، وبخاصة القبائل التى تعيش جنوبى المدينة المنورة . يضاف إلى ذلك أن الأمير (الشيخ) الوهابى ترك هذا العرف ساريا بين رعاياه ؛ وذلك من منظور محاولاته الحقيقية لوقف السرقات الخاصة .

الطرفة التى سأرويها هنا ، والتى سمعتها مرارا وتكرارا ، توضح الطريقة التى تمكن الربيط من الهرب. لقد ضُرب هذا الربيط ضربا مبرحًا من سيده فى وجود واحد من العرب ، الذى تعاطف معه وقرر تحريره وفك أسره ؛ قام العربى بشق تمرة إلى نصفين ، وأكل نصفًا وأعطى النصف الثانى لامرأة كانت تجرش قمحا أمام الخيمة وترجاها فى كلمات قليلة أن تعمل على وضع نصف التمرة فى يدى الأسير . ويعبقرية وفن كبيرين راحت المرأة تتغنى بواحدة من الأغنيات ، من قبيل الأغنيات التى تتسلى بها النساء أثناء العمل ، وأدرجت ضمن الأغنية كلمات محددة تتعلق بالأمر المطلوب ، وعندما تيقنت أن الأسير أو السجين فهم ما تقول رمت شق التمرة دون أن يراها أحد إلى الحفرة التى فيها الأسير ، كانت يدا الأسير فى ذلك الوقت غير مربوطتين ، فبلع الأسير قسما من شق التمرة ، وعندما رأى أناسًا كثيرين مجتمعين أمام الخيمة صاح مناديا فيهم ، وطالبا منهم أن يفكوه ويحرروه ؛ قائلا بأنه أكل مع فلان ، ثم ذكر اسم الرجل الذى اقتسم معه التمرة عندئذ سارع سيده إلى الحضرة وأنكر صدق ما قاله الأسير وضربه ، لكن الشخص الذى تصادق مع ذلك الأسير ظهر وأكد صدق قوله . وهنا تقرر أن يقدم السجين جزءا من الطعام ليؤكد به صدق ما يقول ، وعندها أظهر السجين ذلك الجزء المتبقى من شق التمرة ، الذى كان يحتفظ به فى مكان يحول الأدب بينه وبين ذكر اسمه . لقَد خبأ الأسير ذلك الجزء من شق التمرة فى ذلك المكان إثباتًا قطعيًا مخافة اكتشافه قبل وصول مُخلِّصه . وبعد أن أثبت الأسير أنه اقتسم تمرة واحدة مع عربى من القبيلة – اضطر سيده إلى تحريره وعتقه .

الخيانة

إذا لم يعد الحرامى الأشياء المسروقة أو التى حصل عليها عن طريق الخيانة والغش ، وإذا لم تجبره قبيلته على ذلك ، أو إذا لم تطرد الحرامى من مخيمها – فإنها تجر على نفسها عقوبة نعتها بأنها كلها "بيخ" (*) أو "فسدة"، الأمر الذى يجعل العرب الآخرين لا يحترمون "الدخيل" الذى يكون من هذه القبيلة إلا بعد أن تعود المسروقات .

الدخيل أو الحماية

العرب يستعملون مصطلحا عاما بينهم هو " زبن "؛ للدلالة على معنى " الدخيل " . والعرب يقولون " زبينت " بدلا من " دخيلت " ، والقبيلة التى يجد الإنسان فيها حماية يسمونها " مزبنة " . و"الملِّحَة" هى التي تعطى الحق فى مطالبة الدخيل ، وهى تتمثل فى أصغر الأجزاء من الطعام الذى جرى تناوله مع الحامى . وإذا استطاع الربيط تخليص نفسه من سجنه على نحو تَمَكَّن معه من ركوب فرس أو جمل من خيول أو إبل ربَّاطه أو أن شئت فقل: سيده، وهرب بتلك الفرس أو الجمل إلى عربى آخر بحثًا عن الحماية ، أو طالبا الحماية – فإن العرف القديم يعطيه الحق فى الاحتفاظ لنفسه بتلك الفرس أو الجمل الذى هرب عليه ، كما يعطيه الحق – أيضًا – فى امتلاك السلسلة أو الحبل الذى كان ملفوفا حول عنقه .

لنا أن نتخيل فى سهولة ويسر أن العرب كلهم لا يتمسكون بعرف الدخيل باعتباره عرفا مقدسا، على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه الحال إذا كان الأمر يخص مصالحهم المباشرة . هناك بعض الأمثلة القليلة جدا بين القبائل العنزية الكبيرة ، وبين العشائر الثرية الأخرى التى تسكن السهول المترامية – عن بعض العرب الذين خذلوا أولئك الذين طلبوا منهم أن يكونوا دخلاء لهم ، أو تباطئوا فى منح هذا الحق طبقا لظروفهم .

(*) الأصل فى كلمة "بيخ" هو "باخ". بمعنى "سكن وفتر"، و"باخ اللحم ونحوه" بمعنى "تغير وفسد". (المترجم).

هذا هو يوسف باشا الدمشقى يضطر فى العام ١٨١٠ الميلادى إلى التخلى عن مدينة دمشق ، ولم يتيسر له الوقت اللازم لتدبير مسألة هربه أو فراره مع عشرة من أتباعه ، ويجد نفسه مضطرا للانسحاب والتراجع إلى الحوران التى كانت قبيلة وُلد على كبيرة العدد قد نصبت خيامها فيها . ويلجأ يوسف باشا إلى ابن إزمير كبير شيوخ هؤلاء العرب - الذى كان يتباهى دوما أيام أَنْ كان يوسف باشا فى الحكم ، بأنه صديق له ، وأنه سبق له الحصول على الكثير من دلائل كرم يوسف باشا - الذى استقبله استقبالا بارداً ، تحسبا من أن يجر على نفسه غضب أو استياء من سيخلف يوسف باشا ؛ ولذلك قال ابن إزمير ليوسف باشا بعد الانتهاء من تناول الطعام : إنه لا ينصحه بالبقاء فى مخيمه الذى لا يبعد عن دمشق سوى مسير ثلاثة أيام فقط ، الأمر الذى قد لا يوفر ليوسف باشا الحماية والأمن الكاملين . فهم الباشا ذلك التلميح، وواصل مسيره صوب الشمال بصحبة قلة قليلة من المرشدين، متجها إلى الصحراء شرقى حمص ، لينزل عند خيمة مهنا الملهم شيخ الأحسن ، الذين هم قبيلة عنزية أخرى من القبائل التى لم يكن يوسف باشا على وفاق دائمًا معها، وكان يحاربها فى الكثير من الأحيان بسبب غيرته من المحاباة التى كان الباشا يسبغها بصفة دائمة على ابن أزمير . ولقى يوسف باشا من المهنا استقبالاً حاراً ، قال له : " خيمتى هى ملجأ المكروبين ، وحظيت بشرف حماية رجال عظام من قبل . ولو قام خلفك سليمان باشا ، وذبح رجال الملهم كلهم فلن يستطيع مطلقا طردك من هذا المكان ". وقدم المهنا ليوسف باشا فرائض كرم الضيافة طوال أيام عدة ، ثم رافقه بعد ذلك بصحبة مجموعة من الرجال المسلحين إلى بلدة رايحة بالقرب من حلب ، ومنها سافر الباشا إلى إنطاكية قبل ذلك ببضع سنين ، وعندما قام يوسف باشا هذا بقيادة فيلق من الخيالة كان فى خدمة إبراهيم باشا الدمشقى - هزمه العرب فى الصحراء ، وهرب الرجل ولاذ بخيمة شيخ الموالى ، تلك القبيلة التى كانت تخيم بالقرب من حلب والشهيرة بميلها إلى الخيانة ، والتى بلغت حداً كبيرا من التحلل والانهيار. وهنا نجد جنجى ، شيخ القبيلة ، يعامل يوسف باشا معاملة كريمة ، لكنه طلب منه عندما كان يودعه أن يترك له شاله الكشميرى الفاخر ، وكيس نقوده ، وسيفه . الأمثلة التى من هذا القبيل نادرة الحدوث

بين العرب ، بل إنها لا تحدث مطلقا فى القبائل العريقة . والبدو على الرغم من قوتهم وروحهم القتالية قد يخسرون شرفهم فى بعض الأحيان .

هذه هى مشاعر العرب تجاه مسألة أو فكرة " الدخيل " . نجد الأمير الوهابى عبد الله بن سعود يعبر عنها أفضل تعبير فى الرسالة التى أرسلها إلى طوسون باشا والتى يقول فيها: "اسأل البدو، سيجيبونك أنهم لو قتلوا واحداً من آل سعود ، وكنت قد وعدتهم بالحماية ، فسوف يثقون بكلامى . " وفى رسالة أخرى نجد عبد الله ابن سعود يقول للباشا الذى كان يُشكك فى نواياه : " لو قدر لواحد من رجالك أن يحمل رأس واحدٍ من أشقائى بين يديه ، فلن يكون لديه ما يخيفه منى". التأكيدات المماثلة من جانب أى عثمانى (أو تركى) لا يمكن الوثوق بها ؛ نظراً لأن العثمانيين يتباهون ويتفاخرون بالإيقاع بأعدائهم عن طريق خيانة الوعود والعهود .

فقد عرف الدخيل كثيرا من قوته بين هذه القبائل ، التى يجعلها موقعها الجغرافى وطريقة معيشتها على اتصال بكل من الحكام والمستوطنين الأتراك . عرف " الدخيل " عند هؤلاء الحكام والمستوطنين لم تعد له فاعلية ، اللهم إلا إذا دخل طالب الحماية خيمة واحد من العرب؛ والسبب فى ذلك – على حد قولهم – أن الهارب لا يستحق الحماية ، لمجرد ادعائه بأنه أكل مع الدخيل ، أو لمسه هو أو أى شىء فى يده .

إذا رأى العربى أناسا يقتربون من خيمته وينتوون النزول أمامها ، وإذا كان صاحب الخيمة يشك فى انتماء هؤلاء الغرباء إلى قبيلة معادية ، وأن الظروف اضطرتهم إلى الهرب طلبا للحماية ، وهو أمر لا يمكن رفضه – قام صاحب الخيمة بالمناداة عليهم من بعيد قائلا : " إن كنتم تتبعون قبيلة معادية فسوف يجرى تجريدكم من ملابسكم ". بعد هذا النداء والإنذار لا يكون من حق هؤلاء الغرباء طلب حق الدخيل من ذلك الشخص ، لكن يجوز لهم طلب هذا الحق من خيمة أخرى .

هناك بعض الأمثلة التى تشير – أيضًا – إلى أن مجرد دخول الخيمة لا يكفى لحماية الإنسان من مطارديه. ونحن عندما نرى عرف "الدخيل" يستهان به على هذا النحو يمكن لنا القطع بالحقيقة التى مفادها أن القبيلة فقدت أهميتها الوطنية كما فقدت

– أيضًا – جزءا من استقلالها . يضاف إلى ذلك أن خيانة الحكام الأتراك هم والمماليك هى التى جعلت القبائل الضعيفة فى الصحراء الشرقية على حدود مصر تنسى أعرافها وقوانينها القديمة ، وتبدأ فى التدهور والتحلل . الأمثلة التى من قبيل تلك الأمثلة التى سجلها أو دونها اللورد فالينتيا عن زوجة شديد (وهذه أمثلة شائعة تماما بين قبائل العنزة) – يندر العثور على مثلها فى تلك الأجزاء ، التى اتفق فيها العرب فيما بينهم على عدم حماية الرجال الذين يطاردهم رجال عظام أو أقوياء . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن البدو الليبيين – أو بالأحرى: البدو المغاربة كما يسميهم المصريون – يتمسكون بتلك القوانين والأعراف تمسكا حرفيا وشديدا ، كما أن عرف " الدخيل " بينهم يجرى الالتزام به التزاما صارما ومراعاته مراعاة دقيقة ، كما أن الحصول عليه أمر سهل تماما كما هو الحال بين العنزيين .

احتلال القوات التركية للحجاز كان له تأثيره السيئ على البدو ؛ فهم أصحاب حق عندما يواسون أنفسهم لضياع استقلالهم ، إذ كانوا يظنون أن هذه مسألة مؤقتة . لكنهم لن يستطيعوا مطلقا تعويض الخسارة التى لحقت بسمعتهم واستقلالهم الوطنى ، الذى استبدلوه بذهب محمد على باشا ، والذى لا يمكن استعادته بأية قوة من القوى أو فتح من الفتوحات . وهناك فى الحجاز أمثلة كثيرة على كثير من الهاربين الذين تخلى البدو عنهم ، على الرغم من أن هؤلاء البدو لم يكونوا فى متناول قوات الباشا ؛ هذا يعنى أن مسألة الكسب المنتظر ، وليس الخوف ، هو الذى جعلهم يتصرفون بهذه الطريقة الوضيعة . ولم يخطر ببال هؤلاء البدو أن مثل هذا التصرف لا ينعكس عليهم على شكل دنيّة فحسب ، وإنما يعد من منظور الأفكار والأعراف البدوية وصمة عار للقبيلة كلها ، وأن مثل هذا التصرف يمكن أن يؤدى فى نهاية المطاف إلى شروخ وتصدعات أخرى ، وبخاصة عندما يصبح أفراد الشعب (القبيلة) غير مبالين بشخصيتهم العامة ولا مكترثين أو مقيمين لها وزنا .

جرى تسليم اثنين من كبار شيوخ الوهابيين – هما: عثمان المضايفة والمضيّان – عن طريق الغدر والخيانة ، بواسطة أصحاب الخيام التى كانا قد لجآ إليها ؛ فقد جرى

تسليم عثمان المضايفة بواسطة رجل من قبيلة عتيبة بالقرب من الطائف ، فى حين جرى تسليم الرجل الثانى بواسطة رجل من بنى حرب بالقرب من بدر. وقد كوفئ هذان الرجلان على خيانتهما بمكافأة سخية ، وحاولا أن يلتمسا لنفسيهما الأعذار بأن راحا يقولان إن الهاربين اللذين طلبا حمايتهما كانا كافرين ، وأن ذلك كان السبب وراء عدم إكرامهما . لكن العنزى لا يحمى فقط ابن دينه ، وإنما يحمى المسيحى أو حتى اليهودى ، بنفس الشجاعة النبيلة التى يتحلى بها مع أخيه العنزى . الخيانة هى الرذيلة الوحيدة – أو بالأحرى: الجريمة – التى تعد وصمة عار بين البدو .

فى صحراء الجزيرة العربية الواسعة يمكن الصفح عن أى إنسان إذا قتل غريبا بطريق الخطأ على الطريق، ولكن العار والخزى يلتصقان باسم الرجل إلى الأبد لو علم الناس أنه سرق من رفيقه ، أو من ضيفه الذى طلب حمايته مجرد منديل ، أو غترة (*). ومن أتيحت له فرصة رؤية ومشاهدة مختلف القبائل لابد أن يكون قد لاحظ أن أشجع قُطَّاع الطرق من الحرامية هم أولئك الذين يعدون حقوق "الدخيل" حقوقا شديدة القداسة ، ويكرهون كل عمل من أعمال الخيانة كراهية شديدة ؛ وهم فى ذلك يبدون كأنهم يمنحون بقية الجنس البشرى الذين يحاربونهم – أفضل أسلوب عن أعمال السلب والنهب التى يقومون بها .

عرب سيناء لا يقرون عرف " الدخيل " إلا بعد أن يفلح الهارب فى أكل الطعام أو النوم فى خيمة من الخيام ، وتتواصل حماية هذا الهارب هو وأشياؤه وماشيته طوال ثلاثة أيام وثمانى ساعات بعد مغادرته الخيمة . وعليه إذا قام عرب آخرون بسرقة ذلك الهارب خلال تلك الفترة أصبح لزاما على صاحب الخيمة التى طلب الرجل منها حمايته – أن يصر على استعادة المسروق من ذلك الهارب وإعادته إليه. مبدأ الأيام الثلاثة وثلث اليوم هذا مبدأً مقدس فى سائر أنحاء الصحراء.

(*) الغترة: عند أهل نجد هى ذلك الغطاء الذى يغطى الرأس، وعادة ما تصنع من القماش المصنوع من القطن، وتجمع بين اللونين: الأحمر والأبيض ، أو الأبيض والأزرق . (المترجم).

قد تكون القبائل فى حالة سلم مع بعضها البعض ، لكن ذلك قد لا يكون مسوغا لحماية رجل ينتمى إلى قبيلة معادية أثناء مروره خلال أراضيهم . فى العام ١٨١١ الميلادى على سبيل المثال ، تحت حماية عربى من السباع وقعتُ فى أيدى بعض أعراب الروالة سرقونى ونهبونى ، لكنهم لم يصيبوا مرشدى بأى أذى . كانت قبيلة الروالة وقبيلة السباع على ود ووئام فى ذلك الوقت ، لكنهما لم تبلغا من الصداقة حدا يخول لهما حماية الأعداء من الجانبين ؛ ونظرا لأنى كنت ذائع الصيت باعتبارى من الحضر فقد أصبحت عدوا لدى البدو كلهم .

القبائل تشن على بعضها البعض حربا سرية فى معظم الأحيان ، متعدية بذلك على حقوق " الدخيل " ؛ وبذلك تروح تسلب وتنهب الهاربين الذين سبقت حمايتهم ، وقد استمر ذلك طوال أشهر عدة إلى أن جرى إعلان الحرب بين القبيلتين. وهناك – أيضًا – بعض الحالات والأمثلة غير المتكررة لقبيلتين تكونان متسالمتين من الناحية الاسمية ، فى الوقت الذى يعرف فيه كل عضو من أعضاء هاتين القبيلتين أن أفراد هاتين القبيلتين ينهبون ويسرقون بعضهم على الطريق .

الكـــــرم

لكى تكون بدويا يتعين عليك أن تكون مضيافا؛ حال البدوى يرتبط بكرم ضيافته ارتباطا وثيقا ، إلى الحد الذى لا يمكن أن تثنيه الظروف الحرجة أو الطارئة عن القيام بتلك الفضيلة الاجتماعية بأى حال من الأحوال . ومع ذلك لا يمكن لنا أن ننكر أن كرم البدو فى بعض الأحوال ينطلق من الزهو والخيلاء ، ورغبة البدوى فى تمييز نفسه عن أنداده وأقرانه فى القبيلة . لكن إن أردنا أن ندرس بدقة دوافع مثل هذا العمل عند الرجال نجد أن هذه الفضيلة يندر ممارستها حبا فيها ، وأن حافزا سريا من نوع معين يعد أمرا مهما فى تحريك القلوب . هذا الحافز قد يكون هو الإحسان ، وقد يكون مجرد وعى الإنسان بضعفه وهشاشته؛ وبذلك يتعلم احترام هذه الميزة الثانوية. يضاف إلى ذلك أننا يجب أن نقيِّم الشخص بأعماله الفاشلة، إذا كانت تلك الأعمال مملاة عليه

بناء على سياسة محددة فى الأماكن التى يكون الأجانب فيها مكروهين، كما هو الحال بين البدو . يجب ألا نندهش إذا ما رأينا أن كرمهم يكون منصبا على بعضهم البعض، لكنى أنا نفسى يمكن أن أتهم بالجحود ونكران الجميل جراء مظاهر العطف والمجاملة التى أغدقها الناس علىّ فى الصحراء ، أو حتى عندما أنكر أن كرم البدو يمتد إلى الطبقات كلها ، وأن هذا الكرم يرتبط بروح الخير والإحسان التى تميز هؤلاء العرب عن جيرانهم الأتراك . يضاف إلى ذلك أن فضيلة الكرم هذه تتناسب وتتماشى مع أخلاقيات دين تعلموا أن يسبُّوه ويلعنوه ، وليس إلى دين هم يعترفون به ويقرُّوه .

لما كان الأتراك يمتلكون قلة قليلة من الخصال والسمات الطيبة فلن يكون من العدل إنكار أنهم محسنون بشكل أو بآخر ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الأتراك يطعمون الفقراء فى بعض الأحيان ، لكنهم لا يمدون هذا الفرع من فروع الإحسان على نطاق واسع وأمدٍ بعيد مثلما يفعل البدو ، يضاف إلى ذلك أن المعروف الذى يفعله الأتراك يكون محفوفا بالكثير من التباهى والتفاخر ؛ الأمر الذى يفقده نصف مزاياه . والتركى بعد تعارف يدوم يومين أو ثلاثة أيام يروح يتباهى بأعداد أولئك البؤساء الذين كساهم وأطعمهم ، وعند توزيعه للصدقات فى عيد الفطر ، عندما تحتم الشريعة والعرف عليه القيام بذلك الإحسان – فإنه يقدم صورة كاملة لفريسى (*) فى معبد القدس . وهنا يتعين القول : إن الإحسان إلى الفقراء أمر واسع النطاق والمدى فى بلاد الشرق عنه فى أوروبا ، فى حين نجد على الجانب الأخر ، أن الرجل الأمين التعيس الحظ – والذى يخجل من سؤال الناس ، على الرغم من احتياجه الشديد إلى مجرد طبق واحد من الأرز – سرعان ما تمتد له يد العون والمساعدة فى أوروبا أكثر منها فى الشرق . هنا يجب القول : إنَّ الثرى يتفاخر ويتباهى بالبطانة أو الحاشية المحيطة به ، هذه الحاشية مكونة من أناس محتاجين لا يعطيهم إلا ما يسد رمقهم ويحفظهم من الموت جوعا ، فى حين أنهم يمشون حوله وهم أشبه بالعراة ، أو ينشرون على الملأ أخبار كرمه المدهش ، كلما راح يوزع عليهم بعضا من ثيابه القديمة المهلهلة .

(*) الفريسى: واحد الفريسيين، وهم طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة. (المترجم).

يبدو أن العادات أو أساليب الحياة الأجنبية - التى لم تستفد منها أية أمة من الأمم - كان لها تأثير على حياة البدو ؛ وسبب ذلك أن البدو فقدوا الكثير من خصالهم الممتازة، فى تلك الأجزاء التى يتعرضون فيها إلى مرور الغرباء عليهم بصورة مستمرة. من هنا نجد أن البدو لا يرحمون الحجاج السوريين والمصريين المكروبين على طريق الحج . هذا يعنى أن كرم البدو فى تلك الأجزاء من طريق الحج لابد من أن يشتريه الأجانب بالمال. والروايات والحكايات التى يرويها الحجاج - حتى وإن كان فيها شىء من المبالغة - كافية لأن تجعل أكثر الناس حياداً يكوّنون فكرة سيئة تماما عن البدو بشكل عام . هذا الحال نجده - أيضاً - فى الحجاز ، وبخاصة فى المنطقة ما بين مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ؛ إذ لا يمكن لمسافرى القوافل أن ينالوا أى شىء من هذا الكرم على طريق الحج ، كما لو كانوا بين سكان الصحراء النوبية الخونة .

ومع ذلك فإن الرَّحَّالَ الوحيد الذى لا حول له أو طَوْل يمكن أن يجد الغوث والنجدة فى هذه الأماكن ، يزاد على ذلك أن تلك المسافة الشاسعة بين مكة ودمشق يقطعها فى أغلب الأحيان سورى مسكين ووحيد ، يعتمد اعتماداً كليا على كرم البدو فى مسألة إعاشته طوال هذه الرحلة . وليس هناك من دليل على كرم البدو الفقراء فى هذه المنطقة سوى أن البدوى الجائع - وهذا حال استثنائى تماما - يمكن أن يتقاسم وجبته الهزيلة مع غريب أكثر منه جوعًا ، على الرغم من عجز موارده عن الحصول على الطعام . يضاف إلى ذلك أن البدوى لا يمكن أن يجعل الغريب يحس بما يبذله من تضحيات فى سبيل الحصول على الضروريات.

تبدو لى الأمثلة التى سجلها الكتاب القدامى عن الكرم العربى مبالغ فيها ، أو تكشف عن شكل من أشكال التبذير الأحمق ، الذى لا يسر خاطر المتبرع أو يُرضى ذهنه : مسألة نزول الإنسان عن حصانه ، وإعطائه لشحاذ يستجدى الصدقات ، بل حتى قيام المتبرع بإعطائه ملابسه الشخصية لذلك الشحاذ ، تعد نوبة من نوبات التظاهر والاستعراض الذى يتسم بالحماقة أكثر من الكرم . هذا الأمر يمكن الوقوف عليه فى شخصية المرحوم مراد بك الحصرى الذى كان يتظاهر بالكرم تباهيا بالسخاء؛

فقد حدث أن الرجل لم يكن معه نقود ؛ الأمر الذى جعله يعطى سيفه لشحاذ علما بأن ذلك السيف كان مرصعًا بالمجوهرات، ويزيد ثمنه على ثلاث آلاف جنيه إنجليزى . هناك تصرفات مماثلة توضح هذا الغرض فى الشرق ، وتوضح - أيضًا - أن أذهان أولئك المحسنين تكون مبهورة أكثر منها مقتنعة ، ومع ذلك فإن هذه الأمثلة لا تخدم مسألة الإحسان العاقل الموجه توجيهًا جيِّدا ، الذى يُعَدُّ من قبيل أكياس النقود التى يحتفظ البخيل بها فى غرفة سرية .

على كل حال نحن لا يمكن لنا الآن إنكار وجود هذه الأمثلة بين البدو ، التى دفعها الكرم المفرط إلى الحد الذى يجعل منها أمورا غير طبيعية ، أو تظاهرية فى رأى الكريم الأوروبى ، لكنها مع ذلك تتفق مع أعراف الصحراء . وأنا هنا يسرنى أن آتى على ذكر طرفة حول موضوع الكرم هذا ، وهذه الطرفة تُشبِّه ذلك الكرم بكرم حاتم الطائى الذى كان أكرم كرماء العرب القدامى : يحكى أن جربة ، شيخ بنى الشمر القوى الحالى فى بلاد الرافدين ، الذى تربطه علاقة سياسية وثيقة بباشا بغداد - كان مخيما منذ سنوات مضت فى منطقة جبل الشمر فى الصحراء الشرقية ، فى زمن كانت الجزيرة العربية قد نفق فيها السواد الأكبر من الناس بسبب عدم توفر الطعام والغذاء ؛ نظرا لعدم سقوط الأمطار منذ زمن بعيد . ولم يتبق من الماشية كلها سوى جملين فقط كانا من ممتلكات الجربة . فى ظل هذه الظروف وفد عليه اثنان من الغرباء ونزلا أمام خيمته ، وكان لابد من تقديم العشاء لهما . لم يكن فى خيمة الجربة أية مؤن أو طعام ، بل إن خيام أعرابه لم يكن فيها كسرة خبز حتى يمكن تقديمها لهذين الضيفين . كانت الجذور والأعشاب الجافة فى الصحراء بمثابة الطعام الذى كان العرب يقتاتون به منذ أيام عدة ، واستحال العثور على تيس أو خروف لتقديمه مذبوحا لهذين الغريبين . وهنا استصعب الجربة مسألة ترك ضيفيه نياما بلا عشاء . وهنا أصدر الجربة أوامره بذبح واحد من الجملين ، ولكن زوجته عارضت هذا الأمر ؛ زاعمة أن أطفالها (أبنائهما) بلغوا من الضعف حدا سيعجزون معه فى صبيحة اليوم التالى عن متابعة المخيم سيرًا على الأقدام ، كما أبلغته - أيضًا - أن الجملين كانا ضروريين لنقل أسرته وبعض زوجات جيرانه ومعهم الأطفال . قال أحد الضيفين :

" صحيح أننا جياع نحن الاثنين، ولكننا مقتنعان بصدق ما تقول . وسوف نثق فى رحمة ربنا لنا ؛ على أمل عثورنا غداً على شىء من الطعام فى مكان آخر " . وأردف الرجل قائلاً : " هل يمكن أن نكون نحن سببا فى أن يلوم الجربة أعداؤه ويوبخوه لسماعه أنَّ ضيفه جوعان فى خيمته ؟" هذه الملاحظة المقصودة ترسخت فى ذهن الشيخ الجربة ، وخرج صامتا من الخيمة ، وأمسك بفرسه (الثروة الوحيدة لدى الرجل بجانب الجملين) ، وألقى بها على الأرض ، وراح يربط أقدامها استعدادا لذبحها للضيفين . وهنا تناهى إلى مسمعه صوت إبل قادمة ، فتوقف ليستطلع الخبر ، فوجد جملين مقبلين محملان بالأرز الذى أرسل إليه – على سبيل الهدية – من منطقة القصيم . وأنا لا أشك فى صدق هذه الحكاية ، التى سمعتها مرارا وتكرارا من أعراب كثر فى مناطق مختلفة .

من يريد الترحال بين البدو ، سواء أكان غنياً أم فقيراً ، ويود أن يكون على وفاق معهم – لابد وأن يحاول تقليدهم فى الكرم إلى أبعد حد ممكن، على أن يكون ذلك خالياً من التظاهر بالسخاء والإسراف ؛ مما يوحى لرفاقه بأنه يمتلك ثروة طائلة ، الأمر الذى سيجعل من مضى ذلك الرجل قدما أمرا صعبا فى مواجهة تزايد احتياج البدو إلى النقود بصورة مستمرة. ويتعين على الرحال – أيضًا – أن يكون مقتنعا بالتعامل مع البدو على قدم المساواة ، ولا يتعالى عليهم مثلما يفعل الأتراك الذين يقومون بالترحال فى بعض الأحيان. البدوى يمكن أن يكون اجتماعيا، ورفيقا لطيفا، وبلا بذاءة أو صلافة، مثلما يفعل السوريون والمصريون عندما يرفع الرحال الكلفة بينه وبينهم . هذا يعنى أن تعليم هؤلاء الناس الاحترام يحتم على المرء أن يجعل بينه وبينهم مسافة معقولة ؛ وهنا سوف يخضعون بسهولة لهذا النوع من المعاملة لأنهم لا يعرفون شيئا غيرها . لكن الرحال عندما يعيش بين البدو يجب ألا يجرح مشاعرهم ؛ هذا يعنى أن التعامل مع البدو يجب أن يتسم بالود والصداقة . وفى مقابل ذلك سوف يبحث البدوى عن الفرص التى تجعله يثبت للرحال من خلالها أنه فى الصحراء أعظم من الرحال نفسه ، ولماذا لا يُعامل بود رجلا لو وضع هو فى مكانه وظروفه لتعين عليه تقديم يد العون والمساعدة التى يقدمها الأخ لأخيه ؟ !

وأنا هنا أود أن أقول للرحالة : إنَّ خطابات التزكية إلى شيـوخ البدو المستقلين لا فائدة منها أو طائل من ورائها . والسبب فى ذلك أن أى شيخ من هؤلاء الشيوخ إذا أعطى الأمان لأحد من الرحالة ، ووعده بأن ترحاله سيكون فى أمن وسلام فإنه يفى بوعده ، دون أن يلقى بالاً لتزكية قادمة من فلان أو علان . يزاد على ذلك أن أية رسالة مهما كانت قوتها فلن يكون لها أى أثر (طالما أن صاحبها ليس له تأثير مباشر على القبيلة)، حتى وإن كان واحداً من الباشوات . والغريب يزيد إنفاقه كلما زادت تزكيته ، كما يتزايد – أيضًا – جشع القبيلة . من هنا ، من الأصوب للرحال أن يتجول وسط العرب على أنه فقير من الفقراء ، وإلا تعين عليه أن يدفع الكثير نظير المرور فى أراضى هؤلاء البدو ، وبدون مساعدة أو عون من أحد .

يذيع صيت كرم كثير من القبائل، وهناك بعض القبائل الأخرى يقال إنها ممسكة. بنو حرب من القبائل الممسكة ، وهم يعيشون فى صحراء الحجاز . والأرباح الكبيرة التى يجنيها بنو حرب من قبائل الحج هى التى تجعلهم شديدى البخل والشح نظرا لطموحهم إلى الثراء . بدو مكة – أيضًا – يذيع صيتهم بأنهم بخلاء وممسكون ، وبخاصة القرشيين منهم ، الذين يشكلون فى الوقت الحالى قوة يتردد عدد بنادقها بين مائتين و ثلاثمائة بندقية فتيلية . وفى جبال سيناء نجد الشح والبخل سبة من السباب الموجهة إلى قبيلة أولاد سيد ، الذين هم فرع من عرب الصوالحة ، وجيران أولاد سيد لديهم مثل شائع يقول ما معناه " إن المرء أفضل له أن ينام وحده ، بدلا من أن ينام بين أولاد سيد " . يقول المثل :

" أبيت وحيد ولا عِندْ أولاد سيد "

الكرام من بين أفراد هذه القبائل البخيلة يتميزون بأن من السهل التعرف عليهم وتمييزهم من بين بقية أفراد هذه القبائل ؛ ومن هنا يقول العرب : إنَّ الكرم يوجد أصلا بين القبائل البخيلة أو الشحيحة .

الضيف الذى يدخل مخيما من مخيمات القبائل النجدية ينزل عادة عند أول خيمة تلقاه على الجانب الأيمن من المكان الذى دخل منه إلى الدوَّار ، أو إن شئت فقل :

مجموعة الخيام المنصوبة على شكل دائرة . ولو قدر للضيف تجاوز الخيمة الأولى ثم النزول أمام الخيمة التى تليها فإن صاحب الخيمة الأولى يعد ذلك إهانة له .

هناك عرف سائد بين عرب سيناء - وأنا أحسب أنه عرف شائع بين قبائل متعددة أخرى على الحدود الجنوبية لسوريا - هذا العرف يقضى بأنه فى حال مشاهدة غريب من بُعْد مقبلا على المخيم - فإنه يحل ضيفا فى تلك الليلة على من رآه أول مرة ، وهناك ينادى ذلك الرائى قائلاً: "ها هو ضيفى قادم". الشخص الذى تنطبق عليه هذه الشروط يكون من حقه استضافة الضيف فى تلك الليلة . والمناسبات التى من هذا القبيل تثير كثيرا من المشاجرات؛ وهنا نجد العرب يعودون ويلتزمون بيمينهم المغلَّظ : "علىَّ الطلاق من مراتى إذا لم استضيف هذا الضيف" ؛ وعندها تتوقف المعارضات والاعتراضات كلها . وأنا كنت فى أحيان كثيرة سببا لهذه المشاجرات ، التى تلعب البدويات فيها دورا حاسما ، واللاتى كن يتجمعن فى قسم النساء من الخيمة التى كنت أقيم فيها ، وكن يدافعن دفاعا مستميتا عن حقوق أزواجهن .

العرف يقضى فى كل جزء من أجزاء صحراء الجزيرة العربية أن المرأة يجوز لها استقبال الضيف الغريب أثناء غياب زوجها . وفى مثل هذا الحال يقوم واحد من الأقارب بتمثيل صاحب المنزل فى حال غيابه .

بعض عرب السروج فى سهل الحوران ، الذى يقع جنوبى دمشق ، يسمحون لزوجاتهم وبناتهم بشرب القهوة مع الغرباء عند وصولهم ، أثناء جلوسهن فى قسم الرجال ، شريطة أن يكون صاحب الخيمة حاضرا . هذا التصرف غير معروف مطلقا بين بقية عرب الشمال ، أو إن شئت فقل : الصحراء الشمالية ، التى لا يسمح فيها للنساء بشرب القهوة أو الأكل قبل الرجال . وفى الجبال الواقعة جنوبى مكة فى اتجاه اليمن ، حيث تختلف العادات اختلافا كبيرا عن عادات نجد والسهول الشمالية من الجزيرة العربية ، يقال: إنَّ النساء يستقبلن الزائرين (الضيوف) أثناء غياب أزواجهن ، ويجلسن - أيضًا - مع الضيوف ويسهرن معهم . الضيوف لا يبقون فى خيمة المضيف إذا كانت صغيرة ؛ وهنا يقتاد المضيف الضيف على خيمة أكبر وأوسع مملوكة لواحد من معارفه ، على أن يقوم المضيف على خدمة الضيف فيها .

العلاقات المنزلية

يجب ألا نسلِّم بأن الجنس اللطيف يلقى احتراما كبيرا من الرجال، الذين يعهدون إلى نسائهم بمهمة القيام بكل متطلبات الخيمة والأعمال الوضيعة داخلها . هنا نجد أن النســاء ينظر إليهن على أنهن أقل من الرجال بمراحل كثيـرة ، وعلى الرغم من أنهن يندر أن يعاملن معاملة سيئة تقوم على الإهمال وعدم الاكتراث – فهن يربين على أن مهمتهن الرئيسية هى الطبخ والعمل . وطالما بقيت البنت بلا زواج وكانت عذراء فإنها تحظى بكثير من الاحترام والتقدير عن المرأة المتزوجة ؛ والسبب فى ذلك أن الآباء يظنون أنه من الشرف أن يكون لهم عذراء فى الأسرة ، لأن وجود هذه العذراء يعد موردا من موارد الربح(*). البدوية عندما تتزوج تصبح مجرد خادمة ، تظل مشغولة طوال اليوم فى الوقت الذى يظل فيه زوجها ممددا مستريحا فى قسم الرجال ، وهو يدخن غليونه مسترخيا . والزوج يبرر هذا الوضع بقوله : إنَّ زوجته يتعين عليها العمل داخل المنزل ، مثلما هو يلاقى الصعوبات فى الرحلات التى يقوم بها . والشىء الوحيد الذى يرهق البدوية هو جلب الماء ؛ فالخيام يندر أن ينصبها أصحابها بالقرب من آبار الماء . وإذا كانت المسافة لا تزيد على مسير نصف يوم فذلك لا يجبر البدو على جلب الماء على ظهور الإبل ، وعندما يتعذر الحصول على الحمير فإن النساء يتحتم عليهن كل مساء أن يحملن على ظهورهن قراب الماء الطويلة ، وأحيانا أخرى يجبرن على حمل كمية إضافية من الماء .

هناك عرف ثابت بين عرب سيناء وعرب الشرقية فى مصر يقضى بعدم قيام الرجال أو الصبية بسياقة القطيع إلى المرعى (**) . هذه المهمة مقصورة فقط على بنات

(*) الفتاة التى تبقى عذراء تحظى برعاية والديها وإخوانها . والمؤلف قد خانه التوفيق حينما جعل العذراء موردًا من موارد ربح الأسرة وهو حكم يفتقد لتقاليد العرب . (المراجع) .

(**) عند عرب سيناء يشعر الصبى بالإهانة إذا قال له أحد من الناس: "اذهب وسق غنم أبيك إلى المرعى"؛ هذا الكلام يعنى عند مثل هذا الصبى: " أنت لست بأفضل من فتاة ! " .

المخيم غير المتزوجات ، اللاتي يتناوبن القيام بها فيما بينهن . هؤلاء البنات يبدأن رعى الغنم قبل شروق الشمس ، على شكل جماعة مكونة من ثلاث أو أربع بنات ، ويحملن معهن شيئا من الماء والطعام ، ويعدن فى ساعة متأخرة من المساء . بعض البدو الآخرين يستعملون العبيد أو الخدم فى سياقة الغنم إلى المرعى .

نساء سيناء بحكم اعتيادهن على هذا العمل المرهق منذ بداية حياتهن - يصبحن أقوياء مثل الرجال . لقد شاهدت هؤلاء السيناويات وهن يجرين حافيات الأقدام على الصخور الحارة ، بينما كنت ألبس حذاء لكننى كنت أمشى بصعوبة بالغة . يضاف إلى ذلك أن النساء يبقين معرضات لحرارة الشمس طوال اليوم وهن يراقبن الأغنام ؛ لأنهن يعلمن أنهن سيعاقبن من آبائهن عقابا شديدا إذا ضاع حمل من الحملان أو نعجة من النعاج أو خروف من الخرفان . وإذا مر عليهن أحد من أفراد القبيلة فإنهن يقدمن له شيئًا من حليب الغنم ، أو يتقاسمن معه كمية الماء المتبقية معهم ، منتهجات الطريقة نفسها التى يتصرف بها آبائهن مع مثل هذا الضيف عندما يكون فى الخيمة . فى بعض المناسبات الأخرى نجد البدويات عندما يرين رجلا مارا على الطريق يدرن له ظهورهن بعد أن يجلسن أرضا ، كما أنهن لا يقبلن أى شىء من أى إنسان غريب عليهن (أى: ليس قريبا لهن) ، ولا يلمسن مثل هذا الشىء بأيديهن إلا فى حضور بعض الأصدقاء . وأنا فى أحيان كثيرة كنت أمر على نساء فى الطريق وكن يطلبن منى شيئا من البسكويت أو الدقيق لكى يصنعن منه خبزا؛ فكنتُ أضع البسكويت أو الدقيق على الأرض على مقربة منهن ، بينما كن يدرن لنا ظهورهن . وبعد أن نتراجع عدة خطوات إلى الخلف كن ينظرن إلى ذلك الذى تركناه لهن . وقد رأيت أن القبيلة كلما زاد اتصالها بسكان المدن زاد - أيضًا - تشددها فى مسألة المحافظة على عزل النساء. فى جبال مكة وفى جبال سيناء نجد أن المرأة عندما يتحدث إليها غريب يندر أن تجيب عليه أو تعطيه ردا . وعلى العكس من ذلك وجدت نساء فى السهول البعيدة يتحدثن حديثا حرا ويشاركن فى الضحك ، وهذا شائع بين العنيز وحرب ، وكذلك نساء الحويطات . وبذلك يمكن القول : إنّ أخلاقيات هؤلاء النساء تتناسب تناسبا عكسيا مع الآلام التى يتكبدها الناس فى المحافظة عليهن .

الاحترام الذى يكنه البدو لأمهاتهم يعد مضربا للأمثال أكثر من احترامهم لآبائهم. فى القبائل الفقيرة التى تعتمد فيها الخيام فى معيشتها على الجهود التى يبذلها رب هذه الخيمة ، وليس على توفر الماشية وحدها ، كما هو الحال فى القبائل الشرقية الثرية ، نجد أن الرجل عندما يهرم يفقد قدرته على أن يحصل لنفسه على التموين المطلوب للحياة اليومية ، ويكون أبناؤه قد تزوجوا وأصبح لكل واحد منهم أسرته الخاصة التى يتحتم عليه إعالتها والقيام على أمورها ، ولكن الرجل المسن يبقى وحيدا كما هو . أعراف البدو وقوانينهم لا تجبر الابن على إعالة والده المسن ، على الرغم من أن هذه هى القاعدة العامة . لكنى أعرف أمثلة أخرى لرجال مسنين يعيشون على الإحسان الذى يلقونه فى المخيم كله ، فى الوقت الذى كان أبناؤهم فيه يرفلون فى ظروف أحسن ، وبوسعهم – أيضًا – مساعدة آبائهم فى سهولة ويسر . كانت أعذار الأبناء تتمثل فى أنهم عندما تزوجوا لم يساعدهم آباؤهم حتى ولو بأقل القليل ، وأن كل ما يملكونه إنما يرجع إلى كدهم وجهودهم المضنية .

أفظع ملامح الشخصية البدوية يتمثل فى تلك المشاجرات اليومية التى تدور بين الآباء والأبناء . والابن عندما يدخل مرحلة الرجولة يبلغ من التباهى والتفاخر حداً يصعب عليه معه أن يطلب إلى أبيه أن يعطيه شيئا من الماشية ؛ نظرا لأن ذراعه يمكن أن يجلب له كل ما يريده أو يرغب فيه . ومع ذلك يظل يعتقد أن والده يتعين عليه إعطاؤه كل ما يطلبه . على الجانب الآخر نجد أن الوالد يشعر بالأذى عندما يجد ولده يتعامل معه بشىء من التعالى والكبرياء ؛ وبذلك يحدث شرخ بين الأب والأبناء ، ويتزايد اتساع ذلك الشرخ على نحو يصعب معه جبره أو تضييقه .

يقوم الابن – إذا استطاع ذلك – بتحرير نفسه من سلطة والده ، مع الإبقاء على شىء من الاحترام والتوقير طوال الفترة التى يكون فيها موجودا فى خيمة الوالد . لكن الابن عندما يحس أن بوسعه أن يصبح هو نفسه ربا لخيمة (أى: عندما يحقق ذلك الذى يمكن تسميته الحياة المستقرة) فإنه لا يلقى بالا لنصائح أى أحد من الناس، ولا يطيع أى أمر من الأوامر الدنيوية سوى ما يريده فقط. والطفل الذى لم يبلغ الحلم يكشف عن احترامه لوالده بألا يأكل من الطبق الذى يأكل منه، أو قبله . وإنها لفضيحة

إذا قال أحد من الناس : " انظروا إلى هذا الصبى ، لقد شبع وملأ بطنه فى وجود والده" . الأطفال الذكور الصغار حتى سن الرابعة أو الخامسة يجرى دعوتهم لتناول الطعام مع الوالدين ، ومن الطبق نفسه الذى يأكلان منه .

البدوى فى خيمته يعد أكثر المخلوقات كسلا وتكاسلا ، والنساء عندما يكن مشغولات بأعمالهن اليدوية ، والأعمال المرهقة الأخرى - نجد الرجال لا يفعلون شيئًا سوى تدخين الغليون ، ولعب " السيجة " أو " السِّيرج " (نوع من ألعاب الداما) ؛ وبذلك يقضون وقت فراغهم فى هذه اللعبة التى تشيع فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، والتى شقت طريقها - أيضًا - إلى مصر ، حتى منطقة النوبة ؛ حيث شاهدت سكانها وهم يلعبونها كما هى فى الجزيرة العربية .

أسلوب حياة البدو قد يرى فيه المتحضرون بعض المباهج ؛ من ذلك مثلا نجد أنَّ صراحة البدو وعاداتهم وتقاليدهم السليمة تشد انتباه الغرباء شدا قويا ؛ يضاف إلى ذلك أن المجتمع البدوى فى ترحاله يشرح الصدر ويسر الخاطر بصورة مستمرة ، لكن الذى يقيم بينهم مدة أيام قلائل وفى خيامهم تبدأ تلك المتعة وذلك الانشراح فى الانحسار والتضاؤل ، يضاف إلى ذلك أن افتقار البدو إلى العمل ورتابة المنظر سرعان ما تُبدِّد تلك الانطباعات الأولى كلها، وتبدو الحياة البدوية أمرا لا يطيقه أصحاب الميول النشطة .

لقد أمضيت بين البدو بعضا من أسعد أيام حياتى ، لكنى أمضيت بينهم - أيضًا - بعضا من الأيام بالغة الإرهاق والسقم ، عندما كنت أراقب فى قلق قرص الشمس وهو يخترق الخيمة من الشروق إلى الغروب ؛ لأنى كنت أعلم أن المساء سيحفل ببعض الأغانى ورقصة من الرقصات ، الأمر الذى يمكن أن يصرف عنى رفاقى الذين يلعبون " السيجة " ويعفينى منهم .

العبيد - رجالا ونساءً - موجودون فى الصحراء وبأعداد كبيرة فى سائر أنحائها . قلة قليلة من الشيوخ أو إن شئت فقل : الأثرياء - هم الذين لا يملكون سوى اثنين فقط من هؤلاء العبيد . هؤلاء العبيد يجرى تحريرهم بعد انقضاء فترة زمنية محددة ، ويجرى تزويجهم إلى أشخاص من لونهم . ليس هناك من مكان آخر سوى

الصحراء التى تتجلى فيها أروع الأمثال على إخلاص العبيد . هذا يعنى أن أسلوب الحياة البدوية يتفق إلى حد ما مع أسلوب الحياة التى اعتادها الزنوج فى بلادهم ؛ من هنا نجد العبيد يتعلقون تعلقا سهلا ويسيرا بأسلوب حياة البدو ، الأمر الذى يجعلهم يربطون أنفسهم بذلك الأسلوب ، ويصبح الأمر عندهم كأنه شيء طبيعى فى القبيلة . الإماء ، عند الوهابيين لا يسمح لهن بتغطية وجوههن ؛ لكن العربيات الحرَّات فى نجد متشددات جداً فى هذه المسألة فيما يخصهن . فى الحجاز نجد أن العبيد السود يكثرن بين البدو ، لكنى لم أر حبشيا واحداً هناك ؛ والسبب فى ذلك أن بدو مكة يرون أن الأحباش أقل تحملا للمتاعب ، والعمل من العبيد الأفارقة الأقوياء .

الطابع العام للبدو

تشكلت رؤيتى الأولى للبدو فى محال إقامتهم فى الصحراء بعد فترة قصيرة من مجيئى من أوروبا ، فى حين كانت الانطباعات التى عدت بها إلى أوروبا قوية للغاية . وأيا كان تفضيلى العام للطابع الأوروبى أو الطابع الشخصى فإننى بعد أن رأيت البدو وخالطتهم سرعان ما وجدتنى مضطرا بل ومجبرا على الاعتراف بأنهم البدو، على الرغم من عيوبهم كلها إلا أنهم يشكلون واحدة من أنبل الأمم التى تهيأت لى فرصة التعرف عليها . واعتبارا من ذلك التاريخ أدت السنوات السبع التى أمضيتها فى الشرق إلى فتور انطباعاتى الأوروبية ، وبدلا من أن أعقد – فى ذلك الوقت – مقارنة بين البدو والأوروبيين ، وقد كانت لصالح البدو من نواحٍ كثيرة ، أجدنى الآن أعقد المقارنة نفسها بين البدو و جيرانهم الأتراك ، ووجدت أن البدو فى هذا الصدد أفضل بكثير من الأتراك . مسألة تأثير العبودية والحرية على العادات والتقاليد لا يمكن الوقوف عليها فى أى موقع آخر . المؤكد أن البدوى متهم بالسلب والنهب والجشع ، لكن فضائله فيها متسع كبير ؛ فى حين نجد أن التركى الذى فيه سمات سيئة مثل البدوى (على الرغم من افتقار التركى فى بعض الأحيان إلى الشجاعة التى تمكنه من التنفيس عن تلك السمات السيئة)، يندر أن تكون فيه فضيلة واحدة من فضائل البدوى.

وهذا الذى يفضل الحرية البدوية الفوضوية على التعسف الذى ينطوى عليه الاستبداد والإقطاع التركى . من الأفضل للإنسان أن يكون عربيا غير متحضر من أعراب الصحراء أصحاب الفضائل الفطرية ، على أن يكون عبدا مهذبا إلى حد ما مثل التركى الذى تقل رذائله الفظيعة ، لكنه لا يملك من الفضائل شيئا . استقلال البدو الكامل هو الذى مكنهم من الحفاظ على طابعهم الوطنى . والبدو كلما ضاع منهم ذلك الاستقلال أو تعرضوا للخطر ، فى أضعف الأحوال ، نتيجة اتصالهم بالمدن والمناطق الزراعية ، فإن ذلك يجعلهم يفقدون قدرا كبيرا من قوتهم ؛ وبالتالى عدم مراعاة أو اتباع القوانين (الأعراف) الوطنية .

ونحن لا يسعنا هنا إلا أن نقول : إن الروح الشعبية والوطنية أمران عامان بين الأمة المحبة للحرب التى من قبيل البدو. هاجس البدو الأساسى هو الإحساس بالحرية، هذا الهاجس هو الذى دفع بهؤلاء البدو إلى الصحراء ، وجعلهم يحتقرون العبيد الذين يعيشون حولهم . والبدوى بحكم وعيه الكامل بأن حاله الذى هو عليه أفضل من أى حال آخر يفرح فرحا شديدا بالمزايا التى يتمتع بها . وهنا أستطيع القول دون مبالغة: إنَّ أفقر فقراء البدو فى أية قبيلة من القبائل المستقلة ينظر مبتسما إلى أبهة الباشا التركى ، ويروح بلا تفلسف – وإنما بوحى من المشاعر العامة فى أمته – يعض بالنواجذ على تفضيله خيمته البائسة على قصر ذلك التركى الإقطاعى المستبد . مشاعر الوطنية تكاد تكون منعدمة بين الأتراك والعرب المستقرين . الإمبراطورية التركية تبلغ من الاتساع حداً يصعب معه أن تشيع روح الوطنية العامة بين أعضاء هذه الإمبراطورية ؛ بحكم أنها مكونة من أمم كثيرة متباينة ، وأجزاء كثيرة مختلفة (*) .

هناك مناطق محددة تسكنها أعراق بعينها هى التى تتميز بالمشاعر الوطنية ، مثل الأرناؤط والألبانيين حيث تتركز أحاسيسهم على مناطقهم فقط ، ولا تتركز على الإمبراطورية كلها التى هم جزء منها. فى كل من مصر وسوريا (باستثناء جبال لبنان)

(*) من الطبيعى ألا يكون للوطنية أو القومية أى معنى فى ظل دولة رأت أن الإسلام قد حقق لها كل مصالحها السياسية والاقتصادية، حتى الشعوب التى خضعت للحكم العثمانى قد اعتقدت أن الإسلام فوق الأوطان. (المراجع)

أستطيع القول : إنَّ الوطنية تكاد تكون منعدمة . التصرف فى بعض الأماكن يمكن أن يدخل مسألة الوطنية هذه فى أى صراع مع المسيحيين ، لكن هذه الوطنية لا دلائل عليها حاليا فى الروح العامة ، اللهم باستثناء الثناء المضحك الذى يضفيه المواطنون أو بالأحرى السكان على هذه المدن .

البدو لا يشعرون بالقلق على شرف قبائلهم وحدها ، وإنما يغارون - أيضًا - على مصالح القبائل كلها باعتبار أن هذه المصالح وثيقة الصلة بمصالحهم أيضًا ؛ ولذلك تشيع بين البدو روح فريق السلاح بين الحين والآخر ، مما يضفى ويعكس شرفا كبيرا على طابعهم الوطنى. ومع ذلك نجد أن الانتصارات - التى حققها جيش محمد على باشا والتى توافقت مع مصالح هؤلاء البدو الذين نفضوا عن أعناقهم النير الوهابى - نجدها استثارت الكثير من الأسف والندم فى سائر أنحاء الصحراء ، كما طال ذلك الأسف - أيضًا - تلك القبائل شديدة التحالف ؛ من منطلق أن تلك النجاحات يمكن أن تسىء إلى شرف الوطنى وتشكل خطرا على استقلاله . هذه الأسباب نفسها تجعل البدو يأسون للخسائر التى تحيق بأية قبيلة من القبائل جراء الهجمات التى يشنها عليها المستوطنون أو بالأحرى: القوات الأجنبية ، على الرغم من أن البدو قد يكونون فى حالة حرب مع هذه القبائل التى يجرى الهجوم عليها . يضاف إلى ذلك أن مسألة ولاء البدوى لقبيلته ، وكذلك إحساسه العميق بمصالح هذه القبيلة وقوتها ، وكذلك التضحيات متباينة الأشكال التى يمكن أن يقبل عليها طواعية واختيارا من أجل رفعة القبيلة وازدهارها - هذه المشاعر كلها يندر أن تعمل عملها بنفس القوة فى أية أمة من الأمم الأخرى ؛ من هنا نجد العنزى يتباهى عن وعى بوطنية لا تقل عن أية وطنية من الوطنيات التى عظمت تاريخ الجمهوريات الإغريقية أو السورية ، عندما يحمل حربته ويروح يلوح بها فوق رأسه وهو يصيح قائلاً: " أنا عنزى ! ". أثناء الرحلة التى قمت بها من تدمر إلى دمشق كان معى مرشد واحد ، رجل من رجال قبيلة السباع (شيخ عرب الفيدان) أو إن شئت فقل : ابن غيبين الذى غادرت حلب بصحبته بعد أن رفضت القيام برحلة إلى تدمر . فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى لمغادرتنا لمدينة تدمر

وجدت أن مرشدى قفز نازلا فجأة من فوق جمله وطلب منى أنا راكب الحصان - اتخاذ وضع دفاعى . ساعتها لم أتبين وجود أى أحد من الأعداء ، لكن ذلك البدوى حاد البصر استطاع أن يرى بالفعل أربعة خيالة يركضون فى اتجاهنا . لم تكن فرص نجاحنا فى الدفاع كثيرة ، ولكن مرشدى كان يرى أن استسلامنا يعد نوعا من العار والخزى . وعندما اقترب أحد الخيالة إلى مسافة تسمح بسماع صوته رفع حربته فوق رأسه وصاح قائلا : " أنا من السباع ! أنا من السباع ! ".

استنادا إلى قانون (عرف) الأمم البدوية نجد هؤلاء الخيالة كانوا على حق فى تلك الصيحة ، عندما تعاملوا مع مرشدى تعاملا صارما ؛ فى حين لو كان المرشد قد ألقى حربته أرضا فلربما تأكد من سلامته الشخصية فى أضعف الأحوال . ومن حسن الطالع اتضح أن الخيالة من الأصدقاء ، وبعد أن تركونا قال لى مرشدى: إنه لو كان قد ألقى حربته دون أن يستعرض من قدرته على المقاومة ، لأدت سخرية هؤلاء الخيالة واستهزاؤهم به إلى الإساءة إلى سمعته وصيته بين أهله وشعبة طوال حياته .

وأنا يتعين علىَّ هنا تكرار اعترافى السابق الذى مفاده أن البدو جشعون فى مسألة المكاسب . وقياسا على ما سبق فإن هؤلاء البدو عندما تكون بالقرب من بلدة من البلدان يتجلى عندهم ذلك الجشع بشكل عام . وكل ما ترتب على اتصال البدو بالمدن ، يتمثل فى زيادة احتياجاتهم ، ونقصان ما لديهم من فضائل . هذا بالإضافة إلى عدم وجود سمة أو ملمح فى شخصية هؤلاء الأسيويين الذين يسكنون المدن ، يمكن أن يؤدى إلى تحسين البدو إذا اعتنقوه وجعلوه سمة من سماتهم أو ملمحا من ملامح شخصيتهم . والبدوى عندما يجد أن مصالحه معرضة للأذى ، أو عندما يسعى وراء ميزة أو كسب معين - لا يسمح بوجود أى معّوق أو قيد على مزاجه سوى ذلك القيد الذى يحدده قانون (عرف) الدخيل . والبدوى إذا ما أحس أنه هو الأقوى راح يضغط على الفلاح المسالم ، أو الرَّحال المسالم بمطالبه التى لا تنتهى ولا يمكن للوعود أن تضطره أو تجعله يحد من رغبته فى السلب والنهب . وهذا هو السبب وراء سوء سمعة البدو فى كل من: مصر وسوريا ؛ لأن أهل هذه البلاد يعرفون البدو على أنهم من أولئك

الذين يفرضون الإتاوات على الفلاحين أو القوافل ، وأنهم هم الذين يقومون بأعمال عدائية ضد أفراد المناطق الذين يرفضون أن يكونوا أتباعا لهم . والفلاح عندما يلعن ظالميه يغيب عن باله تلك الإجراءات الخاطئة التى تتخذها حكومته ، والتى يتعين إدانتها باعتبارها عدوانا من أمة أجنبية ، كما يغيب – أيضًا – عن بال هذا الفلاح المسكين ذلك العداء المعلن والصريح من جانب المستوطنين ؛ ومن ثم يلجأون إلى الغزو باعتباره حقا من حقوقهم .

معروف أن حكومة بلاد الرافدين والحكومة السورية تبلغان من الضعف حداً يصعب معه التحكم فى الأضرار التى يتسبب فيها البدو ؛ الأمر الذى يجعل هاتين الحكومتين تتركان قرى الحدود الصحراوية لحال سبيلها . وهذا هو محمد على باشا قد أفلح فى حماية قراه على ضفتى النيل من البدو . وهؤلاء هم العرب الليبيون أو المغربيون يصبحون مصدرا للقلق والاضطرابات فى المنطقة الممتدة من أسيوط إلى الإسكندرية ؛ حيث يقومون بجباية إتاوات من القرى جميعها ، فضلاً عن مهاجمتهم للأفراد العزل على الطريق، وسلب ونهب ما معهم . وهذا هو الباشا بعد أن وضع يديه على كثير من الأبناء الذكور المنتمين لهذه القبائل – راح يحتجزهم عنده كرهائن فى قلعته فى القاهرة ، وأدى دفع فدية إنقاذ أبنائهم على شكل خيول وأغنام وإبل ، إلى قوة أقوى الأقوياء بين هذه القبائل . وهنا اضطر أولئك البدو إلى استنكار عرف فرض الإتاوات على الفلاحين ، لكن البدو ظلوا شديدى المراس إلى أن وافق الباشا على إعطائهم جزءاً من هذه الإتاوة من خزانته الخاصة ، فى حين كان يتسلم هو الإتاوة كاملة التى كان الفلاحون يدفعونها للبدو ، هناك نحو ثلاثين قرية لا تزال تحت يدى الباشا، ولا يزال أصدقاؤه البدو هادئين وساكنين فى تلك القرى .

قبل حكم محمد على باشا كان عرب سيناء هم الذين يحمون السويس ، التى كان كل مسيحى فيها – بل كبار التجار الأتراك – يستخدم واحداً من هؤلاء البدو ليكون حارسا له ، مما اضطر هؤلاء المسيحيين والأتراك إلى تعويض هؤلاء الحماة بإتاوة سنوية وبعض الهدايا التى كانت تقدم لهؤلاء البدو من حين لآخر . هذا الحامى العربى

كان يطلق عليه اسم " الغفير " (*)، أما الشخص المحمى فكانوا يسمونه: " حسناى " ؛ نظرا لأنه كان يقدم " حسنة " أو هدايا . هؤلاء العرب زاد صلفهم وبذاءتهم ، وأصبح أهل السويس يخشونهم ويخافونهم ، إلى حد أن الفتاة البدوية الصغيرة إذا وقفت وحدها إلى جوار الآبار التى على بعد مسير ساعتين عن المدينة ، كانت تكفى لمنع السقائين من أخذ أية كمية من المياه من الآبار إلا بعد أن يقدموا لها بعض الهدايا .

شخصية البدوى وسلوكه الاجتماعى فى حال انتفاء المصالح أو الربح أو المكاسب تعد شخصية محبوبة بحق . وبشر البدوى ، وألمعيته ، واعتدال مزاجه ، وحلاوة طبعه ، وتعقله الذى يمكنه من إبداء الملاحظات الصائبة فى الموضوعات كلها – كل ذلك يجعل البدوى رفيقا قيما يسر الخاطر .

اعتدال مزاج هذا البدوى لا يتأثر مطلقا بالتعب أو المعاناة ؛ الأمر الذى يجعله مختلفا اختلافا كبيرا عن التركى متقلب الأحوال ، غير المستقر ، وصاحب المزاج الحاد . وأحسن شميلة فى شخصية البدوى (بعد إيمانه بالله عز وجل) تتمثل فى حنانه ، وإحسانه، وحبه للخير ، وسلوكه المسالم إذا لم يستفز أحد فيه حبه للحرب ، أو يمس شرفه .

والبدو فيما بينهم أمة من الإخوان ، ويجب أن نقر أن البدو غالبا ما يتشاجرون مع بعضهم البعض ، لكنهم على استعداد دوما فى زمن السلم لتقديم المعاونة والمساعدات المتبادلة . ولما كان البدو غير معتادين على مناظر الدماء التى تُغلِّظ قلوب الأتراك منذ سنوات الشباب – فإنهم يسعدون عندما ينمون فى داخلهم مشاعر الرحمة والعطف ، التى تجعلهم ينسون أن ذلك التعيس ربما كان عدوا من أعدائهم .

البدو أكثر تحفظا فى مشاجراتهم المنزلية ، لكنهم من ناحية أخرى أكثر حقدا من سكان المدن . الطبقات الدنيا ، وكذلك الطبقات الوسطى – أيضًا – من أهل المدن ، وبخاصة فى كل من سوريا ومصر ، يتشاجرون مع بعضهم البعض لأتفه الأسباب ، ويستخدمون فى ذلك أبشع السباب وأقذعها . ولقد شهدت بنفسى حوارات تصدم

(*) هذه كلمة عامية والمقصود بها هو " الخفير " . (المترجم) .

وتدهش أولئك الذين تكونت لديهم أفكار زائفة وغير حقيقية عن دماثة الشرق وأدبه وأخلاقه . التعبيرات والمصطلحات التى تستخدم فى مثل هذه المناسبات جديرة بأن تدرج ضمن مفردات بلنجيت ، لكن الأمر ينتهى فى أغلب الأحيان بالكلام . ويندر اللجوء إلى الضرب؛ نظرا لأن القاضى يدين دوما من يبدأ بالضرب . فى الطوارئ غير العادية يجرى استخدام الأسلحة، وفى الحالات التى يشارك الجنود فيها فى الشجار – فيما بين البدو – نجد أن السب واللعن يجرى على العكس من ذلك ، باستخدام لغة أكثر اعتدالا ، وأكثر رجولة . كما أن التعبيرات والشتائم المقيتة لا يجرى استخدامها بين البدو ، لكن استعمال هذه الشتائم المقيتة من قبل الحضر يكشف عن خيال عامر بالفسق والفجور . والبدو عندما يتشاجرون يكتفون بالعبارات التى من قبيل : " عمى فى عينك " ، يا كلب ! " " ضربة فى قلبك ! " " مرض لما يصيبك !" " إلهى وانت جاهى تخسر عائلتك !"، هذا بالإضافة إلى بعض التعبيرات الأخرى التى يشيع استعمالها فى الصحراء ، والتى تستثير فى البدو فورانا من الغضب الطبيعى على الرغم من صعوبة الوقوف على معنى هذه التعبيرات أو مبررات استخدامها . والبدوى عندما يكون فى أقصى موجات غضبه يمتنع عن استخدام اللغة التى يصعب نسيانها . والبدوى عندما ينعت خصمه بأنه كذاب ، أو خائن ، أو بخيل تعيس ، يكون قد وضع نفسه فى موقف لا يتم فيه معالجة هذه السباب إلا باستعمال الخنجر ، فإن أية مشاجرة تنشب بين البدو تنتهى غالبًا فى موعد أقصاه نصف ساعة ، يتصالح بعدها طرفا المشاجرة . أما إذا أصاب السب الشرف فلا يمكن قبول عذر أو دفاع مهما كان .

التَّحيَّة

الطريقة المعتادة للتحية فى الصحراء ، بعد " سلام عليك"، هى السؤال " طيب ؟ "، ثم المصافحة بالأيدى ، والتقبيل فى حال الغياب الطويل . وهذه الأشياء كلها تجرى ممارستها فى كل مكان . والبدو لا يعرفون شيئا عن عبارات الثناء وعبارات الترحيب المتعددة التى يشيع استعمالها فى المدن . السؤال عن صحة الشخص ، وعن سبب

غيابه الطويل ، ووصف الفرح والسرور لرؤيته مرة ثانية – لكل مناسبة منها السؤال الخاص والعبارة الخاصة بها ، إذا حاول الرد أو الإجابة بطريقة غير الطريقة المعتادة . هناك حوالى عشرون طريقة مختلفة لتحية الصباح فى القاهرة ؛ وإذا قال الشخص "نهارك أبيض" ليس هناك من رد على هذه التحية سوى "نهارك زى الحليب". هذه التعبيرات التى تقوم على الدعابة والتحية غير معروفة عند العربى الذى يتمنى صباحا طيبا عندما يلقى صاحبه ، أو عندما يودعه على الطريق . العرب الذين يعيشون حول مكة (وما يزال ذلك ساريا إلى يومنا هذا بين بدو اليمن) يقرأون بعد التحية شيئا من القرآن أو شيئا من الحديث الشريف ، الذى يتم الرد عليه – أيضًا – بشىء من القرآن أو شىء من الحديث الشريف – أيضًا – . واليمنيون بحكم جهلهم مثل البدو ، يحفظون عن ظهر قلب قسما كبيرا من مأثوراتهم الدينية .

البدوى الذى لا يعرف الشخص الذى يستجوبه يندر أن يجيب إجابة صادقة عن الأسئلة الخاصة بأسرته أو قبيلته . والأطفال – أيضًا – يجرى تلقينهم ألا يجيبوا على الأسئلة التى تكون من هذا القبيل ؛ مخافة أن يكون السائل عدوا سريا جاء بغرض الثأر أو الانتقام . ومن العار عند البدو أن تسأل الآخر عن قبيلته ؛ نظرا لأن البدو يعتقدون أن أصل الرجل يمكن الوقوف عليه أو معرفته من نبرته ولهجته ومظهره . وقد استاء مرشدى فى الصحراء عندما كنت أسأل الغرباء عن قبائلهم التى ينتمون إليها والواقع أنى لم أكن أحصل على إجابات مقنعة عن هذا الموضوع ، اللهم باستثناء تلك الأماكن التى كانوا يعرفون فيها أنى على علم ومعرفة بالقبائل المحيطة بهم ؛ الأمر الذى كان يمنعهم من الكذب علىّ أو خداعى. أما هؤلاء الذين يرون غريبا فى الصحراء، ويسألونه عن الماء ، أو أقرب الطرق ، أو الأشياء التى من هذا القبيل – عادة ما ينادونه قائلين: " يا عم " – ويرد هو على ذلك قائلا: " يا أخ " ؛ وعليه فنحن نسمع من يقول : "يا عم ، يا من تمشى هناك ، هل معك شىءٌ من الماء ؟ " وتكون الإجابة : " الحقيقة يا أخى، أنى معى شىءٌ من الماء ، تعال ومرحبا بك لتشرب " .

اللغة

تختلف لهجة البدو فى كل مكان عن اللغة العربية التى يتكلمها أهل المدن والقرى ، كما تختلف – أيضًا – عن لهجات القبائل التى تجاور مناطقها الأماكن المأهولة بالسكان ، والتى تختلط من خلال اتصالات متعددة بأهل الحضر والمدن .

البدو يستخدمون لهجة نقية إلى حد بعيد ، وسليمة فى بنيتها وتركيبتها النحوية عن اللغة العامية المستخدمة بين عامة الناس فى سوريا و مصر ، ومعروف أن أهل مصر و سوريا مستبعدون تماما من الصحراء . البدو أنفسهم بينهم تشكيلة متباينة من اللهجات ، واللغة التى يتكلمها البدوى النجدى تختلف عن تلك التى يتكلمها البدوى السيناوى ، كما تختلف لهجة البدوى السيناوى عن لهجة البدوى المصرى. لكن اللهجات جميعها تتفق على النطق بالحروف مستقلة نطقا سليما ؛ معبرة بذلك عن قوة الحروف المضبوطة والدقيقة ، وبخاصة ما يتعلق بحروف: الثاء ، والذال ، والضاد ، والظاء ، هذه الحروف لا تنطق نطقا دقيقا وسليما بين سكان المدن . يضاف إلى ذلك أن البدو يتفقون – أيضًا – على استعمال كلمات بعينها استعمالا عاما يطلق الناس عليه فى المدن اسم: "كلام نحو" ، بمعنى أن القواعد النحوية تراعى تماما فى مثل هذا الكلام . يزاد على ذلك أن البدو يرفضون دخول كثير من التعبيرات والمصطلحات السورية والمصرية الخاصة – إلى لغتهم العامية؛ نظرا لاعتقادهم بفساد هذه التعبيرات والمصطلحات من الناحية اللغوية . ويتعين علىَّ هنا التأكيد على أن العربية الممتازة يتحدث بها أهل الصحراء ، وأن البدو يتميزون عن العرب الآخرين بنقاء لغتهم ، كما يتميزون عن العرب الآخرين باللغة المستخدمة فى عاداتهم و تقاليدهم . وربما كان السبب وراء محافظة البدو طوال قرون متعددة على نقاء لغتهم هو غياب الكتب والكتابات ، وتكرار حفظهم للشعر عن ظهر قلب ، وتكرار إلقائهم لذلك الشعر أيضًا . الشبان البدو معتادون على استعمال التعبيرات الرشيقة المنتقاة ، كما أن فى المخيمات رجالا مُسنِّين يجدون متعة فى شرح معانى التعبيرات الصعبة التى ترد فى القصائد .

اقتفاء الأثر

يتعين علينا هنا إبداء بعض الملاحظات عن موهبة يشترك البدو فيها مع الهنود الأمريكيين الأحرار ؛ هذه هى موهبة قص أثر أقدام الإنسان والحيوان على الأرض . فى الغابات الأمريكية تكون هذه الآثار على العشب والحشائش ، لكنها تكون على الرمل فى الجزيرة العربية . والهنود الأمريكيون هم والعرب مهرة فى اقتفاء تلك الآثار . وعلى الرغم من تسليمنا بأن كل واحد من البدو يكتسب – بحكم الممارسة – شيئا من قص الأثر – إلا أن قلة قليلة من البدو هم الذين يتفوقون فى هذا الفن تفوقا كبيرا . والعربى الذى يكرس نفسه وينذرها لقص الأثر يستطيع أن يقطع بيقين كامل – بعد فحص الأثر – تحديد صاحب هذا الأثر ، وتحديد آثار بعض القبائل المجاورة ؛ وبذلك يمكن لمثل قصاص الأثر هذا تحديد ما إذا كان صاحب الأثر صديقا أم غريبا . هذا القصاص يستطيع – أيضًا – من خلال عمق الأثر معرفة ما إذا كان صاحبه يحمل حملا أم لا . ويستطيع – أيضًا – عن طريق قوة أو خفة الأثر معرفة ما إذا كان صاحب الأثر قد مر فى اليوم نفسه أم قبل ذلك بيوم أو يومين . و من خلال انتظام المسافة بين الخطوات يمكن للبدوى أن يعرف ما إذا كان صاحب الأثر مُتْعَبا أم لا ؛ والسبب فى ذلك أن الخطوات يزيد انتظامها بعد الإرهاق والتعب ، كما تختلف المسافة بين الخطوات فى مثل هذه الظروف . وبذلك يتمكن البدوى من معرفة إمكانية اللحاق أو عدم اللحاق بصاحب الأثر .

يزاد على ذلك أن كل عربى يعرف آثار أقدام إبله ، وآثار أقدام إبل جيرانه . وهو يعرف – أيضًا – من عمق أو ضحالة الأثر ما إذا كان الجمل يرعى أم لا ، وما إذا كان محمَّلا أم غير محمَّل ، وما إذا كان يحمل شخصا أو حملا أكبر من ذلك . أما إذا كانت آثار قدمى الجمل الأماميتين أعمق من آثار قدميه الخلفيتين فى الرمل ، فذلك يجعل البدوى يستنتج أن الجمل يعانى من تعب فى صدره ؛ وبذلك يتمكن الرجل من معرفة صاحب هذا الجمل . واقع الأمر أن البدوى عن طريق آثار أقدام الجمل وآثار

أقدام سائقه يستطيع الوصول إلى استنتاجات كثيرة ، تجعله يعرف الكثير عن الحيوان أو عن صاحبه . هذه الطريقة لاكتساب المعلومات تكاد تكون ظرفية فى بعض الأحيان ؛ هذا يعنى أن حكمة البدوى فى هذا الصدد تعد أمرا مدهشا وعجيبا . هذه الحكمة تزداد الحاجة إليها فى مطاردة الهاربين ، أو فى اقتفاء أثر الماشية .

رأيت رجلاً وهو يحاول الكشف عن جمله راح يقتفى أثر خطواته فى وادى من الوديان الرملية ، فى مكان داسته آلاف الأرجل من مختلف الاتجاهات ؛ فاستطاع تحديد أسماء كل الذين مروا من ذلك المكان فى صباح ذلك اليوم . وأنا بنفسى وجدت من المفيد أن أتعرف الأثر الذى تركته أقدام رفاقى وإبلى ؛ فقد يحدث بحكم الظروف فى بعض الأحيان أن ينفصل الرحالة عن أصدقائهم . والبدوى أثناء مروره خلال المناطق الوعرة أو الخطرة يندر أن يترك حضريا أو غريبا يمشى بجانب جمله ، وإذا كان ذلك الشخص يلبس حذاءً فسوف يخبر كل البدو الذين يمرون من هذه المنطقة أن حضريا مر من ذلك الطريق . أما إذا كان حافى القدمين وكانت آثار خطواته أقل عمقا عن آثار قدم البدوى – فذلك يكشف على الفور أن صاحب هذا الأثر من الحضر غير المعتادين على المشى . وهنا نخشى أن يشرع البدو فى تعقب مثل هذا الرجل ظنا منهم أن الحضر كلهم من الأثرياء، وأن أثر أقدام الرجل تدل على أنه كان يحمل أشياء قيمة. البدوى عندما يعمل مرشدا يكون ذهنه مشغولا دوما أثناء السير بمسألة اقتفاء الأثر ، وينزل فى أحيان كثيرة من فوق جمله للتأكد من حقيقة آثار الأقدام . وأنا أعرف أمثلة لإبل اقتفى أصحابها آثار أقدامها على امتداد مسافة تقدر بمسير ستة أيام ، إلى أن وصلوا إلى مكان الرجل الذى سرق الإبل .

معرفة قص الأثر هذه كشفت عن كثير من المعاملات السرية ، يضاف إلى ذلك أن البدوى يندر أن يهرب من مسألة اكتشاف تصرفاته السرية ؛ نظرا لأن مروره يكون مسجلا على الطريق بعلامات يستطيع قراءتها كل واحد من جيرانه العرب .

تأملات عامة

نحن عندما ندرس قوانين (أعراف) البدو - وبخاصة تلك الأعراف المحددة بدقة بالغة - نجد أنفسنا نتساءل تساؤلا طبيعيا عن كيفية وصول هذه المنظومة القانونية التى تعد قاسما مشتركا بين بدو الجزيرة العربية (والتى أنا على يقين من أنها شائعة بين الكثيرين منهم) إلى هذه الأمة البدوية . وهنا قد تقول : إنَّ هذه المنظومة نشأت عن الاحتياجات الطبيعية للقبائل ، التى كانت تنتهج أعرافا بعينها ببطء وبصورة متدرجة ، وأن هذه الأعراف بحكم الممارسة والاتفاق العام تحولت بحكم الممارسة إلى قانون عام. يزاد على ذلك أن الأعراف السياسية للبدو وطبيعة مناصب شيوخهم وكبرائهم ، وكذلك القواعد التى يتبعونها فى الحرب وفى التفاوض بشان السلام - تلك القواعد القانونية التى تقوم على حياتهم التجوالية الحرة - يمكن ردها - أيضًا - إلى الاحتياجات الطبيعية لهؤلاء البدو . هؤلاء البدو يبلغون من التكيف التام ، ومن السلاسة ، ومن البساطة ، حدًا يجعل أى أمة من هذه الأمم - شريطة ألا يكون قد جرى إخضاعها - إذا ألقى بها فى الصحراء الواسعة تروح تتبع القواعد والأعراف نفسها . لكن الحال على العكس تماما من ذلك فى أعرافهم المدنية ، التى يصعب تحديد ما إذا كانت قد نشأت مصادفة ، أو عن طريق التوافق المتدرج بين أفراد جمهور بدوى محب للحرب.

هناك - أيضًا - القانون العام الذى يبت فى قضايا الثأر ، والذى يرتكز على ما يسميه البدو: " الخمسة " والذى يحدد - أيضًا - مدة الكرم والضيافة بثلاثة أيام ونصف اليوم بالنسبة للهارب؛ وهناك - أيضًا - القواعد القانونية الخاصة بـ "الدخيل"، وقواعد قانونية أخرى خاصة بـ "الربيط" فضلا عن القواعد الخاصة بالطلاق ؛ وهناك - أيضًا - الفروق المميزة بين الجراح واللعنات ، والتى يمكن أن نضيف إليها طبيعة منصب العقيد . هذه القواعد كلها عرفية تماما إلى الحد الذى يجعلنى أقول إنها من وضع أحد المشرعين . يزاد على ذلك أن من يعرف القوانين التركية يدرك جيداً مدى اختلاف القانون المدنى البدوى عن القوانين العامة السارية فى كل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية . ويبدو أن المشرِّع الشرقى العظيم ، محمد على باشا ، لم ينجح فى فرض

قوانينه على شعبه ، أى: بدو الجزيرة العربية - بقدر نجاحه فى فرض هذه القوانين على البلدان المجاورة كلها، وذلك عن طريق مساعدة البدو ومعاونتهم له فى هذا الصدد. لقد أُجبر البدو على التخلى عن عبادة الأصنام ، والاعتراف بالخالق العظيم والواحد الأحد . لكن على الرغم من رضوخ البدو وقبولهم قلة قليلة من الطقوس الدينية ، والقيام ببعض الاحتفالات المظهرية - إلا أن القوانين المدنية التى نشرها محمد على باشا باعتبارها موحاة من السماء مباشرة لم يكن لها أى تأثير مطلقا على هؤلاء البدو ، فى حين نجد أن عاداتهم القديمة التى لم تتعارض مع العقيدة الدينية تواصلت ، و كان البدو يُراعونها ويواظبون عليها بانتظام . يزاد على ذلك أن المعارف الكبيرة التى حصلت عليها من القبائل فى كل من اليمن ونجد تسلط الضوء على كثير من العادات والأعراف والتقاليد الأخرى ، التى تتفق إلى حد كبير مع ما كان يدور فى زمن الجاهلية. والجاهلية هو الاسم الذى يطلقه المسلمون على الفترة السابقة لمحمد ﷺ .

وعليه إذا كانت قوانين البدو والمدينة قد نشأت مع محمد ﷺ ، وإذا كان تاريخ عصره لم يأت على ذكر أى مشرِّع من مشرعى الصحراء - فإن ذلك يحتم علينا البحث عن مشرِّعين لعصور أكثر قدما . لكن كل شىء فى الجزيرة العربية يلفه الظلام والشكوك ؛ وبالتالى ليس لدينا من الأسباب ما يجعلنا نتصور أن أى شيخ من شيوخ العرب أو ملك من الملوك الذين ازدهروا فى السنوات الباكرة ، والذين لا نعرف عنهم شيئًا سوى أسمائهم - قد أفلح فى مد سلطته وسلطانه على الأجزاء الصحراوية من الجزيرة العربية ، أو كانت له سلطة الحكم على بدوها . هناك أعراف قبيلة واحدة فقط هى التى انتقلت إلى ذريتها ، ولكن الأسفار الخمسة من العهد القديم أعطيت بكاملها لبنى إسرائيل ؛ وبذلك نظل جاهلين ولا نعرف معرفة تامة القوانين الداخلية لكثير من الأمم التى أحاطت بالعرق المختار .

قد يؤدى الأمر إلى اكتشاف بعض المخطوطات العربية التى تلقى الضوء على هذه النقاط ؛ والسبب فى ذلك أنه على الرغم من ثراء مكتباتنا بالمخطوطات والكنوز ،

فهى لا تحتوى حتى على عشر ما أنتجه المؤرخون العرب . والأرجح أن اكتشاف الآثار والنقوش القديمة فى كل من نجد واليمن سوف يؤدى إلى إماطة اللثام عن حقائق تاريخية جديدة . لكن على الرغم من استمرار جهل الخلف بهذه الموضوعات فإن الحال الحاضر لرابطة بدو الجزيرة العربية العظيمة يتحتم دراسته باعتباره واحداً من المجالات المهمة فى البحث؛ هذه الرابطة البدوية فى الجزيرة العربية – هى فى رأينا – مثال نادر لأمة استطاعت المحافظة – عبر امتداد عصور طويلة – على قوانينها البدائية بكامل حيويتها ، على الرغم من حالة الحرب المستمرة فى الداخل والخارج ، وعلى الرغم – أيضاً – من المحاولات المتكررة التى استهدفت إخضاع الجزيرة العربية . هنا ينبغى أن نقول: إن تطبيق هذه القوانين جرى فرضها عن طريق الروح والوطنية من ناحية ، والعادات السليمة لأفراد هذه المجتمع البدائى الوطنى من الناحية الأخرى .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربيـة - الرياض - المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١- التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣- الإستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر ،الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١- الموظف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال . القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- هارون الرشيد ، تأليف : فيلبى .

٢- الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١- حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣ - حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - سيرتى الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- سكين واحد لكل رجل .

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

المراجع فى سطور :

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ تاريخ العرب الحديث بقسم التاريخ والحضارة - جامعة الأزهر ١٩٩٤ - حتى الآن .

أستاذ بمعهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٤ - ٢٠٠٥

رئيس دار الوثائق القومية ١٩٩٩ حتى نهاية ٢٠٠٤

رئيس مكتب النادى العربى للمعلومات - مكتب القاهرة .

عضو مجلس أكاديمية الفنون .

رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية يناير ٢٠٠٥

من أهم مؤلفاته :

١ - "المتغيرات الاجتماعية فى المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية" .

٢ - "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى سالم بن حمود السيابى" .

٣ - "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى حميد بن رزيق" .

٤ - "العلاقات العربية العربية فى ظل الحرب الباردة" .

٥ - "دور الثقافة العربية فى دعم العلاقات العربية العربية" .

٦ - "الحركة الوطنية فى مصر ١٩٠٨-١٩١٤" ، القاهرة . ١٩٨٤ .

٧ - "المدخل إلى تاريخ أوروبا الحديث" .

٨ - "الفكر السياسى عند عباس العقاد" .

التصحيح اللغوى : أحمد عبد الباسط
الإشراف الفنى : حسن كامل



سبق بوركهارت الرحّالة كلهم وزار الجزيرة العربية فى العام 1810 الميلادى؛ ليؤلف الكتاب فى جزأين على الرغم من عدم نشره إلا فى العام 1928. يقسم المؤلف الجزأين إلى قسمين يوضحان ويشرحان بعضهما، ويظل كل منهما مؤلفًا مستقلاً ومتميزًا.

يعد أحد هذين الجزأين دراسة وصفية تحليلية، أما الثانى فهو رصد تاريخى.

الجزء الأول لا يقتصر على ذكر القبائل البدوية، ولا على تناول مجالسها ومنازلها المحلية المتباينة أو أعدادها أو قوتها العسكرية فقط، وإنما هو سرد أمين لعادات وتقاليد وأعراف غير عادية بيننا وبينها الآن قرابة قرنين من الزمان.

فى الجزء الثانى من الكتاب نجد بوركهارت يجمع من هذه المعلومات الأصلية سواء المدون فيها أو الشفاهى تاريخًا أصيلاً ومؤصلاً ودقيقًا وأمينًا للوهابيين المتحمسين تحمسًا شديدًا. والرجل يطلق العنان لمشاعره الصادقة بلغة سليمة سمحت لبعض المصطلحات والتراكيب العربية بالتوغل فيها والنفاذ إليها.

